

الكتاب : معالم مشعة من حياة الباقر عليه السلام

د. حسين إبراهيم الحاج حسن

معالم مشعة من حياة الباقر عليه السلام

د. حسين إبراهيم الحاج حسن

الإهداء

يا رسول الله... السلام عليك يا خاتم النبيين والسلام على آل بيتك الطيبين الطاهرين وعلى أصحابك المنتجبين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.
يا أيها الرسول الأعظم، ويا رسول الإنسانية جمعاء أرفع إلى مقامك العظيم لمحات سريعة عن سيرة سبطك العظيم الإمام محمد بن علي بن الحسين عليهم جميعاً أفضل الصلاة وأزكى السلام.
هذا الإمام الخامس من الأئمة المعصومين الذي سميته باسمك ولقبته بباقر العلم أقدم هذه الوريقات بين يديك الكريمتين بتواضع كلي رمزاً لولائي لعترتك الطيبين الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، وتمسكاً بحبل مودتهم وأملي الكبير من رسول الرحمة والهدى القبول.
فتناطف عليّ برضائك ليكون هذا البحث ذخراً لي يوم ألقى وجهك الكريم بإذن الله، والله ولي التوفيق.
عبدك

حسين إبراهيم الحاج حسن

شمسطار في ١٤/٣/١٩٩٥

الموافق ١٥ شوال ١٤١٥

فاتحة

بسم الله الرحمن الرحيم

(إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم)(١) (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً)(٢). (قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى ومن يقترب حسنة نزد له فيها حسناً إن الله غفور شكور)(٣). صدق الله العلي العظيم.

يا الله! نعطر أفواهنا بذكرك ونحمي قلوبنا بكتابك ونستدل الطريق بنورك. يا رفيع الدرجات، يا ذا العرش
أدعوك مخلصاً لك الدين، فاستجب لي وثبت قلبي بروح من أمرك على محبة أهل بيتك ومحبة من
تبعهم واهتدى بهديهم إلى يوم الدين.
يا الله! ارفعني فوق نفسي درجة أو درجات لأتخلص من قيود شرورها وأثقالها وأغتسل بمطر الفطرة
الأولى التي فطرتني عليها فأولد من جديد وأشم أطياب الحقيقة.

سمعت بخبر المباراة عن الإمام المعصوم الخامس الإمام محمد الباقر (عليه السلام) فعرتني رعدة
وذهول وفرحة وفضول. ووقفت على أعتاب خاتم النبيين محمد (صلى الله عليه وآله) صامتاً خاشعاً
حتى حركتني اليد المباركة، يد العمل الصالح وهي ترفع الكلم الطيب لتعلم الناس الشرفاء كيف يرتفعون
فوق نفوسهم درجات. سمعت صوتاً خفياً يناديني فيهبز أعماقي، ألا انهض وتشجع واكتب عن سمي
نبيك (صلى الله عليه وآله) واستعن بالله. فازداد قلبي ثباتاً وأنا أصعد إلى مدارج الغيب، إلى مأدبة الله
التي دعا إليها محمد رسول الله (صلى الله عليه وآله) جميع المؤمنين ليطلوا على حدائق اليقين. وفي
حديقة منها جميلة جداً فرحت بها كثيراً أنقلنتني مواسم الفرح. فسألت: فقالوا:
هذه حديقة الإمام الباقر، محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب سليل رسول الله (صلى الله
عليه وآله).

ثم هويت وهويت حتى وجدت نفسي على الأرض ومعني أحسن الفصول عن ابن بنت الرسول (صلى الله
عليه وآله).

حسين إبراهيم الحاج حسن

شمسطار في ١٤ / ٣ / ١٩٩٥

الموافق في ١٥ شوال ١٤١٥هـ

(١) سورة آل عمران، الآية ٣٣.

(٢) سورة الأحزاب، الآية ٣٣.

(٣) سورة الشورى، الآية ٢٣.

تقديم

محطتنا هذا العام عند كوكب من كواكب الإسلام المشرقة عظيم وعلم من أعلام الإنسانية كريم. نقف
عنده لنأخذ عبرة ونستلهم من مواقفه كل جوانب العلم والحلم والخير. نحن عند علم على شفة الموت
وجفن الحياة وبينهما مشرف الشهادة، وهذه فوق الحياة والموت لأنها عري الذات وامتشاق الإرادة
للانهمار على بحر الله بحر المعرفة والعرفان. والاندياح فيه دون شرع.

هو فرع الدوحة النبوية الشريفة لكنه يختلف عن سبفه بأشياء وأشياء، هو من النادرين في تاريخ الأرض وقد تميز تميزاً واضحاً يلفت النظر إلى الشكل والمضمون في العلوم التي بقرها بقرأ كأنه من نسيج الفضاء لا تحده حدود. إنه محمد بن علي بن الحسين (عليهم السلام) لبس درع الرسالة الإسلامية فوجد في كل حلقة فيه نبضة قلب تتفجر عزيمة، والعزيمة تشع كضوء يتماوج بألف لون ولون. ثم نظر إلى موقع قدميه فلمح كوة تتفتح على الجنة فيها آباؤه وأجداده الأطهار، ورفع بصره إلى فوق فإذا بنسمة عريضة من الفم الملاتكي وكأنها تقول له: سر في درب الحق وأسرع في العطاء النبيل الجليل فأنت محوط بال العناية الإلهية.

نقف بإجلال وتقدير كبيرين عند إشراقة من حياة الإمام الخامس من أئمة أهل البيت (عليهم السلام) عند أبي جعفر مجمع الفضائل، ومنتهى المكارم سبق الدنيا بعلمه وامتألت الكتب بحديثه. وليس من نافلة القول في شيء إن قلنا إن الإمام أبا جعفر كان من أبرز رجال الفكر ومن ألمع أئمة المسلمين، ولا غرو من أن يكون كذلك بعد أن سماه رسول الله (صلى الله عليه وآله) بالباقر في حديث جابر بن عبد الله الأنصاري، لأنه بقر العلم بقرأ، أي فجره ونشره فلم يرو عن أحد من أئمة أهل البيت . بعد الإمام الصادق (عليه السلام) ما روي عن الإمام الباقر (عليه السلام) أنها هي كتب الفقه والحديث والتفسير والأخلاق، مستفيضة بأحاديثه، مملوءة بأرائه، فقد روى عنه رجل واحد من أصحابه . محمد بن مسلم . ثلاثين ألف حديث، وجابر الجعفي سبعين ألف حديث، وليست هذه بميزة له عن بقية الأئمة المعصومين، فعقيدتنا (عليهم السلام) أنهم متساوون في العلم، سواسية في الفضل، فهم يغترفون من معين واحد: كتاب الله وسنة رسوله، وما أودع الله فيهم من العلم اللدني بصفتهم أئمة الحق وساسة الخلق الكريم وورثة الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله).

كان الإمام الباقر (عليه السلام) الرائد والقائد للحركة العلمية والثقافية التي عملت على تنمية الفكر العربي الإسلامي، وأضاءت الجوانب الكثيرة من التشريعات الإسلامية الواعية التي تمثل الأصالة والإبداع والتطور في عالم التشريع...

أما ما يدعم ذلك فقد ألمحنا إليه في هذا البحث المتواضع من العلوم والمعارف التي فتق أبوابها، وسائر الحكم والآداب التي بقر أعماقها، فكانت مما يهتدي بها الحيران، ويأوي إليها الظمآن، ويسترشد بها كل من يفيء إلى كلمة الله. لقد كانت حكمه السائرة وآدابه الخالدة من ابرز ما أثر على أئمة المسلمين في هذا المجال، فقد ملأت الفكر وعياً وأترعت القلب إيماناً ومكنت النفس ثقة وصقلت الروح جلالاً وصفاءً. نعم، إن الظروف التي مرت على الإمام الباقر (عليه السلام) كانت مؤاتية. فالدولة الأموية أصبحت في نهايتها واهية البنيان، مقلقلة الأركان، والثورات تقوم هنا وتهدأ هناك، فاستغل (عليه السلام) هذه الفرصة الذهبية ونشر ما أمكنه نشره من العلوم والمعارف، كما استغل ولده الإمام الصادق (عليه السلام) من

بعده انشغال الدولتين الأموية والعباسية عنه، فأتى ما كان والده قد أسسه، ولو تيسر للإمام الجواد (عليه السلام) أن يحصل على ظرف مناسب كظرف الصادقين (عليهما السلام) فما كان ليقتصر عن ذلك. فهو الذي أجاب في مجلس واحد عن ثلاثين ألف مسألة، لكن الظروف السياسية والاجتماعية تقوم بدورها في كل عصر. وهكذا كانت بقية الأئمة (عليهم السلام) كواكب مشرقة على مفارق الطرق كل واحد منهم قام بدوره على أكمل وجه وفي ظروفه وأوضاعه.

والإمام الباقر (عليه السلام) قام بدور عظيم في بحوثه ومحاضراته على الفقه الإسلامي وخاض جميع ألوان العلوم الفقهية والعلمية والفلسفية، أما تفسير القرآن الكريم فقد استوعب اهتمامه فخصص له وقتاً، ودون أكثر المفسرين ما ذهب إليه وما رواه عن آبائه في تفسير الآيات الكريمة. وقد ألف كتاباً في التفسير رواه عنه زياد بن المنذر الزعيم الروحي للفرقة الجارودية (١).

لقد ترك الإمام (عليه السلام) ثروة فكرية هائلة تعد من ذخائر الفكر الإسلامي، ومن مناجم الثروات العلمية في الأرض، وليس من المستطاع تسجيل جميع ما أثر عنه من العلوم والمعارف لأن ذلك يستدعي عدة مجلدات. وقد أشرت إلى ذلك إشارات سريعة وتركت الباب مفتوحاً لمن يريد التعمق والتفصيل في كل باب من هذه الثروات العلمية المعظمة. وناظر (عليه السلام) علماء المسيحيين والفرق والملحدتين، وقاوم الغلاة وخرج من مناظراته ضافراً باعتراف الخصم. لقد وقف حياته كلها لنشر العلوم الإسلامية بين الناس، عاش في يثرب كالينبوع الغزير يستقي منه رواد العلم من نعيم علومه وفقهه ومعارفه، عاش لا لهذه الأمة فحسب، وإنما للناس جميعاً.

وإن هذه البحوث التي أقدمها عن هذا العالم العظيم تبقى قاصرة عن استيعاب جميع جوانب علوم الباقر (عليه السلام) ومعارفه، ولا تحكي واقعه المشرق تماماً وإنما هي مؤشرات تلقى الضوء على بعض معالم شخصيته وأطلب المعذرة من باقر علوم الأولين والآخرين إذا تعبت في ارتقاء هذا الجبل الأخضر العظيم. إنه حبيبي وألمي ورجائي، والحبيب يعذر حبيبه.

(١) فهرست الشيخ الطوسي ص ٩٨.

المقدمة

حياة العظماء ثرة جداً بالعطاء هي مصدر إشعاع للفكر ونبوع فياض بالمثل، ومنهل نعيم للمعرفة، ونبوع غزير بالحكمة، وطاقة فياضة بالخير، وقوة جبارة في تفتيق أبواب العلم وتهذيب الأخلاق والآداب.

منها تستوحي الأمة العقيدة الحققة، ومنها تستمد الإيمان الصادق وبها تذود عن المبادئ القويمة، ومن مثلها العليا تعيش الحياة الحرة الكريمة.

حياة العظماء مدرسة كبرى للإنسانية ومحطة حضارية وضاء لتحقيق العدل وإظهار الحق ومقاومة الظلم والطغيان بأي ثمن من الأثمان. جهاد الأبطال عبر الأجيال يسد خطاهم وينير دروبهم. ولا نجد في الأمة على مسار التاريخ من يساوي أئمة أهل البيت (عليهم السلام) في عظمتهم وفضلهم، أو يباريهم في مقامهم ومكانتهم وشرفهم ونسبهم، فهم الثقل الذي تركه رسول الرحمة (صلى الله عليه وآله) بين ظهراني الأمة، وجعلهم نظراء القرآن الكريم. قال فيهم الرسول الأعظم موصياً للمسلمين. (إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا أبداً). كان أهل البيت حياة للعلم، وموتاً للجهل هم قادة الأمم وأصول الكرم. ساهموا في تأسيس الحركة العلمية وفي تكوين الثقافة الإسلامية فبسطوا العلم وأشاعوه بين المسلمين في وقت كان الجمود الفكري قد ضرب نطاقه في جميع أنحاء العالم الإسلامي.

في ذلك العصر منيت الأمة الإسلامية بثورات متلاحقة، وانتفاضات شعبية كان مبعثها جور الحكم الأموي واضطهاده، فأهملت من جراء ذلك الحياة العلمية والثقافية إهمالاً تاماً.

الإمام الباقر (عليه السلام) وعى كل هذه الأمور، ولما كان همه مصلحة الأمة الإسلامية ابتعد عن كل تلك التيارات السياسية ابتعاداً تاماً ولم يشترك بأي عمل سياسي، فانبرى صوب العلم وأسس قواعده وأرسى أصوله ورفع مناره فكان الرائد والقائد والمعلم لهذه الأمة في مسيرتها الثقافية كان من أهم ما عني به (عليه السلام) نشر الفقه الإسلامي الذي يحمل في جوهره روح الإسلام وتفاعله مع الحياة، ومن منجزاته العظيمة إقامة المدرسة الكبرى التي زخرت بكبار الفقهاء والعلماء والأدباء وإلى جانب الفكر والعلم تحلى الإمام الباقر (عليه السلام) بالأخلاق الحميدة والتجرد من كل نزعة مادية، فهو يمثل في سلوكه روح الإسلام وفكره وانطلاقه في هداية الناس وتهذيب سلوكهم وأخلاقهم. وقد داهمت الإمام (عليه السلام) كوارث عدة وهو في غضارة الصبا فامتحن بها امتحاناً شاقاً وعسيراً. من هذه الكوارث.

. مأساة كربلاء فقد شاهد بأمر عينه رزايا كربلاء وما جرى على العترة الطاهرة من صنوف القتل والتنكيل والإجرام. جرت أمامه عملية القتل الجماعي بوحشية وهمجية لعترة النبي (صلى الله عليه وآله). من قبل الجيش الأموي فقتلوا الشيوخ والأطفال والنساء، ومثلوا تمثيلاً أئماً بجثمان الإمام العظيم، ريحانة الرسول (صلى الله عليه وآله) وسيد شباب أهل الجنة. حمل الإمام (عليه السلام) مع أسرى أهل البيت إلى ابن مرجانة فبالغ في إذلالهم، ثم حملهم إلى الطاغية الفاجر يزيد بن ميسون فقابلهم بمزيد من التوهين والاحتقار. وعندها قامت السيدة زينب، عقيلة أهل البيت وخاطبته خطاباً تاريخياً فندت فيه مزاعمه الباطلة وإجرامه الحقير ووبخته في حضرته كلاماً قاسياً ترتعد له الفرائص.

.والكارثة الأخرى وهو في غضون الصبا أنه شهد واقعة الحرة التي انتهك فيها جيش الطاغية يزيد حرمة مدينة الرسول واستباح الأعراض والأموال وأزهق النفوس، ولم ينج من أهوال تلك الكارثة إلا الإمام زين العابدين (عليه السلام).

وعى الإمام الباقر تلك الأحداث المؤلمة، فتركت تلك الصور الحزينة في نفسه شعوراً طافحاً بالأسى والحزن، وظلت ملازمة له طوال حياته فلم يهنأ بعيش ولم يذق طعم سعادة الحياة.

ومن الأمانة العلمية أن نقول: إن عصر الإمام (عليه السلام) من أدق العصور في الإسلام. فالسياسة الأموية لم تضع نصب أعينها سوى مصالحها الشخصية ورغباتها في تحصيل أنواع الملذات الخاصة فأهملت مصالح الأمة وأثقلت كواهلها بالضرائب والخراج. والإمام (عليه السلام) عاش هذه الظلمات وعاصر أحداثاً سياسية مرهقة أثرت تأثيراً كبيراً في الحياة الاجتماعية والفكرية والاقتصادية في ذلك العصر.

وما نلفت إليه أن المكتبات العربية لم تحظ بدراسة عن هذا الإمام العظيم، العلم الكبير والرائد العظيم في التنقيف الاجتماعي والتكوين الحضاري للأمة الإسلامية.

وليس من الوفاء في شيء أن نهمل حياة عظمائنا وقادتنا وعلمائنا الذين كانوا مشاعل مضيئة بالخير لجميع الناس، في حين أننا نرى الأمم الأخرى تهتم بتخليد عظمائنا وتشيد بمآثرهم إلى العالم للتدليل على مدى أصالتها وما تملكه من قيم تقول إنها كريمة!!

هذا الاهتمام نجده في أوروبا التي أبرزت عظماءها بعصبية زائدة، فأعملت الخيال في تبرير النقص وتكميل العيب وإثارة لطلب الكمال. أما نحن العرب فقد وضعنا سدوداً وحواجز بين عظمائنا وبين استفادة شبابنا من ثرواتهم.

ألا يحق لنا أن نشيد بالإمام محمد الباقر (عليه السلام) الذي بقر العلوم بقرأ وفجرها تفجيراً وفتق أسرارها. فقد كان واحداً من عباقرة الدنيا الذي ملأ رحابها بمآثره وخدماته الجللى منها: تحرير النقد العربي والإسلامي من السيطرة الخارجية..

يقول القرشي:

(إن القدامى عنوا بالبحث عن سيرة الإمام الباقر (عليه السلام) فألف الجلودي عبد العزيز بن يحيى المتوفى سنة (٤٣٠هـ) كتاباً أسماه: (أخبار أبي جعفر الباقر)(١).

ولا أزعم أنني أحطت بمآثر الإمام الباقر (عليه السلام) ودونت جميع ما أثر عنه من فضائل وعلوم ومعارف، لكنني عملت جهدي من إلقاء الضوء على بعض نواحي شخصيته، وتركت الباب مفتوحاً للباحث للكشف عما أغفلته عن هذا الإمام العظيم وابن الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله) وحفيد الإمام الحسين، سيد الشهداء.

وما أحوجنا نحن اليوم، ونحن نتطلع إلى مستقبل أفضل، أن نأخذ من حياته (عليه السلام) الدروس والعبر، ونستلهم من سيرته المثل العليا، والفضائل المثلى لنحقق أهدافنا في الإصلاح النفسي والاجتماعي والإداري والسياسي... ونحيي مجد الإسلام الغابر ونعيش حياة كريمة في هذه الأيام الظالم أهلها والمظلمة رحابها. (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون) التوبة، الآية ١٠٥.

وقال الرسول الأعظم: (من عمل منكم عملاً فليتقنه).

والإتقان هو أعلى درجة من درجات المعرفة.

فلنحذر أيها الأخوة أعمالنا لننتقنها كل منا في الحقل الذي يعمل فيه ولننتذكر الآية الكريمة:

فإنه عز وجل يراقبنا، والرسول الأعظم يحاسبنا والمؤمنون من عباد الله الصالحين يستطلعون أعمالنا. وآمل أن يكون هذا البحث دعوة لي ولكم للسير حذو منهج هذا الإمام العظيم، مقتفين لآثاره، ميممين نحو أهدافه.

اللهم أعني على نفسي بما تعين به الصالحين على أنفسهم وخذ بيدي لما يسعدني في آخرتي ودنياي إنك سميع مجيب. وجنبي مزلق السوء، ومرابض الفتن وإنك أنت العزيز القدير. قال تعالى: (ربنا إننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنوا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار. ربنا وآتتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد)(٢).

(١) حياة الإمام الباقر (عليه السلام) ج ١ ص ١٥ عن الذريعة ج ١ ص ٣١٥.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٩٣ و ١٩٤.

الوليد المبارك العظيم

بمزيد من الفرح والابتهاج استقبل أهل البيت وليداً مباركاً عظيماً ازدهرت به الحياة الفكرية والعلمية ازدهاراً عظيماً وسجل له التاريخ صفحات بيضاء في رحاب الحضارة الإنسانية.

هو أول مولود التقت به عناصر السبطين الكريمين الحسن والحسين وامتزجت به الأصول الكريمة التي أعز بها الله عز وجل المسلمين خاصة والعرب عامة محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (عليهم السلام).

ولد في غرة رجب سنة (٥٧هـ) يوم الجمعة وقيل سنة (٥٦هـ)(١).

وقد أجريت له فور ولادته المراسيم الشرعية من الأذان والإقامة في أذنه، وحلق رأسه في اليوم السابع من ولادته والتصدق بزنة شعره فضة على المساكين، وذبح كبش عنه والتصدق به على الفقراء.

الأب

هو الإمام السجاد زين العابدين من ألمع سادات المسلمين علماً وفقهاً وتقياً ومعرفة في جميع نواحي الحياة الإنسانية الراقية.

الأم

هي السيدة الطاهرة فاطمة بنت الإمام الحسن سيد شباب أهل الجنة (الصديقة التي لم تدرك في آل الحسين مثلها) (٢) وحسبها سمواً أنها بضعة من ریحانة رسول الله (صلى الله عليه وآله) تربي الإمام الباقر في حجرها الطاهر فغذته بلبنها الطاهر وأغدقت عليه أشعة سماوية من روحها الزكية حتى أصبحت من ذاتيته الشخصية تفيض جمالاً وتذكو جلالاً وتسمو كمالاً.

أولاده

أ. الذكور: الإمام جعفر الصادق، عبد الله، إبراهيم، عبيد الله، علي.
ب. الإناث: السيدة زينب وأمها أم ولد، والسيدة أم سلمة وأمها أم ولد (٣).

أخوته

سئل أي إخوانك أحب إليك؟ فأجاب (عليه السلام) (أما عبد الله فيدي التي أبطش بها وأما عمر فبصري الذي أبصر به، وأما زيد (٤) فلساني الذي أنطق به، وأما الحسين فحليم يمشي على الأرض هوناً، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا: سلاماً).

كانت علاقة الإمام بأخوته علاقة حميمة وثيقة تسودها المحبة والألفة فلقد توافرت فيهم جميع الصفات الكريمة من التقوى والورع والصلاح، تغذوا من هدي أبيهم سيد الساجدين وزين العابدين الذي أنار قلوبهم بحقائق الإسلام ونور الإيمان ليعيدوا بين الناس حكم القرآن، ويقضوا على معالم الظلم الاجتماعي التي أوجدها الحكم الأموي. وهذا عرض موجز لسيرتهم.

١. الشهيد زيد:

الذي ملأ الدنيا بعلمه وفضائله وشمم آبائه، نشأ في بيت النبوة والإمامة تغذى بلباس الأدب وروح الحكمة وأثر رضا الله وطاعته على كل شيء كان لصحبته أخاه الباقر أثر فعال في سلوكه وتكوين شخصيته. ولد الشهيد سنة (٧٨هـ) ولما بشر أبوه الإمام زين العابدين (عليه السلام) أخذ القرآن الكريم وفتحته متفائلاً به فخرجت الآية الكريمة (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة) (٥) وفتحته ثانية فخرجت الآية: (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون) (٦) ثم فتح القرآن الثالثة فخرجت الآية (وفضل الله المجاهدين على القاعدین) (٧) عندها بهر الإمام وقال: (عزيزت عن هذا المولود وأنه لمن الشهداء) (٨) قام بثورة عارمة ضد الحكم الأموي الجائر والظالم والمستبد في أمور المسلمين سنة (١٢٢هـ) لكن خيانة أهل الكوفة وغدرهم أفشلت ثورته وجهاده ولما رأى تخاذلهم راح يقول: (فعلوها حسينية).

لقد أثر زيد عز الممات على ذل الحياة كما أثر ذلك أبأوه من قبله فلم يخضع للذل والعبودية ومات عزيزاً كريماً تحت ظل السيوف.

٢ . الحسين الأصغر :

كان من مفاخر الأسرة النبوية في فضله وتقواه وسائر مواهبه، كان من العلماء البارزين في عصره تحلى بالحلم والوقار والتقى والورع. نشأ في بيت الحكمة وتغذى من مثل أبيه الإمام زين العابدين ومن كمالاته وزهده في الدنيا. توفي في يثرب عن عمر يناهز (٥٧ عاماً) ودفن بالبقيع مجاوراً لأبيه الإمام زين العابدين ولأخيه الإمام الباقر (عليه السلام).

٣ . عبد الله الباهر :

هو أخو الإمام محمد الباقر لأمه وأبيه. لقب بالباهر لجماله، وما رآه أحد إلا هابه وأكبره. كان من مفاخر أبناء الأئمة الطاهرين في علمه وورعه وتقواه. عني بتربيته أبوه الإمام زين العابدين فغذاه من علومه وفضائله يقول المؤرخون إنه من فقهاء أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً. روي عن آبائه عن رسول الله، كما روي مرسلاً عن جده أمير المؤمنين، وعن جده لأمه الإمام الحسين (عليه السلام)(٩).

تولى عبد الله بالنيابة عن أخوته صدقات النبي (صلى الله عليه وآله) وصدقات الإمام أمير المؤمنين وقام بتوزيعها على حسب ما جاء في وصية النبي (صلى الله عليه وآله) والإمام أمير المؤمنين (عليه السلام).

٤ . عمر الأشرف :

ابن الإمام زين العابدين (عليه السلام) لقب بالأشرف بالنسبة إلى عم أبيه عمر الأطراف وذلك لما ناله من شرف وفضيلة بالنسبة لولادة جده (١٠) الحسين (عليه السلام) من سيدة نساء العالمين فاطمة الزهراء عليها السلام بخلاف عمر الأطراف فإنه نال الشرف من طرف أبيه الإمام أمير المؤمنين. قال الإمام الخوئي: (هو أشرف من الأطراف بحسبه وفضله وورعه)(١١).

وقد تولى صدقات النبي (صلى الله عليه وآله) وصدقات جده الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) ودلت عليه أعماله بالسخاء والنبيل وسمو الأخلاق والإنسانية.

٥ . علي :

ابن الإمام زين العابدين توفي بينبع ودفن فيها وعمره ثلاثون سنة وقد أهملت مصادر التراجم والنسب ترجمة ملمة عن حياته.

أولاده

أولاد الإمام الباقر كأخوته، كانوا من مفاخر المسلمين في هديهم وصلاتهم شربوا من مكارم أخلاق أبيهم وتغذوا من مثله العليا ونزعاته الكريمة وابتوا امتداداً مشرقاً لذرية طاهرة طبق شذاها العالم بأسره. هم

خمسة ذكور وسيدتان.

١. الإمام جعفر الصادق:

هو سيد ولده، ووصيه، والإمام القائم من بعده، كان في طليعة عباقرة العالم على الصعيد العلمي والفكري والاجتماعي أبدع فيها كلها. فعلى سبيل الذكر: علم الكيمياء ألقى بحوثه فيها على جابر بن حيان العالم المعروف ومفخرة الشرق العربي في التقدم التكنولوجي. ولا يزال الكثير من نظريات الإمام في هذا الفن لم تكتشفها العلوم الحديثة. والبحوث الفلسفية وعلم الكلام، يعد الإمام الصادق من الرواد الأوائل فيها. من طلابه الذين تخرجوا على يده هشام بن الحكم، النموذج الرائع في هذه البحوث. والعلوم الفقهية فإنه المؤسس لها والواضع لقواعدها وأصولها استمد ينابيعها من آبائه الطاهرين. وقد حفلت الموسوعات الفقهية بما أثر عنه من هذا العلم في الأصول والفروع، ناهيك عن سائر العلوم الإسلامية الأخرى كعلم التفسير والحديث والأخلاق والاجتماع.

٢. عبد الله:

ابن الإمام الباقر وأمه أم فروة بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر (١٢) تعهد تربيته والده فكان من أفاضل العلويين. لكن يد الشر الأموية لم توفره فقد دخل عليه أحد أرجاس بني أمية وسقاه السم ولم يلبث بعدها قليلاً حتى فارق الحياة. ومضى عبد الله شهيداً شأنه شأن آبائه الأطهار الذين أجهزت عليهم النفوس الحاقدة الآثمة لكن الله جل وعلا يأبى إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون.

٣. علي:

لقب بالطاهر لطهارة نفسه وعظيم شأنه، عاش في كنف أبيه الإمام الباقر (عليه السلام) وترى على هديه فكان المثال للفضل والكمال وحسن الخلق جاء في سفينة البحار عن صاحب رياض العلماء أن قبره في (كاشان) وعليه قبة رفيعة عظيمة وله كرامات ظاهرة (١٣).

٤. عبيد الله:

هو ابن الإمام الباقر (عليه السلام) أمه أم حكيم بنت أسيد بن المغيرة الثقفية (١٤) توفي في حياة أبيه ولم نعثر له على ترجمة وافية فيما حصلناه من المصادر.

٥. إبراهيم:

هو ابن الإمام الباقر (عليهم السلام) أمه أم حكيم بنت أسيد بن المغيرة الثقفية فيكون شقيق عبيد الله لأمه وأبيه. وهذا أيضاً لم نوفق بمعلومات مفصلة عنه في المصادر التي بين أيدينا.

السيدات من بناته:

أما السيدات من بناته فهن:

١. السيدة زينب: وأمها أم ولد.

٢. والسيدة أم سلمة وأمها أم ولد: وهي أم إسماعيل بن الأرقط وقد مرض ولدها فهرعت إلى أخيها الإمام جعفر الصادق وأخبرته فأمرها أن تصعد فوق البيت وتصلي ركعتين، وتدعو الله بهذا الدعاء: (اللهم إنك وهبته لي، ولم يك شيئاً، اللهم واني استوهبكه فأعرنيه...)(١٥).

ففعلت ذلك فعافاه الله. (وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير)(١٦).

تسميته

سماه جده رسول الله (صلى الله عليه وآله) بمحمد على اسمه وكناه بالباقر قبل أن يخلق بعشرات السنين، وقد استشف من وراء الغيب ما سوف يقوم به سبطه من نشر العلم بين الناس وإذاعته فبشر به أمته كما حمل له تحياته مع الصحابي الجليل جابر (١٧).

كنيته

(أبو جعفر) ولا كنية له غيرها، لقد كني الإمام جعفر الصادق (عليه السلام) الذي فجر ينابيع الحكمة في الأرض، وبعث الروح والحياة في هذه الأمة.

ألقابه

ألقابه الكثيرة تدل على ملامح شخصيته العظيمة ونزعاته الرفيعة:

الأمين (لقبه به جده الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله).

الشاكر.

الهادي.

الشبيه (لأنه كان يشبه جده رسول الله صلى الله عليه وآله)(١٨).

الصابر.

الشاهد.

الباقر وهو أكثر ألقابه شهرة وذيوعاً، وقد لقب به هو وولده الإمام الصادق (بالباقرين) كما لقبا

(بالصادقين) من باب التغليب. ولقب الباقر سمي به لتبقره في العلم.

قال الطلقاني: عن الجلودي، عن المغيرة بن محمد، عن رجاء بن سلمة، عن عمرو بن شمر قال: سألت

جابر الجعفي فقلت له: ولم سمي الباقر باقراً، قال: لأنه بقر العلم بقرأ أي شقه شقاً وأظهره إظهاراً

(١٩). وفيه يقول الإمام الفرضي:

يا باقر العلم لأهل التقى وخير من لبي على الأجل (٢٠)

وكأنهم نظروا في ذلك إلى ما أثر عنه من سعة العلوم والمعارف فجعلوا هذا اللقب مشعراً بها.

ملاحه

أما عن ملاحه الشريفة فهي حسب ما يقول جابر بن عبد الله الأنصاري الصحابي العادل، كانت كملامح جده رسول الله (صلى الله عليه وآله) وشمائله (٢١). وكما شابهه جده الأكرم في صفاته الجسدية فقد شابهه أيضاً في صفاته الأخلاقية الكريمة. ووصفه بعض المعاصرين له فقال:

إنه كان معتدل القامة، أسمر اللون، رقيق البشرة له خال، ضامر الكشح، حسن الصوت مطرق الرأس (٢٢)، كريماً يتصدق على أصحاب الحاجة ويعتق العبيد ويكرم العلماء..

الذكاء المبكر

عرف الصحابة ما يتحلى به الإمام الباقر (عليه السلام) منذ نعومة أظفاره بالعلم الغزير والمعرفة والواسعة فكانوا يرجعون إليه في كل المسائل التي لا يهتدون إلى حلها. يقول الرواة: إن جابر بن عبد الله الأنصاري وهو شيخ كبير، كان يأتيه فيجلس بين يديه ليتعلم.. وقد أعجب جابر من سعة دائرة العلم عند الإمام وعمق معارفه المتعددة فطفق يقول: (يا باقر لقد أوتيت الحكم صيباً) (٢٣).

كما روى المؤرخون أن رجلاً سأل عبد الله بن عمر عن مسألة فلم يقف على جوانبها فقال للرجل: اذهب إلى ذلك الغلام. مشيراً إلى الإمام الباقر. فأسأله وأعلمني بما يجيبك. فبادر الرجل نحو الإمام وسأله فأجابه (عليه السلام) عن مسألته ثم خف إلى ابن عمر وأخبره بجواب الإمام. عندها أبدى إعجابه بذكاء الإمام المبكر. وقال: (إنهم أهل بيت مفهمون) (٢٤).

ولا غرابة في الأمر فالله سبحانه وتعالى خص أهل البيت بالعلم والفضل والمعرفة، ووهبهم الكمال المطلق الذي يهبه لأنبيائه. وعن الأئمة المعصومين قال الرسول الأكرم: (إني تارك فيكم الثقلين ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا أبداً: كتاب الله وعترتي أهل بيتي).

فكل فرد من أئمة أهل البيت لا تخفى عليه أية مسألة تعرض عليه لأنهم (عليهم السلام) زقوا العلم زقاً وأخذوه من مصادره الأساسية الصحيحة ونشروه على الناس جميعاً ليظهروا الحق ويعلموا كلمة الله جل شأنه.

يقول المؤرخون: إن الإمام الخامس محمد الباقر (عليه السلام) سئل عن أدق المسائل فأجاب عنها وكان له من العمر تسع سنين.

الهيبة والوقار

أهل البيت لهم ملامح خاصة تبدو عليهم هيبة الأنبياء ووقارهم، فما جلس معهم أحد إلا هابهم وأكبرهم. وقد تشرف فقيه أهل البصرة، قتادة، بمقابلة الإمام الباقر ولما رآه اضطرب قلبه من هيئته الموقرة وقال

بعد المقابلة: (لقد جلست بين يدي الفقهاء وأمام ابن عباس فما اضطرب قلبي من أي أحد منهم مثل ما اضطرب قلبي منك) وهو يخاطب الإمام.

لقد تجلت في شخصية الإمام الباقر سمات أبيه السجاد، زين العابدين وجده الإمام الحسين، سيد شباب أهل الجنة، وجديه: الإمام علي بن أبي طالب إمام المتقين والنبى الأكرم خاتم النبيين (صلى الله عليه وآله).

هذه الهيبة هي هيبة نبوية، وهذه الملامح ملامح نورانية تميز الأئمة عن سائر الناس العاديين. وممن بهرتهم هيبة الإمام الباقر الشاعر المغربي الذي قال في وصفه:

يا ابن الذي بلسانه وبيانه هدي الأنام ونزل التنزيل

عن فضله نطق الكتاب وبشرت بقدومه التوراة والإنجيل

لولا انقطاع الوحي بعد محمد قلنا: محمد من أبيه بديل

هو مثله في الفضل إلا أنه لم يأت برسالة جبريل (٢٥)

روى المؤرخون أن الإمام كان يبتعد عن كل ما ينافي الوقار واحترام الشخصية الكريمة، ولم ير ضاحكاً، وإذا ضحك كان يقول: (اللهم لا تمقتني) (٢٦) والصفة الظاهرة من صفاته هي ذكر الله بلسانه بصفة مستمرة، ففي جميع أوقاته يبقى مشغولاً بذكر الله.

نقش خاتمه

كان الإمام الباقر يتختم بخاتم جده الإمام الحسين الذي كان نقشه (إن الله بالغ أمره) (٢٧) أما نقش خاتم الإمام الباقر فهو: (العزة لله جميعاً) (٢٨) وهذا مما يدل على انقطاعه التام إلى الله وشدة تعلقه به. حدث أحمد بن محمد، عن البرقي، عن وهب بن وهب، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: كان نقش خاتم أبي (العزة لله جميعاً) (٢٩).

شعراؤه

من الشعراء الذين اهتموا بالدعوة الإسلامية عامة وبالإمام الباقر خاصة الشاعر المعروف: كثير عزة، والشاعر: الكميت بن زيد الأسدي، والشاعر: الورد الأسدي شقيق الكميت، والشاعر: السيد الحميري.

بوابه

جابر الجعفي، الصحابي التقي الجليل الذي روى عن الإمام أكثر الأحاديث.

ملوك عصره

كانت مدة إمامته (عليه السلام) تسعة عشر عاماً، عاصر خلالها:

الوليد بن عبد الملك، وسليمان بن عبد الملك، وعمر بن عبد العزيز، ويزيد بن عبد الملك، وهشام بن عبد الملك.

إقامته

أقام (عليه السلام) طيلة حياته في يثرب دار الهجرة، ولم يبرحها إلى بلد آخر، وقد كان فيها الرائد الأكبر للحركات العلمية والثقافية والمعلم الأول، وقد اتخذ المسجد النبوي مدرسة له يلقي فيه محاضراته القيمة على طلابه إنه الإمام الباقر الذي بقر العلم بقرّاً وأظهره إظهاراً فملاً الدنيا بعلمه وحديثه ومحاوراته.

وفاته (عليه السلام) إلى الفردوس الأعلى

كانت يوم الاثنين، السابع من ذي الحجة سنة ١١٤ هـ حيث عانقت روحه الطاهرة أرواح أجداده وأبيه عليهم جميعاً أفضل الصلاة والسلام في الجنة التي وعدهم بها الله جل جلاله. وله من العمر ٥٨ سنة وقد انطوت بموته أروع صفحة من صفحات الرسالة الإسلامية التي أمدت العالم الإسلامي بأبهى آيات الوعي وأرقى درجات التطور وأنقى حالات الازدهار.

نصه على الإمام الصادق (عليه السلام)

نص الإمام الباقر على إمامة ولده الإمام الصادق مرجعاً عاماً للأمة من بعده، وأوصى شيعته بلزوم أتباعه وطاعته.

وكان الإمام يعرف مكانة ولده وأهليته فيشيد به ويدلل على إمامته فقد روى أبو الصباح الكنائي، قال: نظر أبو جعفر إلى أبي عبد الله يمشي، فقال: ترى هذا؟ هذا من الذين قال الله عز وجل: (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين) (٣٠).

(١) دائرة المعارف لفريد وجدي ج٣ ص٥٦٣، وفيات الأعيان ج٣ ص٣١٤ وتذكرة الحفاظ ج١ ص١٢٤.

(٢) أصول الكافي ج١ ص٤٦٩.

(٣) طبقات ابن سعد ج٥ ص٢٣٠ وسفينة البحار ج١ ص٣٠٩.

(٤) سفينة البحار ج٢ ص٢٧٣ وعبد الله هو أخو الإمام لأمه وأبيه.

(٥) سورة التوبة، الآية ١١١.

(٦) سورة آل عمران، الآية ١٦٩.

(٧) سورة النساء، الآية ٩٥.

(٨) الروض النضير ج١ ص٥٢.

(٩) الإرشاد ص٣٠٠ وتهذيب التهذيب ج٥ ص٣٢٤.

(١٠) من هنا نرى رده على الطاغية هشام بن عبد الملك عندما عيره أنه ابن أمه فقال له: إن الأمهات لا يقعدن بالرجال عن الغايات، وقد كانت أم إسماعيل أمةً لأم إسحاق فلم يمنعه ذلك أن بعثه الله نبياً

وجعله أبا العرب وأخرج من صلبه خير الأنبياء محمد (صلى الله عليه وآله): الكامل لابن الأثير ج ٥ ص ٨٤.

- (١١) المصدر السابق.
 - (١٢) الإرشاد ص ٣٠٣ ومقاتل الطالبين ص ١٥٩.
 - (١٣) سفينة البحار ج ١ ص ٣٠٩.
 - (١٤) الإرشاد ص ٣٠٣.
 - (١٥) سفينة البحار ج ١ ص ٣٠٩.
 - (١٦) سورة آل عمران، الآية ٢٦.
 - (١٧) الفصول المهمة ص ١٩٨.
 - (١٨) علل الشرائع ج ١ ص ٢٣٣ وعيون الأخبار ص ٢١٣.
 - (١٩) أعيان الشيعة ج ٤ ص ٤٦٤ والمناقب لابن شهر آشوب ج ٤ ص ٢١٠.
 - (٢٠) الإمام محمد الباقر لباقر شريف قرشي ص ٢٢.
 - (٢١) أصول الكافي ج ١ ص ٤٦٩.
 - (٢٢) أعيان الشيعة ج ٤ ص ٤٧١.
 - (٢٣) علل الشرائع ص ٢٣٤.
 - (٢٤) المناقب ج ٤ ص ١٤٧.
 - (٢٥) المناقب ج ٤ ص ١٨١.
 - (٢٦) تذكرة الخواص ص ٣٤٩ وصفة الصفوة ج ٢ ص ٩٢.
 - (٢٧) أعيان الشيعة ج ٤ ص ١٦٩.
 - (٢٨) حلية الأولياء ج ٣ ص ١٨٦.
 - (٢٩) التهذيب ج ١ ص ٣٢ والاستبصار ج ١ ص ٤٨.
 - (٣٠) أصول الكافي ج ١ ص ٣٠٦.
- النص عليه بالخلافة

من نعم الله تبارك وتعالى على خلقه تمييزهم من سائر الخلق الآخرين بميزات خاصة يترتب عليها مسؤوليات كبيرة تجاه أنفسهم وتجاه مجتمعهم.

وأهل البيت (عليهم السلام) تميزوا عن غيرهم من الناس: بالعلم والأخلاق والتقى والورع. إلى جانب هذا كله خصهم جدهم الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله) بنص خاص مفاده تصنيفهم أئمة للأمة الإسلامية فكانوا كما أراد (صلى الله عليه وآله) سداة الدين وأعلاماً للنجاة ونجوم هداية لكل ضال عن

(صلى الله عليه وآله) لجابر: يا جابر يوشك أن تلحق بولد من ولد الحسين (عليه السلام) اسمه كاسمي، بيقر العلم بقرأ، أي يفجره تفجيراً، فإذا رأيته فاقرأه مني السلام. قال جابر (رضي الله عنه): فأخر الله مدتي، حتى رأيت الباقر، فقرأته السلام عن جدّه رسول الله (صلى الله عليه وآله)(٦).

وروى الخزاز بإسناده عن أبي خالد الكابلي قال: (دخلت على علي بن الحسين (عليه السلام) وهو جالس في محرابه فجلست حتى انثنى وأقبل علي بوجهه يمسح يده على لحيته، فقلت: يا مولاي أخبرني كم يكون الأئمة بعدك؟ قال: ثمانية قلت: وكيف ذلك؟ قال: لأن الأئمة بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله) اثنا عشر عدد الأسباط، ثلاثة من الماضين، وأنا الرابع وثمان من ولدي أئمة أبرار، من أحبنا وعمل بأمرنا كان معنا في السنام الأعلى، ومن أبغضنا وردنا أورد واحداً منا كافر بالله وبآياته)(٧). جاء الإمام الباقر الدنيا فملأها بعلمه وحديثه وتفسيراته حتى قال جابر الجعفي حدثني أبو جعفر سبعين ألف حديث. وقال محمد بن مسلم سألته عن ثلاثين ألف حديث.

(١) أعلام الورى للفضل بن الحسن الطبرسي ص ٢٦٦ النص على الأئمة.

(٢) الإرشاد ص ٢٨١.

(٣) الصراط المستقيم لعلي بن يونس العاملي البياضي ج ٢ ص ١٦١ . ١٦٢.

(٤) كفاية الأثر وإثبات الوصية ص ١٤٢.

(٥) تاريخ اليعقوبي ج ٣ ص ٦٣.

(٦) سبائك الذهب ص ٧٢.

(٧) كفاية الأثر لعلي بن محمد الخزاز القمي الرازي ص ٢٣٦.

مؤلفاته

كتاب التفسير، ذكره ابن النديم، ورسالة إلى سعد الخير من بني أمية، ورسالة ثانية منه إليه، وكتاب

الهداية (١).

أصحابه وتلاميذه

ذكر محمد بن الحسن الطوسي أن أصحاب الإمام الباقر وتلاميذه كثر حتى وصل عددهم إلى أربعمائة واثنين وستين رجلاً وامرأتين. وقال ابن شهر آشوب (إن أفضه الأولين سنة هم أصحاب أبي جعفر وأبي عبد الله (عليهما السلام) وهم:

زرارة بن أعين، ومسعود المكي، وأبو نصير الأسدي، والفضيل بن يسار، ومحمد بن مسلم الطائفي،

ويزيد بن معاوية العجلي.

ومن أصحابه:

حمران بن أعين الشيباني وأخوته: بكر وعبد الملك وعبد الرحمن، ومحمد بن إسماعيل بن بزيع، وعبد الله بن ميمون القداح، ومحمد بن مروان الكوفي من ولد أبي الأسود، وإسماعيل بن الفضل الهاشمي من ولد نوفل بن الحارث، وأبو هارون المكفوف، وطريف بن ناصع، وسعيد بن طريف الإسكافي الدؤلي، وإسماعيل بن جابر الخنعمي الكوفي، وعقبة بن بشير الأسدي، وأسلم المكي مولى ابن الحنفية، وأبو بصير ليث بن البخترى، والكميت بن زيد الأسدي، وناجية بن عمارة الصيداوي، ومعاذ بن مسلم الفراء النحوي، وكثير الرجال(٢).

إذا ألقينا نظرة سريعة على هذه العينة من طلابه وأصحابه لوجدنا فيهم العلماء والفقهاء والأدباء والشعراء والأتقياء من جميع البلدان كلهم تجمعوا حول الإمام ليغذوا أرواحهم من معين حفيد رسول الله (عليه السلام).

(١) أعيان الشيعة ج ٤ ص ٦٥.

(٢) المناقب لابن شهر آشوب ج ٤ ص ٢١١.

عبادته

الإمام أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين (عليهم السلام) من الأئمة المتقين في الإسلام عرف الله سبحانه وتعالى عن طريق آبائه المعصومين وأجداده المطهرين معرفة يقينية استوعب دوائل نفسه، فأقبل على ربه، فاطر السماوات والأرض بقلب منيب وإخلاص شديد وطاعة تامة. أما مظاهر عبادته:

١. خشوعه في صلاته:

روى المؤرخون أنه كان إذا أقبل على الصلاة اصفر لونه خوفاً من الله عز وجل وخشية منه، وهو كأبيه الإمام السجاد في ورعه وتقاه وتحرجه في الدين. لقد عرف عظمة الله تعالى، خالق الكون وواهب الحياة معرفة النبيين والمنتقين (١).

٢. كثرة صلاته:

يقول الرواة أنه كان كثير الصلاة كثير الدعاء، كان يصلي في اليوم والليلة مائة وخمسين ركعة (٢). ولم تشغله مرجعيته العامة للأمة وشؤونه العلمية عن كثرة الصلاة، كانت الصلاة بالنسبة إليه أعز شيء عنده وقرّة عينه لأنها الصلة بينه وبين الله عز وجل.

٣. دعاؤه في سجوده:

قال تعالى: (وقال ربكم ادعوني أستجب لكم)(٣) وجاء في الحديث الشريف: أقرب ما يكون العبد إلى ربه وهو ساجد. كان الإمام (عليه السلام) يتجه بقلبه وعقله نحو الله، رب العالمين، ليناجيه بانقطاع تام

وإخلاص شفاف. وقد أثرت عنه بعض الأدعية.

رووا عن أبي عبد الله الصادق (عليه السلام) قال: (كنت أمهد لأبي فراشه فأنتظره حتى يأتي، فإذا أوى إلى فراشه ونام قمت إلى فراشي. وقد أبطأ علي ذات ليلة فأنتيت المسجد في طلبه وذلك بعدما هدأ الناس، فإذا هو في المسجد ساجد، وليس في المسجد غيره فسمعت حنينه وهو يقول (٤):

(سبحانك اللهم، أنت ربي حقاً حقاً، سجدت لك يا ربي تعبداً ورقاً، اللهم إن عملي ضعيف فضاعفه لي.. اللهم قني عذابك يوم تبعث عبادك، وتب علي إنك أنت التواب الرحيم).

وما رواه أبو عبيدة الحذاء قال: سمعت أبا جعفر يقول: وهو ساجد في السجدة الأولى:

(أسألك بحق حبيبك محمد (صلى الله عليه وآله) إلا بدلت سيأتي حسنات وحاسبني حساباً يسيراً) وقال في السجدة الثانية:

(أسألك بحق حبيبك محمد (صلى الله عليه وآله) إلا ما كفيته مؤونة الدنيا، وكل هول دون الجنة) ثم قال في السجدة الثالثة:

(أسألك بحق حبيبك محمد (صلى الله عليه وآله) لما أدخلتني الجنة، وجعلتني من سكانها ولما نجيتني من سفعات النار برحمتك، وصلى الله على محمد وآله) (٥) ثم قال في الرابعة:

(أسألك بحق حبيبك محمد لما غفرت الكثير من ذنوبي والقليل، وقبلت مني العمل اليسير).

هذه الأدعية، كما يتوضح منها، تدل على شدة الإمام (عليه السلام) بتعلقه بالله وشدة تمسكه بطاعته، وعظيم إنابته إليه.

٤. دعاؤه في قنوته:

وأثرت عنه أيضاً بعض الأدعية التي كان يدعو بها في قنوته منها (٦):

(بمنك وكرمك يا من يعلم هواجس السرائر ومكامن الضمائر وحقائق الخواطر، يا من هو لكل غيب حاضر، ولك منس ذاكر، وعلى كل شيء قادر، وإلى الكل ناظر، بعد المهل وقرب الأجل وضعف العمل، وأرأب الأمل).

وأنت يا الله الآخر كما أنت الأول مبيد ما أنشأت، ومصيرهم إلى البلى، وتقلدهم أعمالهم، ومحملها ظهورهم إلى وقت نشورهم من بعثة قبورهم عند نفخة الصور، وانشقاق السماء بالنور، والخروج بالمنشر إلى ساحة المحشر، لا ترتد إليهم أبصارهم وأفتدتهم هواء متراطمين في غمة مما أسلفوا، ومطالبين بما احتقبوا، ومحاسبين هناك على ما ارتكبوا، الصحائف في الأعناق منشورة، والأوزار على الظهر مارورة، لا انفكاك ولا مناص ولا محيص عن القصاص قد أقحمتهم الحجة وحلوا في حيرة المحجة وهمس الضجة، معدول بهم عن المحجة، إلا من سبقت له من الله الحسنى فنجا من هول المشهد وعظيم المورد، ولم يكن ممن في الدنيا تمرد، ولا على أولياء الله تعند ولهم استبعد، وعنهم بحقوقهم تفرد.

اللهم: فإن القلوب قد بلغت الحناجر، والنفوس قد علت التراقي والأعمار قد نفذت بالانتظار لا عن نقص استبصار، ولا عن اتهام مقدار، ولكن لما تعاني من ركوب معاصيك، والخلاف عليك في أوامرك ونهيك، والتلعب بأوليائك، ومظاهرة أعدائك.

اللهم: فقرب ما قد قرب، وأورد ما قد دنى، وحقق ظنون الموقنين وبلغ المؤمنين تأميلهم من إقامة حقك ونصر دينك وإظهار حجتك(٧).

هذا الدعاء وثيقة كاملة تحفل بصورة واضحة عن سعة علم الإمام (عليه السلام) في جميع حقوق المعرفة في الظاهر والخفي والمعاد وحشر الناس يوم القيامة لعرضهم للحساب أمام الله، وكل واحد منهم يحمل وزره على ظهره ومطالبه بما اقتترفه في الدار الدنيا، ولا ينجو من أهوال ذلك المشهد الرهيب إلا من سبقت له من الله الحسنى ولم يكن من المستعبدین لعباد الله ولا من المتمردین على حقوق الله. كما يبدو من الدعاء تعريض بحكام الأمويين الذين اتخذوا مال الله دولاً، وعباد الله خولاً، وإن القلوب قد بلغت الحناجر من ظلمهم.

٥. ذكره الله تعالى:

يقول المؤرخون، أنه كان دائم الذكر لله، يلهج بذكر الله في أكثر أوقاته، يمشي ويذكر الله، ويتحدث مع الناس ويذكر الله، ولا يشغله عن ذكره تعالى أي شاغل. وكان يجمع ولده ويأمرهم بذكر الله حتى تطلع الشمس كما كان يأمرهم بقراءة القرآن، ومن لا يقرأ منهم أمره بذكر الله (٨).

٦. مناجاته مع الله عز وجل:

كان أبو جعفر (عليه السلام) يناجي الله تعالى في غلس الليل البهيم، وكان مما قاله في مناجاته: (أمرتي فلم أؤتم، وزجرتي فلم أنزجر، ها أنذا عبدك بين يديك)(٩).

٧. حجه:

كان الإمام (عليه السلام) إذا حج البيت الحرام انقطع إلى الله تعالى وظهر عليه الخشوع والطاعة، وأتاب نفسه كلياً إلى رب العالمين.

روى مولاه أفلح قال:

(حجبت مع أبي جعفر محمد الباقر فلما دخل إلى المسجد رفع صوته بالبكاء فقلت له:

(بأبي أنت وأمي إن الناس ينتظرونك فلو خفضت صوتك قليلاً) فلم يعن به الإمام وقال له: (ويحك يا

أفلح إني أرفع صوتي بالبكاء لعل الله ينظر إليّ برحمة فأفوز بها غداً).

ثم طاف بالبيت وركع خلف المقام، ولما فرغ وإذا بموضع سجوده قد ابتل من دموع عينيه)(١٠).

وحج مرة أخرى فازدحم الحجاج عليه وأخذوا يستفتونه عن مناسكهم ويسألونه عن أمور دينهم، والإمام يجيبهم، فبهروا من سعة علومه، وأخذ بعضهم يسأل بعضاً عنه حتى انبرى شخص من أصحابه فعرفه

لهم قائلاً:

(إلا أن هذا باقر علم الرسول، وهذا مبين السبل، وهذا خير من رسخ في أصلاب أصحاب السفينة، هذا ابن فاطمة الغراء العذراء الزهراء. هذا بقية الله في أرضه، هذا ناموس الدهر، هذا ابن محمد وخديجة وعلي وفاطمة، هذا منار الدين القائمة)(١١) لم تذكر المصادر عدد المرات التي حج فيها إلى البيت الحرام.

٨. زهده في الدنيا:

كيف لا يزهد وجده أمير المؤمنين، أبو تراب، (عليه السلام)؟ كان زاهداً في جميع مباحج الحياة فاعرض عن بهارجها وزينتها، فلم يتخذ الرياش في داره، وإنما كان يفرش بمنزله حصيراً.

نظر نظرة عميقة في جميع شؤون الحياة فزهد في ملاذها، واتجه نحو الله تعالى بقلب منيب، يقول جابر بن يزيد الجعفي: قال لي محمد بن علي (عليه السلام):

(يا جابر إني لمحزون، وإني لمشتغل القلب).

فانبرى إليه جابر قائلاً:

(ما حزنك وما شغل قلبك؟).

فأجابه (عليه السلام) بما أحزنه وزهده في هذه الحياة قائلاً:

(يا جابر إنه من دخل قلبه صافي ويذكر الله عز وجل شغله عما سواه، يا جابر ما الدنيا؟ وما عسى أن تكون، هل هي إلا مركب ركبتة أو ثوب لبسته أو امرأة أصبتها؟)(١٢).

وقد أثرت عنه كلمات كثيرة في الزهد والإقبال على الله، والتحذير من غرور الدنيا. إنه ابن العترة الطاهرة الذين أرسلهم الله تعالى لإرشاد الناس إلى الطريق الصحيح ليأمرؤا بالحق ولينهوا عن الباطل ويعملوا في سبيل الخير والصلاح.

(١) تاريخ ابن عساكر ج ٥١ ص ٤٤.

(٢) تذكرة الحفاظ ج ١ ص ١٢٥.

(٣) سورة غافر، الآية ٦٠.

(٤) فروع الكافي ج ٣ ص ٣٢٣.

(٥) فروع الكافي ج ٣ ص ٣٢٢ وسفحات النار: لفحات السعير.

(٦) مهج الدعوات ص ٥٢.

(٧) مهج الدعوات ص ٥٢.

(٨) أعيان الشيعة ج ٤ ص ٤٧١.

(٩) صفوة الصفوة ج ٢ ص ٦٣، ونور الأبصار ص ١٣٠.

(١٠) المصدر نفسه ج ٢ ص ٦٣ وتاريخ ابن عساكر ج ٥١ ص ٤٤.

(١١) مناقب ابن شهر آشوب ج ٤ ص ١٨٣.

(١٢) البداية والنهاية ج ٩ ص ٣١٠.

عقب السيرة النبوية

عشت لسنوات خلت مع كواكب الإسلام المشرقة واليوم نحن عند كوكب عظيم ووجه وسيم وعلم من أعلام الإنسانية نقف عنده لناخذ من سيرته عبرة ونستلهم من مواقفه كل جوانب الخير والحق نحن عند علم على شفة الموت وجفن الحياة وبينهما مشرف الشهادة وهذه فوق الحياة والموت، لأنها عري الذات، وامتناق الإرادة، للانتهام على بحر الله، والاندياح فيه دون شرع. من أين نبدأ الكلام عن رجل وقف مع نفسه وقفة الأبطال، ورفع عن كاهل مجتمعه أكبر الأثقال، وعلم المجاهدين وثبة الأجيال.

ماذا نقول عن مصلح اجتماعي كبير رسم للناس من بعده منهجاً سليماً قوياً في صراع الحق مع الباطل، وخنق الفساد وأهله. مصلح وضع خطة في مناصرة الحق والالتزام به مهما بلغت التضحيات. قاوم الظلم والظالمين بالسلاح المناسب في الزمان المناسب بجرأة قوية وهمة عتية وأخلاق نبوية. من هذه السيرة التي تفيض بعقب النبوة نذكر بعضاً منها لحفيد الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله) الإمام الباقر (عليه السلام).

روى الأربيلي وابن الصباغ المالكي عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال محمد بن المنكدر: رأيت محمد بن علي فأردت أن أعظه فوعظني. فقال له أصحابه: بأي شيء وعظك؟ قال: خرجت إلى بعض نواحي المدينة في ساعة حارة، فلقيت محمد بن علي وكان رجلاً بديناً، وهو متكئ على غلامين له أسودين، فقلت في نفسي: شيخ من شيوخ قريش في هذه الساعة على هذه الحالة في طلب الدنيا، أشهد لأعظته؟ فدنوت منه فسلمت عليه، فسلم علي بنهر وقد تصبب عرقاً، فقلت: أصلحك الله شيخ من أشياخ قريش في هذه الساعة على هذه الحال في طلب الدنيا، لو جاءك الموت وأنت على هذه الحال؟ قال: فخلت عن الغلامين من يده ثم تساند وقال: لو جاءني الموت والله وأنا في هذه الحال وأنا في طاعة من طاعات الله، أكف بها نفسي عنك وعن الناس، وإنما كنت أخاف لو جاءني الموت وأنا على معاصي من معاصي الله. فقلت: يرحمك الله أردت أن أعظك فوعظتني(١).

روى المجلسي بإسناده عن أبي خالد المكابلي قال:

(دخلت على أبي جعفر (عليه السلام) فدعا بالغداء فأكلت معه طعاماً ما أكلت طعاماً قط أنظف منه ولا أطيب فلما فرغنا من الطعام، قال: يا أبا خالد، كيف رأيت طعامك؟ قلت جعلت فداك ما رأيت أطيب منه قط ولا أنظف ولكني ذكرت الآية في كتاب الله عز وجل: (ثم لتسألن يومئذ عن النعيم) فقال أبو جعفر

(عليه السلام) إنما تسألون عما أنتم عليه من الحق(٢).

روى الأربيلي قال:

(قالت سلمى مولاة أبي جعفر (عليه السلام) كان يدخل عليه إخوانه فلا يخرجون من عنده حتى يطعمهم الطعام الطيب، ويكسوهم الثياب الحسنة، ويهب لهم الدراهم، فأقول له بذلك ليقلّ منه، فيقول: يا سلمى، ما حسنة الدنيا إلا صلة الإخوان والمعارف، وكان (عليه السلام) يجيز بخمسائة وستمائة إلى الألف وكان لا يمل من مجالسة إخوانه(٣).

رووا أن قوماً أتوا أبا جعفر فوافقوا له صبيهاً مريضاً، فأروا منه اهتماماً وغمماً، وجعل لا يقر، فقالوا: لئن أصابه شيء أنا نتخوف أن نرى فيه ما نكره، فما لبثوا أن سمعوا الصياح عليه، فإذا هو قد خرج عليهم منبسوط الوجه، في غير الحال التي كان عليها. فقالوا له:

جعلنا فداك لقد كنا نخاف مما نرى منك أن لو وقع أن نرى منك ما يغمنا. فقال (عليه السلام): إنا لنحب أن نعافى فيمن نحب، فإذا جاء أمر الله سلمنا فيما أحب(٤).

قال الإمام الصادق (عليه السلام): كان أبي (عليه السلام) أقل أهل بيته ملاً، وأعظمهم مؤونة، وكان يتصدق كل جمعة بدينار، وكان يقول: الصدقة يوم الجمعة تضاعف لفضل الجمعة على غيره من الأيام(٥).

وقال أبو عبد الله (عليه السلام):

أعتق أبو جعفر (عليه السلام) من غلمانته عند موته شرارهم، وأمسك خيارهم فقلت: يا أبت تعتق هؤلاء وتمسك هؤلاء!؟

فقال: إنهما أصابوا مني ضرباً، فيكون هذا بهذا(٦).

وكان (عليه السلام) إذا ضحك قال: (اللهم لا تمقتني)(٧).

وكان (عليه السلام) إذا رأى مبتلياً أخفى الاستعاذ(٨).

وقال له نصراني: أنت بقر، قال: أنا باقر، قال: أنت ابن الطباخة، قال: ذاك حرفتها، قال: أنت ابن

السوداء الزنجية، قال: إن كنت صدقت غفر الله لها، وإن كنت كذبت غفر الله لك، قال: فأسلم

النصراني(٩).

روى ابن شهر آشوب بإسناده عن محمد بن سليمان:

(إن ناصبياً شامياً كان يختلف إلى مجلس أبي جعفر (عليه السلام) ويقول له: طاعة الله في بغضكم، ولكنني أراك رجلاً فصيحاً. قال أبو جعفر: لن تخفى على الله خافية. فمرض الشامي فلما ثقل قال لوليه: إذا أنت مددت عليّ الثوب فانت محمد بن علي وسله أن يصلي عليّ، قال: فلما أن كان في بعض الليل

ظنوا أنه برد وسجّوه، فلما أن أصبح الناس خرج وليه إلى أبي جعفر، وحكى له ذلك فقال أبو جعفر: كلا إن بلاد الشام صرد، والحجاز بلاد حر، ولحمها شديد فانطلق فلا تعجلن على صاحبكم حتى آتاكم. قال: ثم قام من مجلسه فجدد وضوءاً، ثم عاد فصلى ركعتين، ثم مد يده تلقاء وجهه ما شاء الله ثم خر ساجداً حتى طلعت الشمس، ثم نهض فانتهى إلى مجلس الشامي فدخل عليه فسقاه بسويق ودعا له، وقال: املأوا جوفه، وبردوا صدره بالطعام البارد، ثم انصرف وتبعه الشامي فقال: أشهد أنك حجة الله على خلقه، وما بدا لك؟ قال: أشهد أني عمدت بروحي وعانيت بعيني فلم يتفاجأني إلا ومنادٍ ينادي: ردوا إليه روحه فقد كنا سألنا ذلك محمد بن علي، فقال أبو جعفر: أما علمت أن الله يحب العبد ويبغض عمله، ويبغض العبد ويحب عمله، قال: فصار بعد ذلك من أصحاب أبي جعفر (١٠).

وبعد ذكر هذه المناقب الباقية وهذه السير النبوية ليس لنا إلا أن نعيد ما قاله الحاج علي محمد علي محمد دخيل فنقول: (لو أخذ المسلمون سيرة الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله) والأئمة من أهل بيته (عليهم السلام) للعمل والتطبيق لحصلوا على أعظم مكسب في حقل التوجيه والأخلاق، ولسادوا الأمم ولامتدوا بالإسلام في أرجاء المعمورة، ولحققوا أعظم انتصار في الحق الداخلي والخارجي. فالبشرية لم تعهد بقاتتها وموجهيها وعلماؤها ومفكريها على مر العصور والأجيال بمثل هذه السير الغراء وعسى أن يرعوي المسلمون ويعودوا للطريق فيأخذوا من هذا المعين الصافي، والمنبع العذب) (١١).

فيا سبحان الله هل نجد أصفى من ذلك المعين الذي تغذى منه أبواؤه الأطهار الذين نور الله تبارك وتعالى قلوبهم فأناروا بها الدنيا وحصنوا الدين. وهل نجد أعذب من ذلك المنيع الذي شرب منه أجداده الأبرار الإمام الحسين سيد شباب أهل الجنة وسبط الرسول وريحانته، وأمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب حبيب الرسول الأكرم وحامي لواء الدين من المنحرفين والملحدين والذي يدور مع الحق كيفما دار ويعمل من أجل إعلاء كلمة الواحد القهار، وجده الرسول الأعظم خاتم النبيين والرسول الذي أهداه الله عز وجل للبشرية سراجاً منيراً يهدي الضالين والمغضوب عليهم إلى الصراط المستقيم. فمن كان هؤلاء أبواؤه وأولئك أجداده فليس بالغريب أن يتحلى بمثل هذه الأخلاق الكريمة والشيم الحسنة والأعمال النبيلة وهو الإمام المعصوم فرع الدوحة النبوية وأصل الشجرة التي قال عنها الله في القرآن الكريم. وهنا خطر لي ما قاله الثعلبي: (دخل أناس على أبي جعفر (عليه السلام) وسألوه علاقة الإمامة فأخبرهم بأسمائهم وأخبرهم عما أرادوا أن يسألوا عنه وقال: (أردتم عن هذه الآية (شجرة أصلها ثابت وفرعها في السماء، قالوا صدقت. قال: نحن الشجرة التي قال الله عنها (أصلها ثابت وفرعها في السماء) ونعطي شيعتنا ما نشاء من أمر علمنا) (١٢).

- (٢) البحار ج٤٦ ص٢٩٧، سورة التكاثر، الآية ٨،
- (٣) كشف الغمة ج٢ ص١١٨،
- (٤) بحار الأنوار ج١١ ص٨٦،
- (٥) ثواب الأعمال ص١٨٥،
- (٦) الدمعة الساكية ص٤١٥،
- (٧) كشف الغمة ص٢١١ ومطالب السؤل ج٢ ص٥٢،
- (٨) المصدر نفسه.
- (٩) المناقب ج٤ ص١٨٦.
- (١٠) نفسه ج٤ ص١٨٦.
- (١١) أئمتنا ص ٣٤٣ ج ١ عن كتابه (سيرة الأئمة) إصدار منابع الثقافة الإسلامية . كربلاء.
- (١٢) المناقب لابن شهر آشوب ج٤ ص١٩٣.

اسم على مسمى

قال ابن منظور: (التبقر: التوسع في العلم والمال، وكان يقال لمحمد بن علي بن الحسين بن علي الباقر، لأنه بقر العلم وعرف أصله، واستتبط فرعه وتبقر في العلم)(١).

وقال الفيروزآبادي: (والباقر محمد بن علي بن الحسين لتبحره في العلم)(٢).

وقال الطريحي: (وتبقر في العلم: توسع، ومنه سمي أبو جعفر الباقر (عليه السلام) لأنه بقر العلم بقرًا، وشقه، وفتحته)(٣).

وقال ابن حجر: (وارث علي بن الحسين من ولده، عبادة وعلماً وزاهدة أبو جعفر محمد الباقر، سمي بذلك من بقر الأرض أي شقها وأثار مخبأاتها ومكائنها، فلذلك هو أظهر من مخبآت كنوز المعارف حقائق الأحكام والحكم واللطائف ما لا يخفى إلا على منطمس البصيرة أو فساد الطويلة والسريرة، ومن ثم قيل فيه هو باقر العلم وجامعه، وشاهر علمه ورافعه، صفا قلبه، وزكا علمه وعمله وطهرت نفسه، وشرف خلقه، وعمرت أوقاته بطاعة الله، وله من الرسوم في مقامات العارفين ما تكلّ عنه السنة الواصفين؛ وله كلمات كثيرة في السلوك والمعارف لا تحتلها هذه العجالة، وكفاه شرفاً أن ابن المديني روى عن جابر أنه قال له وهو صغير رسول الله (صلى الله عليه وآله) يسلم عليك فقيل له: وكيف ذلك؟ قال: كنت جالساً عنده والحسين في حجرة، وهو يداعبه فقال: يا جابر يولد له مولود اسمه علي إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ ليقم سيد العابدين، فيقوم ولده ثم يولد له مولود اسمه محمد، فإن أدركته يا جابر فاقرأه مني السلام)(٤).

وسأل رجل ابن عمر مسألة فلم يدر بما يجيبه فقال: اذهب إلى ذلك الغلام فاسأله وأعلمني بما يجيبك وأشار له إلى محمد الباقر فأتاه وسأله فأجابه فقال له ابن عمر: إنهم أهل بيت مفهمون(٥). وكان جابر بن يزيد الجعفي إذا روى عن محمد بن علي (عليه السلام) يقول: حدثني وصي الأوصياء ووارث علم الأنبياء، محمد بن علي بن الحسين (عليهم السلام)(٦).

وقال ابن خلكان: (كان الباقر عالماً سيّداً كبيراً، وإنما قيل له الباقر لأنه تبقر في العلم أي توسع والتبقر التوسع وفيه يقول الشاعر:

يا باقر العلم لأهل التقى وخير من لبي على الأجل)(٧)

وقال سبط ابن الجوزي:

روى عنه الأئمة: أبو حنيفة وغيره، قال أبو يوسف: قلت لأبي حنيفة: (لقيت محمد الباقر؟ فقال: نعم، وسألته يوماً فقلت له: أأراد الله المعاصي؟ فقال: أفيعصى قهراً؟ قال أبو حنيفة: فما رأيت جواباً أفحم منه. وقال عطاء: ما رأيت العلماء عند أحد أصغر علماً منهم عند أبي جعفر لقد رأيت الحكم عنده كأنه مغلوب ويعني بالحكم الحكم بن عيينة، وكان عالماً نبيلاً جليلاً في زمانه (٨).. وقال الشيخ المفيد:

لم يظهر عن أحد من ولد الحسن والحسين من علم الدين وعلم القرآن والسير، وفنون الأدب ما ظهر عن أبي جعفر الباقر(٩).

كتب عبد الملك إلى عامل المدينة: إن ابعت إليّ محمد بن علي مقيداً فكتب إليه العامل: ليس كتابي هذا خلافاً عليك يا أمير المؤمنين ولا رداً لأمرك، ولكن رأيت أن أراجعك في الكتاب نصيحة لك وشفقة عليك، وإن الرجل الذي أردته ليس اليوم على وجه الأرض أعف منه ولا أزهّد ولا أروع منه، وإنه من أعلم الناس وأرق الناس، وأشد الناس اجتهاداً وعبادة، وكرهت لأمير المؤمنين التعرض له، فإن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم فسر عبد الملك بما أنهى إليه الوالي، وعلم أنه قد نصحه (١٠).

(١) لسان العرب ج ٤ ص ٧٤.

(٢) القاموس المحيط ج ١ ص ٣٧٦.

(٣) مجمع البحرين مادة بقر.

(٤) الصواعق الحارقة ص ١٢٠.

(٥) المناقب ج ٢ ص ٢٨٦.

(٦) كشف الغمة ص ٢١٣ وأمالى الصدوق ص ١٠٤.

(٧) وفيات الأعيان ج ٣ ص ٣١٤.

(٨) تذكرة الخواص ص ٣٣٦.

(٩) قادتنا كيف نعرفهم عن نور الأبصار ص ١٦٦ والإرشاد ص ٢٧٩.
(١٠) أعيان الشيعة ج ٤ ص ٨٥.

سمو العطاء

كما هو سام في أخلاقه هو سام في نبل عطائه. كريم ابن كريم وعظيم ابن عظيم، أثر الآخرين على نفسه وأعطاهم من نفسه وعلمه وماله، أعطاهم من أجل العطاء، وأحبهم من أجل المحبة وأحسن إليهم من أجل الإحسان. همه الإنسان من أجل كسب رضى الرحمن. وليس المهم في العطاء هو أن تكون المبالغ المعطاة كبيرة، بل المهم ما يصحب ذلك العطاء من إيمان وتقى، ويحفظ للسائل ماء وجهه وكرامته، وكلما كانت حاجة السائل أكثر كانت العطية منه أفضل. والكرم من صفات الله عز وجل، أطلقها على نفسه فهو كريم ويحب الكرماء في سبيل الله. وأهل البيت (عليهم السلام) كلهم كرماء أعطوا الإنسان بلا منة أو برهان وأحسنوا إلى السائلين والمحتاجين بدافع الإحسان لا يريدون جزاء ولا شكوراً سوى رضى رب العالمين، الرحمن الرحيم أرسلهم مثلاً أعطى لكل المؤمنين. والتصدق باليسير خير من الحرمان.

أجمع المفسرون على نزول بعض الآيات في أهل البيت عامة وفي أمير المؤمنين خاصة عليهم جميعاً أفضل السلام. قال تعالى: (الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرّاً وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون)(١) نزلت هذه الآية الكريمة إثر تصدق أمير المؤمنين بأربعة دراهم لا يملك غيرها، تصدق بدرهم ليلاً، وبدرهم نهاراً، وبدرهم سرّاً، وبدرهم علانية. وآية كريمة أخرى تقول: (إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون)(٢).

نزلت هذه الآية في أمير المؤمنين أيضاً لما تصدق (عليه السلام) بخاتمه على سائل سأل في مسجد رسول الله (صلى الله عليه وآله) ولم يعطه أحد وكان (عليه السلام) يصلي فأشار إلى السائل ومد إصبعه، فأخذ خاتمه. كما قال المفسرون أن سورة (هل أتى على الإنسان)(٣) قد نزلت في أهل البيت بعدما تصدقوا بأقراص من شعير على مسكين ویتيم وأسير.

وعن أبي بصير عن أحدهما (٤) قلت له: أي الصدقة أفضل؟ قال: جهد المقل، أما سمعت قول الله عز وجل: (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة)(٥).

فالمقصود بالعطية والهبة والصدقة الكيفية قبل الكمية، وما يحيط بذلك من إخلاص في النية، ونبل في العطاء، وتقرب إلى المولى عز وجل. فالمال مال الله، والعطاء في سبيل الله والعباد كلهم عباد الله

وأقربهم إليه أنفعهم لعياله.

بهذا الخط السليم والدقيق سار أئمة أهل البيت (عليهم السلام) في هباتهم وعطاياهم وصدقاتهم. وإن تقربهم بتلك الصدقات إلى الله تعالى، وتزلفهم بها إليه، هو الذي خلد ذكرها عبر القرون المتطاولة، والأجيال المتعاقبة حتى باتت مثلاً أعلى يحتذى. والإمام الباقر هو سر أبيه وجده نذكر بعض ما ورد له (عليه السلام) من هذه المآثر الطيبة.

قال عمرو بن دينار وعبد الله بن عبيد بن عمير، ما لقينا أبا جعفر محمد بن علي (عليه السلام) إلا وحمل إلينا النفقة والصلة، والكسوة، ويقول: هذه معدة لكم قبل أن تلقوني(٦).

وقال ابن الصباغ المالكي:

(كان محمد بن علي بن الحسين (عليه السلام) مع ما هو عليه من العلم والفضل والسؤدد والرياسة والإمامة، ظاهر الجود في الخاصة والعامة، مشهور الكرم في الكافة، معروفاً بالفضل والإحسان مع كثرة عياله وتوسط حاله، وأنه كان يدخل عليه بعض إخوانه فلا يخرجون من عنده حتى يطعمهم الطعام الطيب ويكسوهم الثياب الحسنة ويهب لهم الدراهم...)(٧).

وعن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: دخلت على أبي يوماً وهو يتصدق على فقراء أهل المدينة بثمانية آلاف دينار، وأعتق أهل بيت بلغوا أحد عشر مملوكاً(٨).

(١) سورة البقرة، الآية، ٢٧٤

(٢) سورة المائدة، الآية، ٥٥

(٣) سورة الإنسان.

(٤) أي الباقر أو الصادق (عليهما السلام).

(٥) سورة الحشر، الآية ٩ وانظر ثواب الأعمال ص، ١٤٢

(٦) أعيان الشيعة ج ٢ ص ٤٩ وكشف الغمة ص ١٢ ج ٢.

(٧) الفصول المهمة ص ٢١٥.

(٨) بحار الأنوار ج ١١ ص ٨٦.

الفصل الثاني

مدرسة أهل البيت

أقام معاوية بن أبي سفيان دولة أموية قوية، عربية أعرابية كما وصفها الجاحظ. بناها على غرار القياصرة والأكاسرة بدماء كبار الصحابة والتابعين، كالإمام الحسن السبط، ابن بنت الرسول الأكرم

وريحانته، وحجر بن عدي الكندي وأصحابه الأجلاء، وعمرو بن الحمق الخزاعي، وغيرهم من كبار المسلمين. وقد عمل ابن هند على توريثها لابنه يزيد ظناً منه أنها ستبقى إلى أبد الأبدية. ولكن الظلم لها نهاية والظالمين مصيرهم الهلاك المحتوم طال الزمان أم قصر، فبعد مقتل سيد الشهداء وسيد شباب أهل الجنة ريحانة الرسول الأعظم، بدأت دولة الأمويين بالتصدع ولم ينفعها حزم عبد الملك بن مروان ولا دهاء هشام بن عبد الملك ولا بطش الطاغية الحجاج بن يوسف الذي حصد الكثير من الرؤوس المؤمنة.

وفي عصر هشام بن عبد الملك ظهر تصدع الدولة الأموية وبدأت عندها الدعوة العباسية في إيران. في ذلك الوقت استغل الإمام الباقر (عليه السلام) هذا الظرف المناسب وفتح مدرسة أهل البيت الشهيرة والتي أتم مسيرتها الإمام جعفر الصادق من بعده.

تخرج من هذه المدرسة المباركة المئات من العلماء الأفاضل وكان ذلك مصداقاً لما أخبر به الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله) جابر بن عبد الله الأنصاري: يا جابر يوشك أن تلحق بولد من ولد الحسين (عليه السلام) اسمه كاسمي، يبقر العلم بقراً، أي يفجره تفجيراً، فإذا رأيته فأقرأه مني السلام. نعم، لقد بقر أبو جعفر العلم وفجره في جميع مجالات الحياة من خلال هذه المدرسة العظيمة. فمدرسة أهل البيت هي أول مدرسة فكرية أنشأت في الإسلام، وقد عملت بكل طاقاتها على تقدم حياة المسلمين وتطويرها، ولم تقتصر علومها على التشريع الإسلامي، وإنما تناولت جميع العلوم والمعارف من الإدارة إلى الاقتصاد إلى الطب والكيمياء إلى الحكمة والفلسفة إلى علم الكلام وإلى العلوم السياسية.

هذه المؤسسة العظيمة قامت بدور هام في تأسيس هذه العلوم وتدوينها بعد أن منع الخليفة الأول والثاني تدوين الحديث الشريف لأن ذلك قد يؤثر في تلاوة القرآن وانشغال الناس بالحديث عن كتاب الله. ولا ريب هو اعتذار مهلهل لا واقع له ولا يدخل في حساب المنطق السليم.

روى السيد حسن الصدر أن الشيعة هم أول من عنوا بالفقه وتدوين بعض مسائله كالصلاة والوضوء وسائر الأبواب. من هؤلاء نذكر علي بن أبي رافع فقد كان من أعلام الشيعة وخيارهم في عصر الإمام علي بن أبي طالب كما كان كاتباً له. ألف كتاباً في فنون الفقه فصل فيه كل الأبواب المتعلقة بالعبادة. ومؤلف آخر له شأن كبير في هذا الموضوع هو سليم بن قيس الهلالي الكوفي كان من أصحاب الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) وعاش إلى زمن الطاغية الحجاج بن يوسف، وقد أراد هذا الفتك به فلجأ سليم إلى أبان بن عياش فأواه، وحينما حضرته الوفاة أعطاه كتابه المشهور باسمه، وهو أول كتاب ظهر للشيعة رواه أبان بن أبي عياش (١).

ومدرسة أهل البيت لم تقتصر على علم خاص بل اهتمت بجميع العلوم العلمية والفكرية والاجتماعية والأدبية والتاريخية.. وكان المؤسس الأول لها أمير المؤمنين (عليه السلام) ثم تعهد بها من بعده الأئمة

الطاهرون من ولده. وقد نمت وازدهرت في عهد حفيده الإمام الباقر (عليه السلام) قام برعايتها خير قيام حتى باتت معروفة على صعيد العالم الإسلامي مما جعل العلماء يلتقون حوله من كل حذب وصوب وينهلون من ندير علومه ومعارفه وحكمه وتفسيراته. وقد روى عنه مجموعة كبيرة من العلماء الثقات علوماً كثيرة من جميع نواحي الاختصاص.

نقل بعض من شاهده في الحج قال: انثال عليه الناس يستفتونه عن المعضلات ويستفتحون أبواب المشكلات فلم يرم حتى أفتاهم من ألف مسألة ثم نهض يريد رحله (٢).
قال مالك بن أعين الجهني يمدحه:

إذا طلب الناس علم القرآن كانت قریش عليه عيالا
وإن قيل: أين ابن بنت النبي نلت بذاك فروعاً طولاً

نجوم تهلل لعمد لجين جبال تورث علماً جبالا (٣)

(١) تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام.

(٢) المناقب ج ٢ ص ٢٧٥.

(٣) الإرشاد ص ٢٧٩.

عصر الإمام الباقر (عليه السلام)

١. الحياة الثقافية العامة

مرت الحياة الثقافية في عصر الإمام الباقر (عليه السلام) بجمود وخمد وكانت ضحلة للغاية لأن معظم الناس من حكام ومحكومين ابتعدوا عن الأخلاق النبيلة والمثل العليا التي جاء بها الإسلام، وعادوا إلى جاهليتهم الأولى من عصبية قبلية وتفاخر بالأباء والأنساب. وقد لمسنا ذلك من خلال الشعراء الذين تسابوا على أبواب السلطان للمديح والهجاء. وإذا قلبنا صفحات الأدب في تلك الفترة وجدنا سوقاً رائجة لهذين الضربين من الشعر. نلحظ ذلك بصورة واضحة في شعر المثلث الأموي جرير والأخطل والفرزدق. فأكثر ما أثر عنهم من الشعر قد كان في هذا الموضوع. ولا يخفى أنه كان لكل حزب شاعر أو شعراء يشيدون بمآثر حزبهم ويقومون بالدفاع ضد الحزب الآخر.

فكما شاد الأخطل الشاعر النصراني، بمآثر الدولة الأموية والحكام الأمويين قام الكميث بن زيد، شاعر العلويين، فأشاد بمناقب قومه من مضر وفضلهم على القحطانيين. إن السياسة الأموية كانت العامل الأكبر في إثارة الخلافات العشائرية، وتقسيم المجتمع إلى نزارى وقحطاني، يريدون بذلك أن ينسوه الإسلام رسالة الوحدة والعزة؛ وانتهى الأمر إلى أن أثار بذلك فتنة جاهلية بين القبائل، مما كان له تأثير هام في زعزعة السياسة الأموية والإطاحة بالحكم الأموي.

قام الكميّ بدور خطير جداً فقد أوجع نار الفتنة بين اليمينية والنزارية، وهما من أهم القبائل العربية عدداً ونفوداً، بالإضافة إلى كونهما من أعظم المؤيدين للحكم الأموي. فهجا الكميّ الأمويين وعدد مثالبهم بأقسى ألوان الهجاء، ثم انطلق ينظم القصائد الحماسية بمجد فيها النزاريين ويذكر مناقبهم. ومما قاله في مدح قومه وهجاء القحطانيين هذه القصيدة المعروفة التي سارت على كل لسان:

لنا قمر السماء وكل نجم تشير إليه أيدي المهدينا
وجدت الله إذ سمى نزاراً وأسكنهم بمكة قاطنينا
لنا جعل المكارم خالصات وللناس القفا ولنا الجبينا
وما خربت هجائن من نزار فوالخ من فحول الأعجمينا (١)
وما حملوا الحمير على عتاق مطهمة فيلثوا مبلغينا (٢)
بني الأعمام إنكحنا الأيامى وبالأبائ سمينا البنينا (٣)
أثر هذا الشعر تأثيراً عظيماً في قلوب القوم وأثار الحفاظ بين القبيلتين فشاع البغض والعداء بينهما، فانبرى للدفاع عنهم دعبل الخزاعي (٤) بلغت القصيدة التي رد بها على الكميّ ستمائة بيت ومما جاء فيها:

أفيقي من ملامك يا ظعينا كفاك اللوم مر الأربعينا
ألم تحزنك أحداث الليالي يشيين الذوائب والقرونا
أحي الغر من سروات قوقي لقد حبيت عنا يا مدينا
فإن يك آل إسرائيل منكم وكنتم بالأعاجم فأخرينا
فلا تنس الخنازير اللواتي مسخن مع القرود الخاسئينا
وما طلب الكميّ طلاب وتر ولكننا لنصرتنا هجينا
لقد علمت نزار أن قومي إلى نصر النبوة فأخرينا
كل قبيلة أخذت تفتخر على الأخرى وتدلي بمناقبها ومكارمها، وتنتقص القبيلة المعادية حتى اتسع العداء بينها شمل سكان القرى والبادية. فالعصية القبلية أفسدت قلوبهم وعرى الوحدة بين القبيلتين والأسرتين تمزق وانهار. وهذا ما دعا محمد الجعدي آخر ملوك بني أمية التعصب للنزاريين، مما سبب انحراف اليمانيين عن بني أمية وانضمامهم إلى الدعوة العباسية إبان تحركها ضد الحكم الأموي. وبذلك انهارت الدولة الأموية. يقول أحمد أمين في هذا المجال (وقتل بعدة، الدولة الأموية بقليل)(٥).

ويعد هذا السرد الموجز نلاحظ أن الطابع العام للأدب في ذلك العصر كان التفاخر والتنازع ولم يكن يمثل وعياً فكرياً بل كله شر وضرر للناس جميعاً.

٢ . الحياة السياسية

بعد هذا التنازع الداخلي والعصية القبلية المدمرة أصبحت الحياة السياسية في ذلك العصر وضيفة ويشعة للغاية، فالفتن والاضطرابات عمت بين الناس في البلاد، وبدأت أحداث رهيبية ومفجعة أدت إلى فقدان الأمن وانتشار الخوف. ثم تطورت هذه الأحداث فقامت ثورات دامية ذهب ضحيتها آلاف الأبرياء وهذا بلا ريب نتيجة السياسة الأموية الخاطئة التي كان كل همها تحقيق أهدافها الخاصة ومآربها الشخصية بعيداً عن مصالح شعوبها العامة. نتج عن ذلك وجود أحزاب سياسية كل منها يسعى لتحقيق غاياته ونشر مبادئه التي تتعارض مع الأحزاب الأخرى. سار معظم هذه الأحزاب في منعطفات خاصة مستخدمة بذلك جميع الطرق الدبلوماسية دون أن تعنى بمصلحة الأمة. وقد حدث صراع حزبي عنيف سادته القلق والقسوة والاضطراب.

من هذه الأحزاب التي برزت على الساحة:

١. الحزب الأموي:

هو الحزب الحاكم في ذلك الوقت، ولكن كيف توصل إلى الحكم؟

بشتى ألوان الخداع والدهاء والتضليل. من هذه الأساليب الخداعة نذكر قصة (قميص عثمان) التي ما زالت على الألسنة مثلاً سائراً حتى اليوم. اتخذوا من دم عثمان الذي سفكته القوى الشعبية شعاراً لهم لنيل مآربهم السياسية فأوهموا الناس بأكاذيبهم وأقاموا الدنيا وأقعدها من خلال هذا الموضوع، في حين أنهم هم الذين خذلوه حينما أحاط به الثوار مطالبين بالعدالة الاجتماعية وإيقاف هدر أموال المسلمين بالباطل. وقد بقي أياماً محاصراً على مرأى من جميع الأمويين ومسمعهم، فلماذا لم يهبوا لنجدته ويخلصوه قبل أن يجهز عليه الثوار.

فبعد أن قتل الخليفة بدأ الأمويون يطالبون بدعم عثمان وذلك للاستيلاء على كرسي الحكم والظفر بخيرات البلاد وأموال بيت مال المسلمين فاعتمدوا لذلك سياسة الملوك الظالمين مقلدين القياصرة والأكاسرة بعيدين كل البعد عن مبادئ الدين الإسلامي العادل والقويم. فكان همهم الدنيا بمباهجها وأفراحها وملذاتها معتمدين سياسة الترغيب والترهيب.

وفي كل عصر نجد وعاظ السلاطين الذي يميلون مع أهوائهم ومصالحهم ويبعون آخرتهم بدنياهم. من هذه الوسائل التي اعتمدها الأمويون:

أ. قربهم من الرسول (صلى الله عليه وآله):

لقد خدعوا أهل الشام فأوهموهم أنهم أقرب الناس إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) وألصقهم به نسباً وحسباً، وسارت مقولتهم هذه على الشاميين واعتقدوا بذلك اعتقاداً راسخاً، ولم تستن له الحقيقة على وجهها الصحيح إلا بعد انقلاب الحكم الأموي ومجيء الحكم العباسي (وقد سبق السيف العزل) قال أحد الشعراء في ذلك:

أيها الناس اسمعوا أخبركم عجباً زاد على كل العجب
عجباً من عبد شمس أنهم فتحوا للناس أبواب العذاب
ورثوا أحمد فيما زعموا دون عباس بن عبد المطلب
كذبوا والله ما نعلمه يحرز الميراث إلا من قرب (٦)

عجيب أمرهم والله؟! ألم يعلموا أن القريب من الرسول الأعظم هو القريب بأعماله الصالحة وتقواه وعدله
وسنته الشريفة والقريب من الرسول (صلى الله عليه وآله) هو الذي يسير على خط الرسول ويعمل بما
أوحى به الرسول وينتهي عما نهى عنه الرسول.
ألم يسمعوا ما قاله الرسول (صلى الله عليه وآله) نفسه لابنته السيدة الزهراء التي أطلق عليها لقب (أم
أبيها) لتعلقه بها ومحبتة لها. قال (صلى الله عليه وآله): (يا فاطمة لا يفيدك كوني أباك بل عملك
الصالح).

الأعمال الصالحات هي ميزان التقوى وهي البرهان العملي على صدق الإيمان وحسن العقيدة.
ب . الوضع في الحديث:

بدأ الوضع في الحديث بشكله السافر واتخذه الحكام وسيلة لخدمة أغراضهم السياسية (٧).

(حدثنا علي بن إبراهيم عن أبيه عن حماد بن عيسى.. قال: قلت لأمير المؤمنين (عليه السلام) إنني
سمعت من سلمان والمقداد وأبي ذر شيئاً من تفسير القرآن وأحاديث عن النبي (صلى الله عليه وآله)
غير ما في أيدي الناس، ثم سمعت منك تصديق ما سمعت منهم، ورأيت في أيدي الناس أشياء كثيرة
من تفسير القرآن ومن أحاديث عن رسول الله أنتم تخالفونهم فيها وتزعمون أن ذلك كله باطل! (أفتري
الناس يكذبون على رسول الله (صلى الله عليه وآله) متعمدين ويفسرون القرآن بأرائهم قال: فأقبل علي
(عليه السلام) فقال: سألت فافهم الجواب:

(إن في أيدي الناس حقاً وباطلاً، صدقاً وكذباً، وناسخاً ومنسوخاً، وعماماً وخاصاً، ومحكماً ومتشابهاً،
وحفظاً ووهماً، وقد كذب على رسول الله (صلى الله عليه وآله) على عهده حتى قام فقال: أيها الناس قد
كثرت عليّ الكذابة فمن كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار)(٨) استخدم بنوا أمية الأحاديث
الموضوعة على لسان رسول الله (صلى الله عليه وآله) ليفيدوا أنهم سادة الخلق، وأقرب الناس منزلة عند
الله، كما بذلوا الأموال الطائلة للوضاع، وعاظ السلاطين، تدعيماً لملكهم وسلطانهم.

ج . استخدامهم الشعراء لمدهم:

كان شعراء البلاد الأموي يتسابقون في مدح الملوك الأمويين والثناء عليهم ليكسبوا الجوائز السنوية، وقد
أجزلوا لهم العطاء ووهبهم أعرض الثراء لأن الشعر في ذلك العصر كان من أقوى وسائل الإعلام.
فالشعراء كانوا صحفي عصرهم. وممن استخدمه الحكام الأمويون من هؤلاء الشعراء المتكسبين: أعشى

ربيعة الشيباني فقد مدح عبد الملك بن مروان بقصيدة قال فيها:
وما أنا في أمري ولا في خصومتي بمهتضم حقي ولا قارع سني
وفضلني من الشعر واللب أنني أقول على علم وأعرف ما أعني
فأصبحت إذ فضلت مروان وابنه على الناس قد فضلت خير أب وابن
فأحسن عبد الملك جائزته مشترياً منه ضميره بدرهومات، وراح الشاعر يكيل المديح والثناء لبني مروان
بلا حساب (٩).

وبعد المديح عمد الأعشى إلى حث عبد الملك على مقاتلة الزيريين فقال:
قوموا إليهم لا تناموا عنهم كم للغواة أطلتم إمهالها
إن الخلافة فيكم لا فيهم ما زلتم أركانها وثمالها
أمسوا على الخيرات فقللاً مغلقاً فانهض بيمينك وافتتح أقفالها
ومن الشعراء الذين استخدموهم الأخطل التغلبي، قربه عبد الملك بن مروان ولقبه (شاعر بني أمية)
و(شاعر أمير المؤمنين) كان يدخل على الخليفة بدون إذن وعليه جبة خز، وفي عنقه سلسلة ذهب فيها
صليب ذهب، ولحيته تنفض خمراً.

قال في مديح عبد الملك وقومه:
إلى امرئ لا تعدينا نوافله أظفره الله؛ فليهنئ له الظفر
الخائض الغمر، والميمون طائره خليفة الله، يستسقى به المطر
حشد على الحق، عيافو الخنا أنف إذا ألمت بهم مكروهة، صبروا
أعطاهم الله جداً، ينصرون به لا جد إلا صغير، بعد، محتقر
شمس العداوة، حتى يستقاد لهم وأعظم الناس أحلاماً، إذا قدروا
حتى استكانوا، وهم مني على مضمض والقول ينفذ ما لا تنفذ الإبر
ثم قال في أعدائهم:
قوم أنابت إليهم كل مخزية وكل فاحشة سبت بها مضر
الآكلون خبيث الزاد، وحدهم والسائلون بظهر الغيب: ما الخبر
صفر اللحي من وقد الادخنات إذا رد الرفاد وكفّ الحالب القرر
وأقسم المجد حقاً لا يحالهم حتى يحالف بطن الراحة الشّعر
وممن أخلص لبني مروان عدي بن الرقاع لأنهم وهبوا له الثراء العريض فقد مدح الوليد بن عبد الملك
وقال فيه:

هو الذي جمع الرحمن أمته على يديه وكانوا قبله شيعا

إن الوليد أمير المؤمنين له ملك عليك أعان الله فارثعا
وهو القائل فيه:

ولقد أراد الله إذ ولاكها من أمة إصلاحها ورشادها
أعمرت أرض المسلمين فأقبلت وكففت عنها من يروم فسادها
وأصبحت في أرض العدو مصيبة عمت أقاصي غورها ونجادها
ظفراً ونصراً ما تتال مثله أحد من الخلفاء كان أَرادها (١٠)
ودرج على سنة أبيه عبد الملك بن مروان فقد استخدم الشاعر الأحوص، فمنحه الجوائز السنوية ليكيل له
المديح الفارغ.
قال فيه:

ملك تدين له الملوك مبارك كادت لهيبته الجبال تزول
ونوجز القول أن الأمويين استخدموا الشعراء لدعم سياستهم وفرض ملكهم وتثبيت دعائم سلطانهم.
٢ . الحزب الزبيرى:

يرى هذا الحزب أن أسرة الزبير هي أولى من غيرها بالحكم، ويأتي على رأس هذه الأسرة عبد الله بن
الزبير، فأمه صفية عمة النبي (صلى الله عليه وآله) وكان أحد المرشحين السنة للخلافة حسب برنامج
الشورى الذي وضعه عمر بن الخطاب، فهو إذن أقرب من غيره من الرسول وأحق بالخلافة.
من أبرز دعاة هذا الحزب الشاعر عبيد الله بن قيس الريات، مدح الزبيريين وهجا خصومهم. قال في
مدح مصعب بن الزبير:

إنما مصعب شهاب من الله تجلت عن وجهه الظلماء
ملكه ملك قوة ليس فيه جبروت منه ولا كبرياء
يتقي الله في الأمور وقد أف لح من كان همه الاتقاء (١١)
ودعا في القصيدة نفسها إلى الثورة العارمة ضد بني أمية فقال:
كيف نوحى على الفراش ولما تشمل الشام غارة شعواء
تذهل الشيخ عن بنيه وتبدي عن براها العقلية العذراء
أنا عنكم بني أمية مزور وأنتم في نفسي الأعداء
إن قتلي بالطف قد أوجعتني كان منكم . لئن قتلتكم شفاء (١٢)
والشاعر الشديد الانفعال والتأثير يسيل انفعاله في سيلان نظمه وانسكاب ألفاظه، يخلص لقبيلته قريش
ويفخر برجالها العظام ومآتيها الجسام فيقول:
أقبرت بعد عبد شمس كداء فكدي، فالركن، فالبطحاء

فمنى، فالجمار، من عبد شمس مققرات، فيلدح، فحراء
ثم يهاجم المتطاولين على قریش، المشتتهين لها أن تزول، وبين لهم أن حياة الناس منوطة بحياة قریش:
لو تقفّي وتترك الناس كانوا غنم الذئب غاب عنها الرعاء
ويخاطب بني أمية في استعلاء وإباء:
فرضينا، فمت بدائك غماً لا تميّن غيرك الأدواء
لو بكت هذه السماء على قوم كرام، بكت علينا السماء
ويقول أن بني أمية هم أصل البلاء الأكبر، فيتململ ويرشقهم بأقسي الكلام:
عين فابكي على قریش، وهل يرجع ما فات، إن بكيت، البكاء

لكن هذا الحزب لم يدم طويلاً، فحينما قضى الحجاج بن يوسف على ابن الزبير ضعف الحزب وتلاشى.
٣ . الخوارج:

أمن الخوارج بالمساواة المطلقة بين المسلمين وأن أمانة المؤمنين ليست من وجهة نظرهم مشروطة بشرط
أو مقصورة على أسرة بعينها أو قبيلة من القبائل العربية. كما آمنوا بضرورة الثورة على كل حكم قائم في
البلاد الإسلامية إذا لم يحمل مبادئهم وأفكارهم أما دعواتهم فكثيرون منهم عمران بن حطان وقطري بن
الفضاء والطرماح والجميع يتحاشون الموت على الفراش في ساحة القتال. وقد صور شاعرهم عمران بن
حطان هذا المعنى أفضل تصوير فقال:

لقد زاد الحياة إليّ بغضاً وحباً للخوارج أبو بلال

أحاذر أن أموت على فراشي وأرجو الموت تحت ذرا العوالي

ولو أني علمت بأن حنقي كحنف أبي بلال لم أبال

فمن يك همه الدنيا فإني لها . والله رب البيت . قال

وكان عمران يرى أن الشعر وسيلة كريمة للتعبير عن العقيدة واستنهاض الهمم، وكان يربأ بالشعر أن
يستغل للتكسب والسؤال. ومن شعرائهم المعروفين أيضاً الطرماح بن حكيم الشيباني هو كبير
شعراء الخوارج دون نزاع، وما يعنينا من شعره السياسي الذي أفصح بواسطته في قوة وبلاغة عن عقيدته
ومذهبه، مذهب الشراة الذين شروا أنفسهم ووهبوا للجهاد فيقول:

لقد شقيت شقاء لا انقطاع له إن لم أفر فوزه تتجي من النار

والنار لم ينج من روعتها أحد إلا المنيب بقلب المخلص (الشاري)

والطرماح يصف أبناء حزبه شجعاناً أتقياء لا يبألون بعرض الحياة الدنيا يتمنون الاستشهاد في المعارك،
وتصير جسامهم طعماً للطيور . كل ذلك فداء لعقيدتهم السياسية التي أسرفوا على أنفسهم فيها وعلى
الناس فيقول:

عصائب من شتى يؤلف بينهم هدى الله نزالون عند المواقف
فوارس من شيبان ألف بينهم تقى الله نزالون عند التراحف
إذا فارقوا دنياهم فارقوا الأذى وصاروا علموعدوما في المصاحف
فأقتلَ قعصاً ثم يُرمى بأعظمي كضعت الخلا بين الرياح والعواصف

ويصبح لحمي بين طير مَقِيلُهُ دُوَيْنَ السماء في نسور عواكف
وحياة الشراة عند الطرماح عبادة صادقة لله، وسهد في التبتل، وكلف بتلاوة القرآن الكريم يصورها
الطرماح فيقول:

الله در (الشراة) إنهم إذا الكرى مال بالطُلا أرقوا
يرجعون الحنين آونة وإن علا ساعة بهم شهقوا
خوفاً تبيت القلوب واجفة تكاد عنها الصدور تتفلق
كيف أجري الحياة بعدهم وقد مضى مؤنسيّ فانطلقوا
قوم شحاح على اعتقادهم بالفوز مما يخاف قد وثقوا (١٣)

وشعر الخوارج أكثره يدور في فلك الجهاد والتقوى والاستبسال في الحروب واحتقار الحياة الدنيا وابتغاء
الشهادة، وقد أدى الشعر في خدمة مذهبهم دوره كاملاً، الأمر الذي جعل شعرهم يحتل مكاناً مرموقاً بين
شعر الحركات الإسلامية الأخرى كنموذج للشعر القوي الرصين الذي جرى على ألسنة اتسمت بالحقق
والجودة والفصاحة.

٤ . الشيعة:

كان للشعر دور هام في موكب التشيع والدفاع عن عقيدة أهل البيت كظاهرة هامة للشعر العربي
بالتغلغل إلى صميم قضايا المسلمين الفكرية والسياسية والعقيدية. وقد انضم إلى هذا الحزب كبار
الصحابة الأجلاء وأعلام الإسلام الأتقياء أمثال سلمان الفارسي، والمقداد، وعمار بن ياسر، وأبي نر
الغفاري وغيرهم من الذين ساهموا في بناء الإسلام، وإقامة صروحه المباركة. آمن هذا الحزب إيماناً
راسخاً في أن أهل البيت أحق بالخلافة، وأولى بها من غيرهم لأنهم سفينة النجاة وأمن العباد حسبما
يقول الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله) في أحاديث موثوقة عند الجميع منها هذا الحديث الذي سار
على كل شفة ولسان: (إني تارك فيكم الثقلين ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا أبداً كتاب الله وعترتي أهل
بيتي) بالإضافة إلى مواهبهم العظيمة وعلومهم الوفيرة التي ورثوها عن آبائهم وأجدادهم الطاهرين
المعصومين. فعلي بن أبي طالب (عليه السلام) كان أحق المسلمين بالخلافة لفضله وعلمه واستقامته
وعدله وقوة شخصيته وسابقته في الإسلام ونص الرسول (صلى الله عليه وآله) عليه.

وكان لسانهم الناطق في عصر الإمام الباقر (عليه السلام) عدة شعراء مخلصين منهم كثير عزة والسيد الحميري والكميت بن زيد الأسدي يقول كثير:
ألا إن الأئمة من قریش ولآة الحق أربعة سواء
علي والثلاثة من بنیه هم الأسباط ليس بهم خفاء
فسبط سبط إيمان وبرّ وسبط غيبتة كربلاء
وسبط لا تراه العين حيّ يقود الخيل يقدمها اللواء
تغيب لا يرى فيهم زماناً يرضون عنده غسل وماء (١٤)
غير أن هناك من الشعراء من قد ضحوا تضحية كبرى في سبيل تشيعهم لآل البيت، فلم يرضوا بمجرد العاطفة نحوهم وإظهار الأسى لما حل بهم، وإنما خاصموا من خاصمهم وشهروا عليهم سلاح القول السنة حداداً مع مجادلة ومحاجة وفي مقدمة هؤلاء الشعراء، الكميت بن زيد الأسدي الذي يهاجم بني أمية بكل جرأة وعنق فيقول:
قل لبني أمية حيث حلوا وإن خفت المهند والقطيعا

أجاج الله من أشبعتموه واشبع من بحوركم أجياعاً
بمرض بالسياسة هاشمي يكون حياً لأمته ربيعاً (١٥)
وكان الكميت علوي المذهب يدافع بكل قواه عن الفكر الشيعي بأعظم الحجج وأوضح الدليل. فهو يعارض الحزب الحاكم المتمثل في الحكام الأمويين المنحرفين عن الخط الإسلامي الصحيح والمبتدعين في الدين غير الملتزمين بما جاء في الكتاب العزيز، السافكين دماء المسلمين فيقول فيهم:
لهم كل عام بدعة يحدثونها أزّلوا بها أتباعهم ثم أوصلوا
كما ابتدع الرهبان ما لم يجيء به كتاب ولا وحي من الله منزل
تحل دماء المسلمين لديهم ويحرم طلع النخلة المتهدل
فيا ربّ هل إلا بك النصر نبتغي عليهم وهل إلا عليك المعول؟
وفوق حملته على الأمويين يعمد إلى الانتصار لأهل البيت عن طريق المناظرة والمحاجة والإقناع، وكأنه متأثر بالمعتزلة متأثراً بالغاً. ونراه يسفه حق بني أمية في الخلافة ويقرر حق الهاشميين فيها فيقول:
وقالوا ورتناها أبانا وأمنا وما ورتتهم ذاك أم ولا أب (١٦)
يرون لهم فضلاً على الناس واجباً سفاهاً وحق الهاشميين أوجب
ولكن مواريث ابن أمانة الذي به دان شرقي لكم ومغرب
وتستخلف الأموات غيرك كلهم وتعنت لو كنا على الحق نعنت
يقولون لم يورث، ولولا تراثه لقد شركت فيه بكيلاً وأرحب (١٧)

وعك ولخم والسكون وحمير وكندة والحيان بكر وتغلب

والحق يقال أن الكميت كان المحامي الذلق المتمكن بالحجة المفخمة وهو كما قال شوقي ضيف: (طرفة نفيصة من طرف العصر الأموي ولون أدبي جديد في تاريخ الأدب العربي)(١٨).

٣ . الحياة الاجتماعية

أ . حياة اللهو:

انغمس ملوك بني أمية باللهو الفارغ والترف الزائغ وتهالكوا على اللذة والمجون فأنفقوا بيت مال المسلمين على شهواتهم الشخصية، وشايعهم في ذلك أهل الثروة والثراء من الحاشية المقربين والشعراء المداحين والمغنيات والمغنين. ولم يتركوا لوناً من ألوان الدنيوي إلا استعملوه مقلدين حكام القياصرة وملوك الأكاسرة. فقد نسوا أو تناسوا أنهم مسلمين فأنحرفوا عن سنة النبيين وشذوا عن أصول الدين وتركوا ما كان سائداً أيام عصر الرسول (صلى الله عليه وآله) وعهد الخلفاء الراشدين حيث كانت الحياة العامة يسودها التقشف والزهد في مباحج الحياة، وقد سئلت عائشة عن ثوبها أيام الرسول (صلى الله عليه وآله) فقالت: أما والله ما كان خزاً ولا قزاً، ولا ديباجاً ولا قطناً ولا كتاناً... وإنما كان سداه من شعر ولحمته من أوبار الإبل (١٩)

والحقيقة أن الحياة في عصر بني أمية قد تغيرت تغيراً تاماً، فشاباب بني مروان كانوا يرفلون في الوشي كأنهم الدنانير الهرقلية (٢٠) ومروان بن إيان بن عثمان يلبس سبعة أقمص كأنها درج بعضها أقصر من بعض، وفوقها رداء عدني بألفي درهم (٢١) وممن أبدع من ملوكهم في اللهو والطرب يزيد بن عبد الملك فقد شغل عن مصالح الدولة بجاريتين إحداها سلامة والأخرى حبابة، فتسلطت حبابة على قلبه وعقله حتى أصبحت المملكة طوع إرادتها، تولي من شاءت وتعزل من شاءت، وهو لا يعرف من أمور الدنيا شيئاً، فلامه أخوه مسلمة وقال له: (توليت هذا الأمر بعد عمر بن عبد العزيز المعروف باستقامته وعدله، وتشاغلته بهذه الجارية عن النظر في الأمور،

والوفود وأصحاب الظلمات يصيحون وأنت غافل عنهم) فتأثر لقوله وقال: صدقت وهم بترك الشراب ولم يجتمع بحبابة أياماً، فاشتاقت هي له فلما كان يوم الجمعة قالت لبعض جواربها: (إن خرج (أمير المؤمنين) للصلاة فأعلميني فلما أراد الخروج أعلمتها فتلقته والعود في يدها وغنت: ألا لا تلمه اليوم أن يتبلدا فقد غلب المحزون أن يتجلدا

فغطى يزيد وجهه وقال: (مه، لا تفعلي!) ثم غنت:

فما العيش إلا ما تلذ وتشتهي وإن لام فيه ذو الشنان وفندا

فلم يتمالك إن عدل إليها وقال: (صدقت والله.. قبح الله من لامني فيك!. يا غلام، مر مسلمة أن يصلي

بالناس). وأقام معها يشرب وتغنيه وعاد إلى ما كان عليه (٢٢) لقد أفرط الناس في العصر الأموي في اللذائذ يتحرونها، ويتغنون في الاستمتاع بها، وكلما ملوا نوعاً ابتكروا نوعاً آخر، وإذا أخذوا يهدأون نشط الدعاة يستحثونهم على الإغراق فيها، والأخذ بأكبر حظ منها (٢٣).

ب . الترف و الإسراف:

بعد الثراء، ترف وإسراف وهذا أمر طبيعي في مجتمع همه مصلحته وملذاته. من مظاهر هذا الترف: المغالاة في المهور.

فقد روى أن عائشة بنت طلحة تزوجت بعد وفاة زوجها عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر بمصعب بن الزبير فأمهرها بألف درهم (٢٤)، ومن مظاهر ترفها كانت إذا حجت يرافق موكبها ستون بغلة عليها الهودج والرحائل فتعرض لها عروة بن الزبير فقال:

عائش يا ذات البغال الستين أكل عام هكذا تحجين (٢٥)

هذه المغالات من المهور كانت دلالة واضحة من دلائل الترف في العصر الأموي ومن سار في ركابهم.

كما روى المؤرخون أن عاتكة بنت يزيد بن معاوية استأذنت عبد الملك فقال لها: ارفعي حوائجك واستظهري، فإن عائشة بنت طلحة تحج ففعلت فجاءت بهيئة جهدت فيها، فلما كانت بين مكة والمدينة إذا موكب قد جاء فطغتها، وفرق جماعتها، فقالت: أرى هذه عائشة بنت طلحة، فسألت عنها فقالوا: هذه خازنتها، ثم جاء موكب آخر أعظم من ذلك فقالوا: عائشة فضغتهم، فسألت عنه فقالوا: هذه ماشطتها ثم جاءت مواكب على هذه الهيئة إلى سننها، ثم أقبلت كوكبة فيها ثلاثمائة راحلة عليها القباب والهودج، فقالت عاتكة ما عند الله خير وأبقى (٢٦).

ومن مظاهر الترف في ذلك العصر نقل المؤرخون صوراً كثيرة منها: إن مصعب بن الزبير أهدى عائشة بنت طلحة ثمانى حبات من اللؤلؤ قيمتها عشرون ألف دينار، فلما دخل عليها ليقدّم هديته الثمينة وجدها نائمة فأيقظها فلما رأت الهدية لم تعن بها وقالت: كان النوم أحب إلي! (٢٧).

ج . الغناء:

شجع ملوك بني أمية الغناء ووهبوا للمغنين الأموال الطائلة وقد روى المؤرخون أموراً كثيرة عن عشقهم للغناء وتشجيعهم عليه. منها: وفد على يزيد بن عبد الملك معبد، ومالك بن أبي السمح وابن عائشة، فأمر لكل واحد منهم جائزة بلغت ألف دينار (٢٨). ثم توسع الوليد بن يزيد في جوائز المغنين فأعطى معبداً اثني عشر ألف دينار كما استقدم جميع مغني الحجاز وأجازهم جوائز كثيرة (٢٩). وقد راجت حرفة الغناء بين الناس وأقبلوا عليها حينما رأوا ملوك بني أمية قد قربوا المغنين والمغنيات، ووهبواهم الثراء العريض، ومن طريف ما ينقل عن المؤرخين: إن الوليد بن يزيد لما ولي الخلافة استدعى

عطرد من المدينة وكان حسن الصوت جميل الوجه فغناه، فطرب الوليد وطار طرباً حتى أنه شق حلة وشي كانت عليه، ورمى نفسه في بركة خمر، فما زال بها حتى أخرج كالميت سكرًا فلما أفاق قال له: كأني بك الآن قد أتيت المدينة فقمت في مجالسها ومحافلها وقلت: دعاني أمير المؤمنين فدخلت عليه فاقترح علي فغنيته وأطربته فشق ثيابه وفعل، والله لئن تحركت شفتاك بشيء مما جرى فبلغني لأضرين عنقك، ثم أعطاه ألف دينار فأخذها وانصرف إلى المدينة (٣٠).

وكثير مثل هذه الصور رواها المؤرخون وهي إن دلت على شيء فإنها تدل على خلاعة بني أمية واستهتارهم في أمور الدين وانحرافهم عما أمر به الإسلام القويم العظيم من ترك حياة اللهو والعبث والمجون والعمل بما يرضي الله عز وجل ويفيد الفرد في سلوكه الخاص ويكسبه الوقار والاحترام في مجتمعه. وهكذا انتشر الغناء في المدينة التي هي عاصمة الإسلام، ومدينة الرسول الأعظم. ومما لا شك فيه أن ذلك كله كان يوحى من الحكومة الأموية وتشجيع من الحكام الأمويين لإسقاط هيبة المدينة، عاصمة الرسول (صلى الله عليه وآله) وتلهي الشباب في أمور تافهة تتسيهم انحراف الحكام فينغمسون بمباهج الدنيا ويهملون واجبههم الشرعي فلا يقاومون الظالمين ولا يقومون بثورات ضدهم. لكن سرعان ما خاب ظنهم حيث قامت اضطرابات كثيرة عمت البلاد وثورات عديدة تطالب بالعودة إلى الحكم الإسلامي العادل والحياة الإسلامية الكريمة.

د - الوضع في الحديث الشريف:

بدأ الوضع في السنة الشريفة بشكله السافر واتخذ حكام بني أمية من ذلك وسيلة لخدمة أغراضهم السياسية (٣١). كان من أعظم ما عاناه المسلمون من خطوب، الأحاديث الموضوعية التي وضعها من لا حريجة له في الدين، وذلك لصرف المسلمين عن أحكام دينهم، وتعاليم نبيهم، وتشويه الواقع المشرق للإسلام. وكان أول من تجرأ على الوضع والافتعال، معاوية بن أبي سفيان. عمد إلى ذلك لتركيز أهدافه السياسية ودحض الأحاديث التي تؤكد أن الخلافة لعلي كحديث (حجة الوداع) وحديث (علي مني كهارون من موسى) و(علي مع الحق والحق مع علي) وغيرها من الأحاديث الشريفة التي تثبت الخلافة لعلي وللائمة المعصومين من ولده.

شكل معاوية لجاناً لوضع الحديث عن لسان الرسول (صلى الله عليه وآله) ودفع للمحدثين المتكسبين أموالاً طائلة فذاعت تلك الأحاديث بين الناس وحفظها بعض الرواة وهم لا يعلمون زيفها وعدم صحتها، ولو علموا بذلك لنبذوها وطرحوها. قال المدائني في ذلك:

(وظهر حديث كثير موضوع، وبهتان منتشر، ومضى على ذلك الفقهاء والقضاة والولاة، وكان من أعظم الناس بلية في ذلك القراء المرأون والمستضعفون الذين يظهرون الخشوع والنسك فيفتعلون الأحاديث

ليحظوا بذلك عند ولاتهم، ويقربوا مجلسهم ويصيبيوا الأموال والضياع والمنازل، حتى انتقلت تلك الأخبار والأحاديث إلى أيدي الديانين الذين لا يستحلون الكذب والبهتان فقبلوها ورووها وهم يظنون أنها حق، ولو علموا أنها باطلة لما رووها ولا تدينوا بها(٣٢).

ولا يخفى على ذوي البصائر أن أهم الدوافع التي حدثت بمعاوية وحكام بني أمية إلى ذلك هو الحط من شأن العترة الطاهرة التي فرض الله مودتها في كتابه وطهرها تطهيراً. (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً).

عهد معاوية إلى لجان الوضع أن تضع الأحاديث في ذم علي (عليه السلام) وتشويه سمعته. قال ابن أبي الحديد: (وذكر شيخنا أبو جعفر الإسكافي أن معاوية وضع قوماً من الصحابة، وقوماً من التابعين على رواية أخبار قبيحة في علي تبتغي الطعن فيه، والبراءة منه وجعل لهم على ذلك جعلاً يرغب في مثله، فاختلفوا ما أرضاه، منهم: أبو هريرة، وعمرو بن العاص، والمغيرة بن شعبة وعروة بن الزبير(٣٣).

وقد حذر رسول الله (صلى الله عليه وآله) من هذا الوضع وهذا الانحراف فقال (صلى الله عليه وآله): (من رد حديثاً عني فأنا مخاصمه إلى يوم القيامة، فإذا بلغكم عني حديث فلم تعرفوه فقولوا: (الله أعلم(٣٤). ويقول أيضاً: (من حدث عني حديثاً وهو يرى أنه كذب فهو أحد الكذابين(٣٥). وقوله (صلى الله عليه وآله): (من بلغه عني حديثاً فكذب به فقد كذب ثلاثة: الله، ورسوله والذي حدث به(٣٦).

ومن مظاهر ذلك الوضع ما رواه مسلم أن النبي (صلى الله عليه وآله) أمر بقتل الكلاب إلا كلب صيد أو ماشية، وقد أخبر ابن عمر أن أبا هريرة قد زاد أو كلب زرع فقال: إن له أرضاً كان يزرعها(٣٧).

ومن المحدثين الذين استغلهم الحكام الأمويون: الزهري، فقد أخذ يضع لهم الحديث من صنعه لتدعيم سياستهم ومن موضوعاته المكشوفة روايته عن النبي (صلى الله عليه وآله) أنه قال: (لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة: مسجدي هذا، والمسجد الحرام، والمسجد الأقصى) فجعل بيت المقدس كالبيت الحرام مما يشد إليه الرحال، وقد افتعل ذلك لسبب اعتقد أنه يخدم فيه مصلحة الأمويين. ذلك حينما حرم الأمويون السفر إلى بيت الله الحرام خوفاً من الاختلاط بأهل الحجاز حينما كانوا خاضعين لحكومة ابن الزبير وقد حج أهل الشام إلى بيت المقدس بدلاً من البيت الحرام (٣٨) وممن كذب على الإمام الباقر: (بيان). ابتلي الإمام الباقر بجماعة من الخونة والمارقين الذين أخذوا يضعون الأحاديث على لسانه ويكذبون عليه في حياته من هؤلاء: بيان بن سمعان النهدي من بني تميم (٣٩). وقد طلب الإمام الباقر وولده الإمام الصادق (عليهما السلام) من الشيعة التبري منه لأنه يكذب على الأئمة (عليهم السلام)(٤٠).

هـ - الكفر والإلحاد:

إن بعض العناصر الحاقدة على الإسلام والباغية عليه حملت إلى البلاد الإسلامية موجات من الكفر والإلحاد والزندقة، وقد أعرض الحكام الأمويون عن ملاحقة دعواتها مما أوجب انتشارها بين المسلمين. في مثل هذه الحالات لا يمكن للأئمة المعصومين أن يقفوا مكتوفي الأيدي أمام هذه الانحرافات فقد تصدى لها الإمام الباقر وولده الإمام الصادق (عليهما السلام) إلى نقدها وتزييفها. من ذلك ما عرض للإمام الباقر مع رجل ملحد، كان (عليه السلام) جالساً في فناء الكعبة فقصدته رجل وقال له:

هل رأيت الله حتى عبدته؟ فقال (عليه السلام):

ما كنت لأعبد شيئاً لم أراه.

فكيف رأيته؟ أجاب (عليه السلام):

لم تره الأبصار بمشاهدة العيان، ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان لا يدرك بالحواس، ولا يقاس بالناس، معروف بالآيات منوعة بالعلامات، يجوز في قضيته، بان من الأشياء، وبانت الأشياء، ليس كمثلته شيء ذلك الله لا إله إلا هو.

فلما سمع الرجل الجواب تفندت أوهامه واقتنع من كلام الإمام (عليه السلام) لأنه كلام واقعي مشرق مبني على جوانب التوحيد. وراح يقول: (الله أعلم حيث يجعل رسالته فيمن يشاء) (٤١).

ثم نهى الإمام الباقر (عليه السلام) عن الخوض في الحديث عن ذات الله تعالى وأنها غير مسموح لها أن تتداول بين أفراد المجتمع وليتجه الجميع إلى التأمل في مخلوقات الله بدل الحديث في ذات الخالق. بعد هذا العرض الموجز لما ساد البلاد في العصر الأموي من الظلم والجور والانحراف والبعد عن الدين الإسلامي الصحيح القويم قامت الثورات في البلاد الإسلامية وعصفت الاضطرابات بأمن الأمة ورخائها، وتدهورت اقتصادياتها، ولم يعد لها أي ظل لكرامتها وعزتها وحريرتها. وأخذت البلاد ترزح مثقلة بالقيود تحت وطأة الحكم الأموي الذي انحرف عن الحق وكفر بحقوق الإنسان.

ثورات عارمة

بعد هذا الجور والظلم الذي عصفت بالأمة الإسلامية تفجر بركان ثورات عديدة انطلقت به الشعوب الإسلامية في مختلف المناطق كالمارد الجبار بعد أن عانت الخطوب والأهوال من الحكم الأموي. فأعلنت العصيان المسلح في ثورات متلاحقة أصاب لهيبها جبروت الحكم الأموي وطغيانه من أهم هذه الثورات التي حدثت في عصر الإمام الباقر (عليه السلام) نذكر:

١. ثورة المدينة:

وهي أفجع ثورة في الإسلام بعد كارثة كربلاء، سماها المؤرخون بواقعة (الحرّة) انتهكت فيها جميع الحرمات، واستباح الجيش الأموي الآثم نفوس المسلمين وأعراضهم وأموالهم.

أما سبب هذه الثورة فهو أن بقايا الصحابة من خيار المسلمين وجدوا في عهد يزيد الجور الشامل والسلطان الظالم، فقد اقترب جميع المويقات وانتهك حرمة رسول الله (صلى الله عليه وآله) بإبادته عترته الطاهرة وسببه ذراريه من المدينة إلى الشام. عند ذلك رأوا الخروج عليه واجباً شرعياً. أدلى بذلك عبد الله بن حنظلة أحد زعماء الثورة فقال: (والله ما خرجنا على يزيد حتى خفنا أن نرمي بالحجارة من السماء.. إن رجلاً ينكح الأمهات والبنات ويشرب الخمر ويدع الصلاة والله لو لم يكن معي أحد من الناس لا بليت لله فيه بلاءً حسناً)(٤٢). ويقول ثائر آخر، المنذر بن الزبير: (إنه، قد أجازني بمائة ألف، ولا يمنعي ما صنع بي أن أخبركم خبره، والله إنه ليشرّب الخمر، ويسكر حتى يدع الصلاة)(٤٣).

أجمع أهل المدينة على خلع بيعة يزيد، فطردوا حاكمهم والأمويين معه. خاف مروان بن الحكم على نفسه ونسائه فأسرع إلى الإمام زين العابدين (عليه السلام) فأجابه إلى ذلك وتناسى إساءة مروان لأهل البيت وقام (عليه السلام) بالإنفاق على أهل مروان وهرب هذا من يثرب خوفاً من أهل المدينة (٤٤). أرسل يزيد الطاغية جيشاً كبيراً لاحتلال المدينة بقيادة مجرم خطير هو مسلم بن عقبة الذي قال إلى يزيد:

(والله لأدعنّ المدينة أسفلها أعلاها).

زحف المجرم بجيشه إلى يثرب فاحتلها بعد معارك دامية وراح جنوده يمعنون في قتل الأبرياء من الأطفال والشيوخ والنساء مستباحين كل ما حرّمه الله مدة ثلاثة أيام. فقدت المدينة في هذه المجزرة ثمانين من أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله) حتى لم يبق فيها بدري واحد، كما فقدت سبعمائة من قريش والأنصار، وعشرة آلاف من سائر الناس (٤٥).

أخذ الطاغية البيعة من أهل المدينة على أنهم خول عبيد ليزيد يصنع بهم ما أراد، ومن أبى ضربت عنقه (٤٦). جرت أحداث مذهلة على أهل المدينة دون أن تراعى حرمة الرسول (صلى الله عليه وآله) في أنصاره المدافعين عن الإسلام أيام غربته ومحنته.

استسلمت المدينة إلى جيش يزيد العاتي الظلوم الذي عاث فيها فساداً وتركها ضربة موحشة، ملئت بيوتها بالثكل والحزن والحداد.

٢ - ثورة التوابين:

ندم الشيعة الكوفيون على ما اقترفوه من إثم عظيم في خذلانهم لسيد الشهداء الإمام الحسين (عليه

السلام) في حين أنهم هم الذين كاتبوه ودعوه بالقدوم إلى الكوفة عن طريق الرسائل والوفود. فقد رؤوا أن لا كفارة لهم سوى إعلان الثورة على حكومة يزيد، والمطالبة بدم الإمام الحسين (عليه السلام). كان زعيم التوابين سليمان بن صرد الخزاعي الذي أناطوا به القيادة العسكرية والسياسية ومراسلة المناطق الشيعية في العراق وخارجه. جمع التوابون التبرعات والأموال وأحاطوا أمرهم بكثير من السر والكتمان. ولما هلك الطاغية الفاسد يزيد أعلن التوابون ثورتهم العارمة في سنة ٦٥هـ وكان عددهم فيما يقول المؤرخون أربعة آلاف. وكان شعارهم:

(يا لثارات الحسين) ولأول مرة دوى هذا النداء في سماء الكوفة فكان كالصاعقة على رؤوس المجرمين. جرت أعنف المعارك بين التوابين وجنود أهل الشام في مكان يدعى (عين الوردية) أبدى فيها التوابون بسالة وصموداً يعجز عنه الوصف. استشهد في هذه المعركة الضارية قادة التوابين مثل: سليمان ابن صرد والمسيب بن نجية وعبد الله بن سعد وغيرهم.. وأدركوا عند ذلك أن لا قدرة لهم على مقابلة أهل الشام، فتركوا ساحة القتال وعادوا إلى غلس الليل إلى الكوفة ومضى كل جندي إلى بلده وانتهت بذلك معركة التوابين بعد أن أدخلت الفرخ إلى قلوب أهل البيت وألقت الرعب في نفوس المجرمين السفاحين. ٣. ثورة المختار:

المختار هو علم من أعلام الشيعة وسيف من سيوف آل الرسول (صلى الله عليه وآله) لم يعرف التاريخ العربي والإسلامي شخصية ألمع من شخصيته. لم يقم بثورته طمعاً بالحكم وإنما لأخذ الثأر لأهل البيت، آل النبي (صلى الله عليه وآله) الذي فجعوا بمصيبة سيد الشهداء (عليه السلام) وأنقلهم الخطب بتلك الفاجعة، وهم ينتظرون بفارغ الصبر من يأخذ بيده الله جل وعلا لينتقم من الظالمين ويأخذ بثأرهم من المجرمين.

كان المختار على جانب كبير من التقوى، يقول المؤرخون أنه كان يكثر من الصوم شكراً لله تعالى لأنه وفقه للأخذ بثأر العترة الطاهرة وإبادة الأرجاس من أتباع الأمويين.

ساد الرعب في قلوب أولئك المجرمين الذين قتلوا سيد الأحرار وريحانة الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله) الإمام الحسين (عليه السلام). لقد فرّ بعضهم إلى عبد الملك بن مروان فقال له: (إني هربت إليك من العراب) فصاح عبد الملك: (كذبت ليس لنا هربت، ولكن هربت من دم الحسين وخفت على دمك فلجأت إلينا)(٤٧).

شرع المختار إلى تنفيذ حكم الإعدام بلا هوادة بكل من اشترك في قتل سيد شباب أهل الجنة فقتل المجرم الخبيث ابن مرجانة في معركة ضارية انتصر فيها على جيوش الشام التي كان يقودها ابن زياد، ثم تتبع قتلة الحسين (عليه السلام) فقتل، عمر بن سعد مع ولده حفص، وبعث برؤوسهم إلى يثرب لأهل البيت. مما أدخل الفرخ إلى قلوبهم. قال الإمام الصادق (عليه السلام)(٤٨): (ما امتشطت فينا هاشمية

ولا اختضبت حتى بعث لنا المختار برؤوس الذي قتلوا الإمام الحسين (عليه السلام). ثم أرسل المختار بعشرين ألف دينار إلى الإمام زين العابدين ليبنى بها دور بني عقيل التي هدمها أوغاد بني أمية (٤٩).

كان المختار حسنة من حسنات عصره ومن مفاخر الأمة الإسلامية بتقواه وحريجه في الدين، وقد شفى الله بثورته صدور المؤمنين بقضائه على تلك الزمرة الخائنة. ثورته التي استهدف بها القضايا المصيرية للأمة الإسلامية من نشر المساواة والعدالة الاجتماعية بين الناس وإعادة سيرة الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) وسياسته المشرقة بين المسلمين خاصة وغير المسلمين عامة.

٤ . ثورة ابن الزبير:

لم تكن ثورة ابن الزبير كغيرها من الثورات السابقة ذلك أنها كانت تهدف لمصلحة شخصية وليس لصالح الأمة وإسعادها فقد هدفت إلى نقل الخلافة إلى آل الزبير الذين لم يفكروا قط في غير مصلحتهم. دليلنا على ذلك ما قاله عبد الله بن عمر لزوجته حينما ألحت عليه لمبايعة الزبيريين. فقال لها:

(أما رأيت بغلات معاوية التي كان يحج عليها الشهباء؟ فإن ابن الزبير ما يريد غيرهن)(٥٠).

لقد كان ابن الزبير يبغى بثورته الملك والسلطان، ولا يبغى وجه الله ومصلحة الأمة الإسلامية. وقد أغرى الناس البسطاء فتسلح بالنسك والعبادة ليجذب السذج. وفيه قال أمير المؤمنين: (ينصب حباله الدين لاصطفاء الدنيا)(٥١).

عرف بعدائه لآل النبي (صلى الله عليه وآله) وحقده عليهم كأشد ما يكون الحقد، حتى أنه ترك الصلاة على النبي في خطبه فقال: (إن له أهل سوء يشربون لذكروه، ويرفعون رؤوسهم إذا سمعوا به)(٥٢) من الطبيعي أن يخفق بثورته بعد أن بلي بالشح والاستبداد بالرأي والعجب بنفسه بعد أن أخذت جيوش الحجاج تكيل له الضربات وهو معتصم ببيت الله الحرام الذي لم يرع له الحجاج السفاك حرمة وخرج أكثر أصحابه يطلبون الأمان وبقي ابن الزبير إلى أن قتله الحجاج وصلبه.

٤ . الحياة الاقتصادية

مما لا ريب فيه أن الحياة السياسية تؤثر تأثيراً كبيراً على الحياة الاقتصادية في أي عصر من العصور. ففي عصر الإمام الباقر (عليه السلام) كانت الحياة الاقتصادية مضطربة ومشلولة فثروة البلاد قد انحصرت في أيدي الطبقة الحاكمة وعند عملائها وحاشيتها. وهم بدورهم ينفقونها بسخاء على كل من يلوذ ببلاطهم من الشعراء والأدباء والعملاء الذين كانوا يهللون للحاكم ويدعون له في المناسبات الحكام يتفننون في أنواع الملدات وعامة الشعب كانت تزرع تحت نير الفقر والبؤس. فالأسعار غالية جداً قد أرهقت كواهل الناس، وكلفتهم من أمرهم شططاً. حتى أصبح عامة الناس طاوية بطونهم عارية أجسادهم. وما أشبه اليوم بالبارحة!! كان عامة الناس على هذا الغرار يعيشون حياة الفقر، وهل أفسى

من الفقر على الإنسان؟ قال أمير المؤمنين في هذا المجال: (لو تمثّل لي الفقر رجلاً لقتلته). لقد تحول اقتصاد الدولة إلى جيوب الأمويين ومن سار على ركبهم دون أن ينفق شيء منه على تطور الحياة العامة وازدهار مرافقها وتقدمها.

وقد تبين ذلك من خلال ما قاله الشعراء أمثال الشاعر الأسدي والنمري. قال النمري مخاطباً عبد الملك بن مروان يشكو اضطهاد العمال لقومه وابتزازهم أموال الأمة:

أخليفة الرحمن إنا معشر حنفاء نسجد بكرة وأصيلاً
إن الساعة عصوك يوم أمرتهم وأتوا دواهي لو علمت وغولا
أخذوا العرين فقطعوا حيزومه بالأصبحية قائماً معلولاً (٥٣)
حتى إذا لم يتركوا لعضامه لحماً ولا لفؤاده معقولاً (٥٤)
يدعوا أمير المؤمنين ودونه خرق تجر به الرياح ذيولاً (٥٥)
كهداهد كسر الرماة جناحها تدعو بقارعة الطريق هديلاً
أخليفة الرحمن أن عشيرتي أمسى سوامهم عزين فلولا (٥٦)
قوم على الإسلام لما يتركوا ماعونهم ويضيعوا التأهليلاً (٥٧)
قطعوا اليمامة يطردون كأنهم قوم أصابوا ظالمين فتيلاً
شهري ربيع ما تذوق بطونهم إلا حموضاً وخمة وذبيلاً (٥٨)
وأتاهم يحيى فشد عليهم عقداً يراه المسلمون ثقيلاً (٥٩)

كتباً تركن غنيهم ذا عيلة بعد الغنى وفقيرهم مهزولاً

فتركت قومي يقسمون أمورهم إليك أم يتريصون قليلاً (٦٠)

نرى من خلال هذه الأبيات الجور الهائل الذي صبه العمال على قوم الشاعر حتى أنهم لم يتركوا عليهم عظماً إلا هشموه، وسياطهم الثقيلة ألهبت أجسام القوم المظلومين فتركوهم أشباحاً مبهمة خالية من الحياة والروح، كجذوع نخل خاوية.

واستمرت المظالم الاقتصادية حتى في عهد عمر بن عبد العزيز الخليفة العادل الشهم النبيل، فالعمال استمروا في نهب أموال الرعية وسلب خيراتها ظلماً وعدواناً. قال في ذلك الشاعر كعب الأشعري مخاطباً الخليفة:

إن كنت تحفظ ما يليك فإنما عمال أرضك بالبلاد ذئاب

لن يستجيبوا للذي تدعو له حتى تجلد بالسيوف رقاب

بأكف منصلتين أهل بصائر في وقعهن مزاجر وعقاب

الحكام الأمويون يعلمون بكل تصرفات عمالهم الجائرة، لكنهم لم يقدموا على محاسبتهم وما اقترفوا من

الجور والظلم للرعية. وهذا مما سبب الفتن والثورات التي مر ذكرها والتي التهمت نيرانها في خراسان حكم بني أمية والقضاء على دولتهم.

هذه أوضاع عصر الإمام الباقر (عليه السلام) بكل آلامه وويلاته وظلمه وجوره تصور لنا بؤس المجتمع الذي ترك التياحاً وألماً في نفس الإمام وهو بحكم قيادته الروحية للمسلمين يعز عليه بؤسهم وشقاءهم.

٥ . الحياة العلمية

لقد أثرت الحياة السياسية وما سادها من قلق واضطرابات على الحياة العلمية تأثيراً سلبياً واضحاً ظهرت معالمه بكثير من الجمود والخمول في عصر الإمام الباقر (عليه السلام). فالتيارات السياسية التي حرفت الناس وتهاكت من خلاتها البيوتات الرفيعة على الظفر بالحكم والطاقات البشرية والمالية استهلكت جميعها في حروب طاحنة ومذهلة، والنكبات الفظيعة التي منيت فيها الأمة وجرت عليها أفدح الخسائر المادية والبشرية. كل ذلك أثر على الحركة العلمية وجعلها تنتردى ضموراً وانحلالاً.

اتجه الأمويون اتجاهاً عسكرياً مدمراً في حروب داخلية مريعة وعاشت الأمة حياة لم يكن فيها أي بصيص لنور المعلم وتألق الفكر، وما حدث أن ذلك النور الذي فجره الإسلام في العالم العربي خاصة وسائر الدنيا عامة، قد خبا وضعف بريقه عما كان عليه في صدر الإسلام، الإسلام الذي أراد للبشرية أن تسير على هديه لتحقيق أهدافها الإنسانية ورسالتها المثلى من الأمن والرخاء والتطور. كان هم الإسلام الإنسان وهدفه تحسين أوضاعه ليعيش بسعادة وحرية وكرامة.

كل ذلك قد توقف في العصر الأموي ولم يعد له ظل يذكر بسبب انحراف الحكام الأمويين عن الخط الإسلامي الذي رسمه الرسول الأعظم وجاهد الأئمة الأطهار على تطبيقه عبر جهاد مرير ضد الظالمين والمجرمين والمارقين.

والإمام الباقر (عليه السلام) لا بد له من أن يسير على خط آبائه وأجداده ويكمل الرسالة النبوية وينفذ الوصية. فما كان دوره في تلك الأيام العصيبة؟
دور مشرق هام لأعظم إمام:

تميز الإمام الباقر (عليه السلام) بمواهب عظيمة وطاقات هائلة وعبقريات ضخمة من العلم شملت جميع أنواع العلوم وشتى المعارف من فقه وعلم كلام وحديث وفلسفة وحكم إنسانية عالية، وآداب أبدية سامية، مضافاً إلى علم خاص زود به بأخبار عن أحداث قبل وقوعها، ثم تحققت على مسرح الحياة. ومع سعة مدى علومه وكثرة ما انتهل العلماء من نعيم معارفه فإنه كان يشعر في نفسه ضيقاً وحرماً لكثرة ما عنده من العلوم التي لم يجد لنشرها سبيلاً. وكثيراً ما كان يصعد الحسرات ويقول:
(لو وجدت لعلمي الذي أتاني الله عز وجل لنشرت التوحيد والإسلام والدين والشرايع... وكيف لي بذلك،

ولم يجد جدي أمير المؤمنين (عليه السلام) حملة لعلمه حتى كان يتنفس الصعداء ويقول على المنبر: سلوني قبل أن تفقدوني فإن بين الجوانح علماً جماً... (٦١).

وقد أجمع المؤرخون أن الإمام الباقر (عليه السلام) كان من أغنى رجال الفكر والعلم في عصره في مواهبه الشخصية وقدراته العلمية، وأنه ممن رفع منار العلم وأبرز حقائقه وأظهر كنوزه لجميع من قصده من علماء عصره.

أطل الإمام الباقر على عالم مليء بالاضطرابات والفتن والأحداث الدامية. نظر إلى الحياة من حوله فوجدها قد فقدت جميع مقوماتها ولم تعد كما أرادها رب العالمين في وحدتها وتطورها في ميادين العلم والعطاء. لم يجد بدأ الإمام (عليه السلام) أن يقوم بواجبه الشرعي لإعادة مجد الأمة الإسلامية وردها إلى الخط السليم وبناء كيائها الحضاري. ولا يتم ذلك إلا عن طريق منائر العلم وصروح الفكر، فانصرف عن كل تحرك سياسي، واتجه صوب العلم وحده متفرغاً له في عزلته في المدينة المنورة، حصن الإسلام الأمين. وفي هذا الحصن المنيع كان يخف إليه العلماء من أعيان الأمة وسائر الأقطار للاستفسار والشرح والتحصيل.

وكان ممن وفد إليه العالم الكبير جابر بن يزيد الجعفي ومحمد بن مسلم الطائفي، وأبو بصير المرادي، وأبو حمزة الثمالي ووفود علمية تترى جاءت لتأخذ عنه العلوم والمعارف. جاء في عيون الأخبار (وما قصد أحد من العلماء مدينة النبي (صلى الله عليه وآله) إلا عرج عليه. يقصد الإمام الباقر. ليأخذ عنه معالم الدين، وقد أخذ عنه أهل الفقه ظاهر الحلال والحرام (٦٢).

وخلاصة القول: إن العالم الإسلامي استمد من الإمام الباقر جميع مقومات نهوضه وارتقائه في المنهج الحضاري، ولم يقتصر المد الثقافي والحضاري على عصره، وإنما امتد إلى العصور التالية. وقد جاء (عليه السلام) ليكمل رسالة أهل البيت في تطور الحياة العلمية في الإسلام.

والحق يقال أن الحياة الثقافية في عصر الإمام مدينة لهذا الإمام العظيم الذي يعد الباعث والقائد والناهض بها على امتداد التاريخ.

(١) الهجائن: الحرات الكريمات، الفوالخ: جمع فالخ، ويراد به الزوج.

(٢) عتق مطمئة: يراد بها النساء العربيات، مروج الذهب ج ٢ ص ١٩٦.

(٣) لقد عيرهم بأنهم يزوجون بناتهم للحبش والفرس فتولد السود والحمرة فكان هذا النسل يشبه تلقيح

الحمير للخيل العتاق التي تنتج البغال، المرجع السابق ج ٢ ص ١٩٦.

(٤) أعتقد أنه كان على اتفاق مع كميته في ذلك لتأجيج نار الفتنة بين القبائل وإضعافها.

(٥) ضحى الإسلام ج ٣ ص ٢٠٦ والمقصود أي بعد الكميته. وراجع مروج الذهب ج ٢ ص ١٩٧.

- (٦) مروج الذهب ج ٢ ص ٧٣.
- (٧) نقد الحديث في علم الرواية وعلم الدراية للمؤلف ج ١ ص ٣٧٠.
- (٨) الأحكام في أصول الأحكام لابن حزم ج ٢ ص ٥٨٢ وراجع ابن سعد في الطبقات ج ٢ ص ١٠٠ والسنة قبل التدوين ص ١٩١ ويقصد بأمر المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام).
- (٩) الأغاني ج ١١ ص ٢٧١.
- (١٠) الأغاني ج ١٥ ص ٥٩.
- (١١) ديوان ابن قيس الرقيات ص ١٧٦.
- (١٢) نفسه الرقيات ص ١٧٦.
- (١٣) ديوان الطرماح ص ١٥٧.
- (١٤) الأغاني ج ٩ ص ١٥١٤.
- (١٥) الأغاني ج ٥ ص ٢٧١.
- (١٦) الهاشميات ص ٣٦.
- (١٧) بكيل وأرحب وعك ولخم قبائل عربية.
- (١٨) التطور والتجديد في الشعر الأموي ص ٣١٧.
- (١٩) العقد الفريد ج ١ ص ٣٩٤.
- (٢٠) الأغاني ج ١ ص ٣١٠.
- (٢١) الأغاني ج ١٧ ص ٨٩.
- (٢٢) ابن الأثير ص ٥٧ ومروج الذهب ج ٢ ص ١٢٥.
- (٢٣) ضحى الإسلام لأحمد أمين ج ١ ص ١٠١ وما بعدها.
- (٢٤) الأغاني ج ١٠ ص ٦٠.
- (٢٥) حياة الإمام محمد الباقر لباقر شريف القرشي ص ١٥٢ ج ٢ عن الأغاني ج ١٠ ص ٦٠.
- (٢٦) الأغاني ج ١٠ ص ٦٠.
- (٢٧) نفسه ج ١٠ ص ٦٠.
- (٢٨) نفسه ج ٥ ص ١٠٩.
- (٢٩) نفسه ج ٥ ص ١٦١ وبالطبع الولد سر أبيه!
- (٣٠) الأغاني ج ٣ ص ٣٠٧.
- (٣١) السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي ونقد الحديث في علم الرواية وعلم الدراية ج ١ ص ٣٦٩ للمؤلف.

- (٣٢) النهج ج ٣ ص ١٦.
- (٣٣) شرح النهج ج ٤ ص ٦٣ وعروة بن الزبير من التابعين.
- (٣٤) المفيد للعلموي ص ١٧.
- (٣٥) نفسه ص ١٧.
- (٣٦) نفسه ص ١٧.
- (٣٧) صحيح مسلم كتاب العيد.
- (٣٨) حياة الإمام محمد الباقر القرشي ج ٢ ص ١٥٨.
- (٣٩) لسان الميزان ج ٢ ص ٦٩.
- (٤٠) رجال الكشي ص ٢٢٣.
- (٤١) تاريخ دمشق ص ٤٥ وزهر الآداب ج ١ ص ١١٦.
- (٤٢) طبقات ابن سعد.
- (٤٣) تاريخ الطبري ج ٤ ص ٣٦٨.
- (٤٤) تاريخ ابن الأثير ج ٣ ص ٣١١.
- (٤٥) تاريخ الطبري ج ٧ ص ٥ وما بعدها.
- (٤٦) تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ٢٣٢ وأنساب الأشراف ج ٤ ص ٣٨.
- (٤٧) عيون الأخبار لابن قتيبة ج ١ ص ١٠٣.
- (٤٨) رجال الكشي.
- (٤٩) سفينة البحار ج ١ ص ٤٣٥.
- (٥٠) حياة الإمام الحسين للقرشي ج ٢ ص ٣١٠.
- (٥١) شرح النهج ج ٧ ص ٢٤.
- (٥٢) اليعقوبي ج ٣ ص ٨.
- (٥٣) الحيزوم: وسط الظهر والأصبحية: السياط جمع أصبح.
- (٥٤) المعقول: الإدراك.
- (٥٥) الخرق: الصحراء الواسعة.
- (٥٦) العزيرين: الجماعات.
- (٥٧) الماعون: الزكاة.
- (٥٨) الحموش: المر المالح.
- (٥٩) يحيى: هو أحد السعاة الظالمين.

(٦٠) حياة الإمام موسى بن جعفر ج ١ ص ٣٠٤.

(٦١) سفينة البحار.

(٦٢) عيون الأخبار ص ٢١٣.

علوم الإمام (عليه السلام)

ليس بالغريب أن يمتلك مثل هذه العلوم من ترى في مدرسة أهل البيت، إنه كوكب من كواكب الإسلام جمع فأوعى، وعاش الإيثار بكل معانيه، وعشق التضحية بأجلى معانيها فخاض جميع العلوم في بحوث ألقاها على العلماء في الجامع النبوي، الذين كانوا يتدفقون إليه ويتحلقون حوله كما تتحلق مجموعات النحل لتمتص أريج العسل الصافي من الزهور. لقد خاض عدة علوم يحتاج الشرح عنها عدة مجلدات، لكن سوف نعددها بإيجاز بإذن الله.

العلوم الفقهية

إن روايات الأئمة الطاهرين (عليهم السلام) التي أثرت عنهم في عالم التشريع والأحكام الفقهية لا تتناول آراءهم الخاصة وإنما هي امتداد لأقوال الرسول (صلى الله عليه وآله) ولذلك ألحقت بالسنة الشريفة. قال الإمام الباقر (عليه السلام) في ذلك في حديث مع جابر بن يزيد الجعفي. قال (عليه السلام): (والله يا جابر لو كنا نحدث الناس برأينا لكنا من الهالكين، ولكننا نحدثهم بأثار عندنا من رسول الله (صلى الله عليه وآله) يتوارثها كابر عن كابر نكنزها كما يكنز هؤلاء ذهبهم وفضتهم...)(١).

الحديث الشريف

اهتم الإمام (عليه السلام) اهتماماً بالغاً في الأحاديث الواردة عن جده رسول الله (صلى الله عليه وآله) وعن آبائه الأئمة الطيبين (عليهم السلام) وهي تعد المصدر الثاني للتشريع الإسلامي بعد القرآن الكريم. فالكتاب تولى العناوين والعموميات والحديث اختص بشرح العموميات وتقييد المطلقات، وبيان ناسخه من منسوخه، ومجمله من مبنيه، كما يعرض لأحكام الفقه من العبادات والمعاملات، وإعطاء القواعد الكلية التي يتمسك بها الفقهاء في استنباطهم الحكم الشرعي.

إلى جانب هذا كله فإن فيه فصلاً مشرقاً لآداب السلوك، وقواعد الاجتماع، وتنظيم الأسرة وصيانتها من التلوث بالآثام، إلى غير ذلك مما يحتاج إليه الناس في حياتهم الفردية والاجتماعية. ولذلك وجدنا الإمام (عليه السلام) يهتم بالحديث وبتبناه، ويؤكد على فهمه والوقوف على معانيه. وقد جعل المقياس في فضل الراوي فهمه للحديث ومعرفة مضامينه. روي عن الإمام الصادق عن أبيه قال:

(أعرف منازل الشيعة على قدر رواياتهم ومعرفتهم، فإن المعرفة هي الدراية للرواية، وبالدراية للرواية يعلو المؤمن إلى أقصى درجات الإيمان.. إنني نظرت في كتاب لعلي فوجدت في الكتاب أن قيمة كل امرئ وقدره، معرفته الله تعالى يحاسب الناس على قدر ما أتاهم من العقول في دار الدنيا..)(٢).

فوعي الراوي للحديث ووقوفه على معناه مما يستدل به على سمو منزلته العلمية. وأحاديث الإمام الباقر عن جديه رسول الله (صلى الله عليه وآله) والإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) على قسمين: الأولى مرسلة، والثانية مسندة.

فالمرسلة: ينسب فيها الإمام الحديث رأساً إلى النبي (صلى الله عليه وآله) أو الإمام (عليه السلام) دون أن يذكر رجال السند. قال (عليه السلام):

(إذا حرفت بالحديث فلم أسنده فسندي فيه أبي زين العابدين عن أبيه الحسين الشهيد، عن أبيه علي بن أبي طالب عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) عن جبرائيل عن الله عز وجل..)(٣).
والمسندة: هي التي يذكر فيها سنده عن آبائه الطاهرين عن رسول الله (صلى الله عليه وآله). وسواء أكانت روايته مرسلة أم مسندة فهي حجة بلا خلاف.

أ . أحاديث الفقه:

١ . روى الإمام الباقر (عليه السلام) عن آبائه عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) أنه قال: (فضل العلم أحب إلى الله من فضل العبادة، وأفضل دينكم الورع) (٤) لقد فضل العلم على العبادة لأن العبادة لا ينتفع بها إلا صاحبها بينما العلم ينتفع به صاحبه والناس. كما حث على الورع عن محارم الله، فالورع يكون في أعلى مراتب التقى لأنه يكون قد تجنب السقوط في المآثم التي تؤدي إلى الانحراف عن الطريق القويم، ويصبح في وقاية تامة.

٢ . روى (عليه السلام) عن آبائه عن رسول الله أنه قال (صلى الله عليه وآله):

(ما جمع شيء إلى شيء أفضل من حلم إلى علم)(٥).

إن الاتصاف بالعلم أمر مهم لكن أقرانه بالحلم أمر أهم. لأن الحلم صفة حضارية عظيمة تفيد عن نضوج الإنسان الفكري وارتقائه في فهم الحياة الإنسانية الراقية. وسعادة الإنسان تكتمل في هذه الدنيا إذا أحسن استعمال علمه فسخره لسعادته وسعادة الآخرين. أما إذا اكتفى بالعلم دون الحلم فيصبح كالجاهل أو كالغني البخيل الذي يكتنز المال فلا يستفيد هو ولا يفيد غيره. أما جمع العلم إلى الحلم فإنهما يرفعا من مستوى الإنسان ويميزانه عن غيره من الناس.

٣ . وقال (عليه السلام): قال رسول الله (صلى الله عليه وآله):

(الإيمان معرفة بالقلب، وإقرار باللسان، وعمل بالأركان)(٦).

القلب هو مستودع الأسرار ولب الإنسان إن صلح صلح المرء وإن فسد فسد المرء والإيمان ليس لفظة يتقوه بها اللسان وإنما هو أمر مستقر في أعماق القلب، ودخائل النفس، يدفع بالإنسان إلى العمل عن يقين وإخلاص. وما اللسان إلا ترجمان عن القلب يتكلم بوحيه ويعمل بأمره. والترجمة الحقيقية عن القلب المؤمن واللسان النظيف، العمل بالأركان، فالعمل الصالح إفراس عن القلب الصالح.

. ب . الأحاديث الاجتماعية:

١. قال (عليه السلام) قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (رأس العقل بعد الإيمان بالله عز وجل التحبب إلى الناس)(٧).

حديث حكيم ورائع وجليل يجمع صفات عدة تصب كلها في نتيجة واحدة هي التحبب إلى الناس. ولا يحصل هذا إلا عن طريق السلوك الحسن والأخلاق الرفيعة والذوق الجليل في التعاطي مع الآخرين. فالتحبيب إلى الناس يتم بقضاء حوائجهم أو جلب الخير لهم، ودفع الظلم عنهم ومعاملتهم باللطف والإحسان. كل ذلك يوجب شيوع المحبة بين الناس ويربط الهيئة الاجتماعية بروابط الوثام والسلام.

٢ . وقال (عليه السلام) قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (ألا إن شرار أمتي الذين يكرمون مخافة شهرهم، ألا وإن من أكرمه الناس انتقاء شره فليس مني) (٨) ما رأوه بالأمس وما نراه اليوم إن شرار هذه الأمة هم الوجهاء والزعماء الذين يكرمون ويعظمون لا لفضيلة فيهم أو إحسان أسدوه إلى غيرهم، وإنما كان التكريم لاتقاء شرورهم ومخافة ظلمهم.

إن مثل هؤلاء الإسلام منهم براء وهم ليسوا منه في شيء لأن الإسلام جاء بالرحمة فالله عز وجل رحمان رحيم وأمرنا أن نرحم بعضنا والإسلام جاء بالعمل الصالح والإحسان إلى الناس جميعاً من كل عرق ولون. والإسلام أمر بالصدق في المعاملة الحسنة لا خوفاً من عقاب ولا طمعاً بمكافأة بل اندفاعاً من الذات لمن يستحقون.

٣ . وقال (عليه السلام) قال رسول الله (صلى الله عليه وآله):

(صنfan من أمتي إذا صلحا صلحت أمتي، وإذا فسدا فسدت أمتي، قيل يا رسول الله ومن هما؟ قال: الفقهاء والأمرأء..)(٩).

إن صلاح أي مجتمع وفي أي عصر يتوقف على صلاح هذين العنصرين فإذا صلحا فقد سعدت الأمة وازدهرت مرافقها وحققت كل ما تصبوا إليه من أهداف إنسانية سامية، أما إذا فسدا أو شذا عن سنن الحق وانحرفا عن طريق العدل والصواب أصيبت الأمة بتدهور سريع في جميع مجالاتها الاقتصادية والاجتماعية والأدبية والحضارية.

سئل أحد الفقهاء: كيف تقوم صلاح أمة من الأمم فقال:

تكون الأمة في أشقى حالاتها وأسوأ أحوالها عندما تجد فقهاءها على أبواب أمرائها وعلماءها على أبواب ملوكها.

فالعلماء الله عز وجل كرمهم وفضلهم ومنحهم منزلة اجتماعية عالية لا يضاهيها منزلة أخرى فقد وضعهم سبحانه بعد الأنبياء مباشرة وجعلهم ورثة لهم.

٤ . وقال (عليه السلام) قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (من واسى الفقير، وأنصف الناس من نفسه فذلك المؤمن حقاً)(١٠).

إن مؤاساة الفقراء واجب شرعي وعامل اجتماعي من خلاله تولد المحبة بين أفراد المجتمع وتتوثق الروابط الاجتماعية فيما بينهم. ومساعدة الفقراء قد تكون مادية وقد تكون معنوية وهي دليل واضح على قوة الإيمان وتكامله وحسن الأخلاق ونبلها. فالمؤمن هو أخ المؤمن يشاركه في السراء والضراء وقد أوصى الله عز وجل المؤمنين بمناصرة بعضهم (إنما المؤمنون أخوة فأصلحوا بين أخوانكم)(١١). ومن جانب آخر فإن إنصاف الناس آية على سمو الإنسان وتجرده من الأتانية وسائر الأمراض النفسية، وهو بلا ريب واقع الإيمان وجوهر الإسلام.

٥ . قال (عليه السلام) قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم)(١٢).

حكمة رائعة يرشح منها نور المحبة وصفاء الألفة، فتوحد بين مشاعر أفراد المجتمع الواحد وتزكي عواطفهم. وسلطان المال لا يمكنه وحده من تحقيق ذلك، لكن الأخلاق الحسنة هي أقوى مؤثر في بناء المجتمع الراقي وإقامته على أسس إنسانية سليمة.

٦ . قال (عليه السلام): قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (مجالسة أهل الدين شرف الدنيا والآخرة)(١٣).

يقول علماء الاجتماع أن الحياة الاجتماعية تأثر وتأثير فكل إنسان يتأثر بمن يعاشر ويؤثر فيمن حوله من رفاق وأصحاب وأهل. ومن الطبيعي أن مزاملة الأخبار من رجال الدين تؤثر فيمن يتصل بهم تأثيراً مباشراً فتصونهم من الرذائل والخبائث من الصفات وتحبب لهم الخير، وبذلك ينالون شرف الدين والآخرة.

الأحاديث التي رواها (عليه السلام) عن جده أمير المؤمنين (عليه السلام) روى الإمام الباقر (عليه السلام) طائفة من الحديث تعد حكماً خالدة عن جده أمير المؤمنين (عليه السلام) صاحب النهج وإمام البلاغة ومنهل الأدب، وعميد الفقه في التشريع الإسلامي. وهذه بعضها: أ . الأحاديث الفقهية:

١ . قال (عليه السلام): قال أمير المؤمنين (عليه السلام): (قوام الدين بأربعة: بعالم ناطق مستعمل له، وبغني لا يبخل بفضله على أهل دين الله، وبفقير لا يبيع آخرته بدنياه، وبجاهل لا يتكبر عن طلب العلم، فإذا كتم العالم علمه وبخل الغني بماله، وباع الفقير آخرته بدنياه، واستكبر الجاهل عن طلب العلم، رجعت الدنيا إلى ورائها القهقري. فلا تغرنكم كثرة المساجد وأجساد قوم مختلفة، قيل:

يا أمير المؤمنين كيف العيش في ذلك الزمان! قال (عليه السلام): (خالطوهم بالظاهر وخالفوهم في الباطن، للمرء ما اكتسب، وهو مع من أحب وانتظروا مع ذلك الفرغ من الله عز وجل)(١٤). هؤلاء الأصناف هم أركان الحياة فإذا قاموا بمسؤولياتهم وأدوا ما عليهم من واجب شرعي صلحت الدنيا وازدهرت الحياة وأخصبت ثمارها، وأما إذا انحرفوا عن ذلك فإن الحياة العامة يخبو بريقها وتضيق طرق العيش فيها ويصعب معاشره أفرادها وتصاب بتدهور وانحطاط في جميع مرافقها المثلثي وقيمها العليا.

٢. قال (عليه السلام): قال أمير المؤمنين (عليه السلام) يقول: (إن لأهل التقوى علامات يعرفون بها، صدق الحديث، وأداء الأمانة، والوفاء بالعهد، وقلة الفخر والبخل، وصلة الأرحام، ورحمة الضعفاء، وقلة المؤاتاة للنساء، وبذل المعروف، وحسن الخلق، وسعة الحلم، واتباع العلم، فيما يقرب إلى الله عز وجل، طوبى لهم وحسن مآب)(١٥). قال علماء اللغة إن التقوى هي الوقاية من الانزلاق في المآثم والتحصن من الوقوع في الأخطاء التي نهى عنها الدين القويم. وأهل التقوى قد وصفهم أمير المؤمنين بكلمة جامعة مانعة، موجزة شاملة كاملة. وكلها صفات إنسانية لا غنى لأي مسلم مؤمن عنها.

فالصدق صفة واجبة على كل إنسان وقد أمرنا الله بها في كتابه المبين. قال تعالى: (وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق)(١٦) وقال تعالى أيضاً: (فمن أظلم ممن كذب على الله وكذب بالصدق إذ جاءه، والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون)(١٧).

وأداء الأمانة ألزم بها الله عز وجل المؤمنين وقد وصف ذاته القدسية بالوفاء فقال تعالى: (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويُقتلون، وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله، فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم)(١٨).

فلا أحد أوفى بعهده ولا أصدق في إنجاز وعده، من الله جل جلاله.

وقلة الفخر ويعني التواضع:

والتواضع من الأخلاق الإسلامية النبيلة والفاضلة، وهو نعمة سماوية وهالة قدسية تحصن صاحبها بالجلالة والوقار ولذلك دعا الله عز وجل رسوله الكريم ليتواضع ويلين جانبه مع الناس. قال تعالى: (فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين)(١٩).

والبخل:

لقد حذر الله من البخل وأنب البخلاء وشجع على الكرم وأحب الكرماء، والفضل كله من عنده سبحانه وتعالى. قال عز وجل: (لا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله، هو خيراً لهم بل هو شر لهم

سيطوون ما بخلوا به يوم القيامة والله ميراث السماوات والأرض والله بما تعملون خبير)(٢٠).
وصلة الأرحام:

صلة الرحم شجرة طيبة جذعها الإيمان، وفروعها صفاء القلب، وثمارها المحبة وجمع الشمل وهي صفة إنسانية دعا إليها الإسلام لأنها ركن متين لتثبيت التآلف بين أفراد العائلة والأقارب، وقد دعا إليها الله عز وجل في كتابه العزيز وجعلها بمرتبة التقوى لأهميتها وسمو مكانتها. قال تعالى: (يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً)(٢١).
ورحمة الضعفاء:

فإذا كان الله تبارك وتعالى قد وصف نفسه بالرحمة الواسعة أفلا يطلب إلينا أن يترحم بعضنا بعضاً؟ لا ريب أن رحمة الضعفاء تعني مساعدتهم وإيمانيتهم والإحسان إليهم.
والإحسان صفة إنسانية تشمل كل أعمال الخير التي تهذب نفسية المرء وتقربه من خالقه. قال تعالى: (وأحسن كما أحسن الله إليك)(٢٢).
وبذل المعروف:

ولا ريب أن بذل المعروف صفة من صفات الإحسان إلى الناس فالمؤمنون أخوة وعلى الأخ أن يعمل المعروف بقدر طاقته من أجل غيره قرينة إلى الله تعالى. ولا يخفى أن اليد العليا خير من اليد السفلى على حد قول الرسول الأعظم والذي يعمل المعروف فكأنه يعمل لنفسه ليكسب الأجر والثواب. وقد رغب الله في الإتيان بالحسنات بقوله: (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها)(٢٣).
وحسن الخلق:

من آداب الإسلام الأخلاق النبيلة والسلوك الحسن مع الناس جميعاً. والله عز وجل أحب للإنسان المؤمن التخلق بالأخلاق الحسنة وقد وصف بها الرسول الأعظم. قال تعالى: (وإنك لعلى خلق عظيم)(٢٤).

وسعة الحلم واتباع العلم:

ما أفضل العلم إذا اقترن بالحلم فإنه غاية الرجاء في تحقيق المثل العليا في الحياة السعيدة الراقية. وقد وصف الله تعالى نفسه بالحليم. قال تعالى: (واعلموا أن الله غفور حلِيم)(٢٥).

كما وصف نبي الله إبراهيم الخليل بالحليم لسمو أخلاقه ونبل سلوكه وحسن معاملته وشدة صبره. قال تعالى: (إن إبراهيم لحليم أواه منيب)(٢٦).

والإنسان الحليم محبوب في مجتمعه سموح كريم لا يعرف الحقد لقلبه مكاناً ولا يحسد أحداً كبيراً كان أم

صغيراً، ولا يضمّر الشر لأحد قريباً كان أم بعيداً. يبادل الإساءة بالإحسان ويصبر على أذى الأصحاب والخلان لأن الناس في نظره كلهم عباد الله وأقربهم إليه أنفعهم لعباده.

إلى جانب حلمه هذا يسعى في اكتساب العلم لينفقه إلى المحتاجين ويهديهم إلى سواء السبيل قربه إلى الله تعالى.

فتأمل معي أيها الأخ المؤمن كيف يبدو لنا أمير المؤمنين من خلال هذا الحديث الكامل الشامل والجامع المانع الذي حوى كل الفضائل والمثل التي تقرب الإنسان من ربه وتعرفه على نعم خالقه، فأبي كلام بعد هذا يمكن أن نقول عن سيد الكلام الذي وصف الأدباء كلامه فقالوا: هو تحت كلام الخالق وفوق كلام المخلوق.

هذه الصفات التي عددها أمير المؤمنين هي صفات أهل التقوى من المسلمين المؤمنين: فطوبى لهم وحسن مآب!.

أما صفات العارفين فقد حددها أمير المؤمنين (عليه السلام) فقال:

(جمع الخير كله في ثلاث خصال: النظر، والسكون، والكلام، فكل نظر ليس فيه اعتبار فهو سهو، وكل سكون ليس فيه فكرة فهو غفلة، وكل كلام ليس فيه ذكر فهو لغو، فطوبى لمن كان نظره عبثاً، وسكوته فكرياً، وكلامه ذكرياً، وبكى على خطيئته وأمن الناس شره)(٢٧).

هذه الصفات لا يتصف بها إلا العارفين بربهم والمنيبين إلى خالقهم وهي لا تنطبق إلا على أهل البيت (عليهم السلام) وعلى المهتدين بهديهم.

فهم كما قال عنهم أمير المؤمنين (عليه السلام): (إن أهل البيت شجرة النبوة وموضع الرسالة، ومختلف الملائكة، وبيت الرحمة، ومعدن العلم)(٢٨).
ب . الأحاديث الاجتماعية:

١. قال الإمام الباقر (عليه السلام): قال أمير المؤمنين (عليه السلام): (الفتن ثلاث: حب النساء، وهو سيف الشيطان، وشرب الخمر، وهو مخ الشيطان، حب الدينار والدرهم وهو سهم الشيطان، فمن أحب النساء لم ينتفع بعيشه، ومن أحب الأشربة حرمت عليه الجنة، ومن أحب الدينار والدرهم فهو عبد الدنيا. وأضاف (عليه السلام): يقول: قال عيسى بن مريم بالدينار رداء الدين، والعالم طبيب الدين فإذا رأيتم الطبيب يجر الداء على نفسه فاتهموه، واعلموا أنه غير ناصح لغيره)(٢٩).

ولا ريب أن الوقاية من هذه الآفات الثلاث: سيف الشيطان، ومخ الشيطان وسهم الشيطان أفضل بكثير من الوقوع في أحوالها والتلوث بآثامها، وبذلك يكون الإنسان في وقاية من الشيطان، لأن هذا الخبيث يفتش عن أي فراغ ليدخل فيه ويفعل فعلته الشيطانية. أما المؤمن المتحصن بالإسلام فهو في وقاية من الشيطان، فلا يستطيع غوايته أو إبعاده عن الطريق السليم. لكن طبيب الدين الذي يجر الداء على نفسه

يكون الشيطان قد لعب لعبته الخبيثة معه وعلق في حباله، ولا فائدة عندها من علمه.
٢ . وقال (عليه السلام):

سئل أمير المؤمنين (عليه السلام) كم بين الحق والباطل؟ فقال (عليه السلام): أربع أصابع ووضع يده على أذنه وعينه وقال: ما رأته عينك فهو حق، وما سمعته أذناك فأكثره باطل (٣٠). فتأمل هذا المثل الواقعي الحسي، فعلى الإنسان المدرك العاقل أن لا يتكلم إلا بما يرى وليس بما يسمع وذلك للتأكد من صحة الكلام.

(١) ناسخ التواريخ ج ٢ ص ٢١٧.

(٢) ناسخ التواريخ ج ٢ ص ٢١٩.

(٣) أعلام الورى ص ٢٧٠.

(٤) الخصال ص ٤.

(٥) الخصال ص ٥.

(٦) نفسه ص ١٦٤.

(٧) نفسه ص ١٧.

(٨) الخصال ص ١٥.

(٩) نفسه ص ٣٦.

(١٠) نفسه ص ٤٧.

(١١) سورة الحجرات، الآية ١٠.

(١٢) أمالي الصدوق ص ١١.

(١٣) نفسه ص ٥٤.

(١٤) الخصال ص ١٨٠.

(١٥) نفسه ص ٤٥٤.

(١٦) سورة الإسراء، الآية ٨٠، ص ٥٠.

(١٧) سورة الزمر، الآية ٣٢ و٣٣.

(١٨) سورة التوبة، الآية ١١١.

(١٩) سورة آل عمران، الآية ١٥٩.

(٢٠) سورة آل عمران، الآية ١٨٠.

(٢١) سورة النساء، الآية ١.

(٢٢) سورة القصص، الآية ٧٧.

(٢٣) سورة الأنعام، الآية ١٦٠.

(٢٤) سورة القلم، الآية ٤.

(٢٥) سورة البقرة، الآية ٢٣٥.

(٢٦) سورة هود، الآية ٧٥.

(٢٧) الخصال ص ٩٥.

(٢٨) أصول الكافي ج ١ ص ٢٢٠.

(٢٩) الخصال ص ١٠٩.

(٣٠) نفسه ص ٢١٥.

العلم القرآني

قبل الخوض في تفسير الإمام (عليه السلام) للقرآن واهتمامه بهذا العلم، نحب أن نذكر عدة نقاط منها:
فضل قراءة القرآن

حث الإمام الباقر (عليه السلام) المؤمنين على تلاوة كتاب الله العزيز. لأنه المنبع الأصيل والدستور الدائم لهداية الناس واستقامتهم في حياتهم الفردية والاجتماعية. فالقرآن يحيي القلوب بنوره، ويمد قارئه بطاقات من الوعي ونشاط البصيرة إلى حد بعيد. وقد وردت أحاديث كثيرة في فضل قراءة القرآن. كتاب الله الذي وصفه رسول الله (صلى الله عليه وآله) فقال:

(فإن هذا القرآن حبل الله المتين فيه إقامة العدل، وينابيع العلم، وربيع القلوب)(١).

وحبل الله المتين طرف منه بيد الله عز وجل والطرف الآخر بيد العترة الطاهرة أهل بيت الرسول (صلى الله عليه وآله)(٢). وبذلك يصبح القرآن عصمة للمعتصمين، ونوراً للمستضيئين.
والقرآن ينابيع العلم: لأنه يبين للناس أبواب العلم وطرقه، ويفتقه من أكمته (٣) وقد شبهه بينابيع الماء المنفجرة، وعيونه المستنبطة ولأن العلم يحي الغليل بعد الشك المحير، كما يبرد الماء الغلة بعد العطش المبرح.

والقرآن ربيع القلوب: فالقلوب الواعية هي بمنزلة الربيع للإبل الراعية لأن القلوب تنتفع بتدبر القرآن وتأمله، كما تنتفع الإبل بتحمض الربيع وتنقله (٤). فهذا غذاء للأرواح وذلك غذاء للأجسام. لذلك كله دعا الإمام (عليه السلام) إلى تلاوة القرآن فروى (عليه السلام) ما قاله جده رسول الله (صلى الله عليه وآله) في فضل تلاوته.

قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): من قرأ عشر آيات في ليلة لم يكتب من الغافلين، ومن قرأ خمسين آية كتب من الذاكرين، ومن قرأ مائة آية كتب من القانتين، ومن قرأ مائتي آية، كتب من الخاشعين، ومن قرأ ثلاثمائة آية كتب من الفائزين ومن قرأ خمسمائة آية كتب من المجتهدين، ومن قرأ

ألف آية كتب له فنطار من تير(٥).

كما وردت أحاديث مماثلة لهذا الحديث عن أئمة أهل البيت (عليهم السلام) وكلها تحت المسلمين على تلاوة كتاب الله وتحفزهم على الإمعان في آياته والتأمل في أسرارها، ولا ريب أنها كلها تصب في تنمية العقول وتهذيب النفوس وإبعادها عن الانحراف عن الخط الإسلامي، وهدايتها إلى سواء السبيل.

ترتيل القرآن الكريم

إن تلاوة القرآن وترتيبه بصوت حسن يتفاعل مع عواطف الإنسان وينفذ إلى أعماق القلوب، وذلك لما اشتمل عليه من الحكم الخالدة والمعارف العامة التي يحتاجها كل إنسان في حياته الفردية والاجتماعية على حد سواء.

وقد اعتنى أهل البيت بتلاوة القرآن الكريم وشجعوا على ذلك فكان الإمام الباقر من أحسن الناس صوتاً بقراءته للقرآن. روى أبو بصير قال: قلت لأبي جعفر إذا قرأت القرآن فرفعت صوتي جاءني الشيطان فقال: إنما تراني بهذا أهلك والناس، فقال (عليه السلام): يا أبا محمد اقرأ قراءة ما بين القراءتين تسمع أهلك، ورجع بالقرآن صوتك فإن الله يحب الصوت الحسن يرجع فيه ترجيحاً(٦).

المحرفون للقرآن الكريم

لقد ذم الإمام الباقر المحرفين لكتاب الله، وهم الذين يؤولون آياته حسب أهوائهم. فقد كتب (عليه السلام) في رسالته إلى سعد الخير: (وكان من نبذهم الكتاب أن أقاموا حروفه، وحرفوا حدوده، فهم يرونه ولا يراعونه والجهال يعجبهم حفظهم للرواية، والعلماء يحزنهم تركهم للرعاية)(٧). ومن ذلك التحريف استعمالهم المجاز في غير ما هو له:

شاع المجاز في لغة العرب كالاستعارات والكنائيات والمجازات وكلها تعتبر من لطائف هذه اللغة ومحاسنها. وفي القرآن الكريم طائفة كبيرة من الآيات الكريمة كان الاستعمال فيها مجازياً. منها قوله تعالى: (قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيديّ أستكبرت أم كنت من العالين)(٨). فالمنصرف من اليد هو العضو المخصوص ويستحيل ذلك عليه سبحانه وتعالى. فسأل محمد بن مسلم الإمام الباقر (عليه السلام) عن ذلك فأجابه: (اليد في كلام العرب تعني القوة والنعمة من ذلك قوله عز وجل: (واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولي الأيدي والأبصار)(٩) (والسما بنيناها بأيدي)(١٠) أي بقوة. وقال: (وأيدهم بروح منه) ويقال لفلان عنيد أياد كثيرة أي فواضل وإحسان وله عندي يد بيضاء أي نعمة). (واليد العليا خير من اليد السفلى) أي النعمة من العاطي إلى المعطى.

فاليد هنا كما نرى استعملت في غير معناها المنصرف فجاء مجازاً وقد تأتي حقيقة على أنها مشتركة اشتراكاً لفظياً في هذه المعاني الذي ذكرها الإمام (١١).

البسمة هي جزء من سور القرآن الكريم

ذهب أهل البيت ومعهم الإمام الباقر (عليه السلام) إلى أن البسملة جزء من سور القرآن الكريم، وتبعهم جمهور غفير من علماء المسلمين وقراؤهم (١٢). كتب يحيى بن أبي عمران رسالة إلى الإمام الباقر (عليه السلام) يقول فيها: (جعلت فداك ما تقول في رجل ابتداءً بسم الله الرحمن الرحيم في صلاته وحده في أم الكتاب، فلما صار إلى غير أم الكتاب من السورة تركها؟ فأجابه (عليه السلام) برسالة جاء فيها: (يعيدها مرتين) (١٣) ثم عمت الأخبار عند الجميع بجزئيتها ومن أنكر ذلك فقد شذ وأخطأ.

تفسير القرآن الكريم

سلك المفسرون للقرآن الكريم عدة اتجاهات وطرقاً مختلفة منها: التفسير بالمأثور، والتفسير بالرأي.

أ . التفسير بالمأثور:

وعني هذه الطريقة بما أثر عن النبي (صلى الله عليه وآله) وأئمة الهدى، وهذا ما سلكه أغلب مفسري الشيعة كتفسير: القمي والعسكري، والبرهان وغيرها. وحجتهم في ذلك أن أهل البيت (عليهم السلام) هم المختصون بعلم القرآن على حقيقته وواقعه، وليس لغيرهم في ذلك نصيب كبير أو صغير. فالأوصياء بلا شك هم الذين عندهم علم الكتاب، ظاهره وباطنه. وقد تضافرت الأدلة بوجوب الرجوع إليهم في تفسير القرآن. يقول الشيخ الطوسي: إن تفسير القرآن لا يجوز إلا بأثر الصحيح عن النبي (صلى الله عليه وآله) وعن الأئمة الذين قولهم حجة كقول النبي (صلى الله عليه وآله) (١٤).

ب . التفسير بالرأي:

وتعني هذه الطريقة بالاعتبارات العقلية الظنية الراجعة إلى الاستحسان (١٥).

وقد ذهب إلى ذلك المفسرون من المعتزلة والباطنية، فلم يعنوا بما أثر عن النبي (صلى الله عليه وآله) ولا عن أوصياء رسول الله (صلى الله عليه وآله) وإنما استندوا إلى ما رأوه من الاستحسانات العقلية. وقد نهى عن ذلك الإمام الباقر (عليه السلام). وقد دخل عليه الفقيه المعروف قتادة فقال له الإمام (عليه السلام):

أنت فقيه أهل البصرة؟ (نعم هكذا يزعمون).

بلغني أنك تفسر القرآن. (نعم).

فأنكر الإمام عليه ذلك وقال له:

(يا قتادة إن كنت قد فسرت القرآن من تلقاء نفسك فقد هلكت وأهلك، وإن كنت قد فسرت من الرجال فقد

هلكت وأهلك، يا قتادة: ويحك إنما يعرف القرآن من خوطب به) (١٦).

فالإمام الباقر قصر معرفة الكتاب العزيز على أهل البيت (عليهم السلام) فهم المؤهلون لمعرفة المحكم

من المتشابه، والناسخ من المنسوخ وليس عند غيرهم هذا العلم. وقد أثر عن الأئمة (عليهم السلام)

القول: (إنه ليس شيء أبعد من عقول الرجال من تفسير القرآن الآية يكون أولها في شيء وآخرها في شيء، وهو كلام متصل ينصرف إلى وجوه)(١٧).

أما الأخذ بظواهر القرآن فلا يعد من التفسير بالرأي المنهى عنه، وقد خالف في حجبها بعض المحدثين، وتمسكوا بأدلة قد وضحت من قبل الأصوليين (١٨).

ج. تفسير الإمام الباقر (عليه السلام):

والآن ما يهمنا هو تفسير الإمام الباقر. هذا التفسير نص عليه ابن النديم في (الفهرست) عند عرضه للكتب المؤلفة في تفسير القرآن الكريم. فقال: (كتاب الباقر محمد بن علي بن الحسين رواه عنه أبو الجارود زياد بن المنذر رئيس الجارودية) وقال السيد حسن الصدر: رواه عنه جماعة من ثقات الشيعة منهم أبو بصير يحيى بن القاسم الأسدي، وأخرجه علي بن إبراهيم القمي في تفسيره (١٩).

نماذج من تفسير الإمام (عليه السلام)

روى المفسرون الكثير من تفسير آيات القرآن الكريم عن الإمام (عليه السلام) وسوف نورد بعضاً منها على سبيل الذكر:

١. قال تعالى: (أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاماً)(٢٠). قال (عليه السلام): (الغرفة: هي الجنة وهي جزء لهم بما صبروا على الفقر في الدنيا)(٢١).

٢. وقال تعالى: (ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى)(٢٢).

سئل الإمام (عليه السلام) عن غضب الله؟ فقال (عليه السلام) (طرده وعقابه)(٢٣).

٣. وقال تعالى: (واني لغافر لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى)(٢٤). فسر (عليه السلام) الهداية بالولاية لأئمة أهل البيت وقال: فوالله لو أن رجلاً عبد الله عمره ما بين الركن والمقام، ولم يجيء بولايتنا إلا أكبه الله في النار على وجهه)(٢٥).

٤. وقال تعالى: (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك)(٢٦). قال: يعني بذلك تبليغ ما أنزل إلى الرسول (صلى الله عليه وآله) في فضل علي. وقد روى (عليه السلام) أن الله عز وجل أوحى إلى نبيه أن يستخلف علياً فكان يخاف أن يشق على جماعة من أصحابه فأنزل الله تعالى هذه الآية تشجيعاً له على القيام بما أمره الله بأدائه (٢٧).

٥. وقال تعالى: (بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم)(٢٨). سئل الإمام (عليه السلام) عن (الذين أوتوا العلم) فقال: هم أئمة أهل البيت (عليهم السلام)(٢٩) وروى أبو بصير أن الإمام (عليه السلام) قرأ هذه الآية وأوماً إلى صدره (٣٠).

٦. وقال تعالى: (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم

سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير)(٣١) سأل سالم الإمام (عليه السلام) عن هذه الآية فقال (عليه السلام):

الظالم لنفسه: الذي لا يعرف الإمام. والمقتصد العارف للإمام. والسابق بالخيرات: الإمام (٣٢).
وروى زياد بن المنذر عنه (عليه السلام) أنه قال: أما الظالم لنفسه فمن عمل صالحاً وآخر سيئاً، وأما المقتصد فهو المتعبد المجتهد، وأما السابق بالخيرات فعلي والحسن والحسين ومن قتل من آل محمد (صلى الله عليه وآله) شهيداً (٣٣).

٧. وقال تعالى: (فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيماً)(٣٤).
سأل بريد العجلي الإمام (عليه السلام) عن هذه الآية؟ فقال (عليه السلام): جعل في آل إبراهيم الرسل والأنبياء والأئمة فكيف يقرونه في آل إبراهيم وينكرونه في آل محمد (صلى الله عليه وآله)؟ قال بريد: وما المراد (وآتيناهم ملكاً عظيماً) قال (عليه السلام): (الملك العظيم أن جعل فيهم أئمة من أطاعهم أطاع الله ومن عصاهم عصى الله فهو الملك العظيم)(٣٥).
وقال تعالى: (ونفخت فيه من روحي)(٣٦).
سئل (عليه السلام) عن الروح فقال: هي القدرة (٣٧).
٨. وقال تعالى: (لولا أن رأى برهان ربه)(٣٨).

قال (عليه السلام): لجابر الجعفي ما يقول فقهاء العراق في هذه الآية؟ قال الإمام (عليه السلام):
حدثني أبي عن جدي علي بن أبي طالب أن البرهان الذي رآه أنها حين همت به هم بها أي طمع فيها، فقامت إلى صنم مكلل بالدر والياقوت في ناحية البيت فسترته بثوب أبيض خشية أن يراها أو استحياءً منه، فقال لها يوسف: ما هذا؟ فقالت: إلهي أستحي منه أن يراني على هذه الصورة، فقال يوسف: تستحي من صنم لا ينفع ولا يضر، ولا يبصر، أفلا أستحي أنا من إلهي الذي هو قائم على كل نفس بما كسبت. ثم قال: والله لا تنالي مني أبداً، فهو البرهان (٣٩).

٩. وقال تعالى: (وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماءً غدقاً)(٤٠).
قال (عليه السلام): يعني لو استقاموا على ولاية علي بن أبي طالب أمير المؤمنين والأوصياء من ولده، وقبلوا طاعتهم في أمرهم ونهيهم لأسقيناهم ماءً غدقاً يعني أشرينا قلوبهم بالإيمان. والطريقة: هي الإيمان بولاية علي والأوصياء (٤١).

١٠. وقال تعالى: (هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولوا الألباب)(٤٢).
قال (عليه السلام): (نحن الذين يعلمون وعدونا الذين لا يعلمون وشيعتنا أولوا الألباب)(٤٣). وقال تعالى: (فككبوا فيها هم والغاؤون)(٤٤). والمراد من الآية أن الغاوين والقوى الكافرة يجمعون ويطرحون في النار. قال الإمام (عليه السلام): إنها نزلت في قوم وصفوا عدلاً بألسنتهم ثم خالفوه إلى غيره (٤٥).

- (١) المجازات النبوية للشريف الرضي ص ٢٢٢.
- (٢) راجع خطبة الرسول (صلى الله عليه وآله) يوم الغدير (إني تارك فيكم الثقلين القرآن وعترتي).
- (٣) الأكمة غطاء النور الذي يخرج النبات.
- (٤) الحمض: ما ملح ومر من النبات وهو كفاكهة للإبل.
- (٥) البيان في تفسير القرآن ص ٢٥.
- (٦) نفسه ص ٢١٠ وراجع أصول الكافي للكليني.
- (٧) الوافي ص ٢٧٤ آخر كتاب الصلاة.
- (٨) سورة ص، الآية ٧٥.
- (٩) سورة ص، الآية ٤٥.
- (١٠) سورة الذاريات، الآية ٧٧.
- (١١) سورة المجادلة، الآية ٢٢.
- (١٢) تفسير الألوسي ج ١ ص ٣٩ وكذلك الشوكاني ج ١ ص ٧.
- (١٣) فروع الكافي ج ٣ ص ٣١٢ ومعنى قوله (عليه السلام) مرتين: يعني أنه كرر لفظ الإعادة من باب التوكيد.
- (١٤) التبيان ج ١ ص ٤.
- (١٥) فرائد الأصول للأصاري.
- (١٦) البيان في تفسير القرآن ص ٢٦٧.
- (١٧) فرائد الأصول ص ٢٨.
- (١٨) يراجع في ذلك فرائد الأصول للشيخ الأنصاري والبيان في تفسير القرآن.
- (١٩) راجع تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام ص ٣٢٧ الفهرس للشيخ الطوسي ص ٩٨.
- (٢٠) سورة الفرقان، الآية ٧٥.
- (٢١) البداية والنهاية ج ٩ ص ٣٠١.
- (٢٢) سورة طه، الآية ٨١.
- (٢٣) الفصول المهمة ص ٢٢٧.
- (٢٤) سورة طه، الآية ٨٢.
- (٢٥) مجمع البيان ج ٤ ص ٢٢٣.
- (٢٦) مجمع البيان ج ٤ ص ٢٢٣ وقد روى المفسرون أن هذه الآية نزلت على النبي في غدير خم عندما

أعلن أن الولاية لعلي بعده.

(٢٧) سورة المائدة، الآية ٦٧.

(٢٨) سورة العنكبوت، الآية ٤٩.

(٢٩) مجمع البيان ج ٧ ص ٢٨٨.

(٣٠) أصول الكافي ج ١ ص ٢١٢.

(٣١) سورة فاطر، الآية ٣٢.

(٣٢) أصول الكافي ج ١ ص ٢١٤.

(٣٣) مجمع البيان ج ٧ ص ٣٠٩.

(٣٤) سورة النساء، الآية ٥٤.

(٣٥) أصول الكافي ج ١ ص ٢٠٦.

(٣٦) سورة الحجر، الآية ٢٩.

(٣٧) تفسير البرهان ص ٥٥٨.

(٣٨) سورة يوسف، الآية ٢٤.

(٣٩) البداية والنهاية ج ٩ ص ٣١٠.

(٤٠) سورة الجن، الآية ١٦.

(٤١) أصول الكافي ج ١ ص ٢٢٠.

(٤٢) سورة الزمر، الآية ٩.

(٤٣) أصول الكافي ج ١ ص ٢١٢.

(٤٤) سورة الشعراء، الآية ٩٤، وكبكبوا: ألقوا على وجوههم مراراً.

(٤٥) أصول الكافي ج ١ ص ٤٧.

علم الإمام في علم الكلام

من العلوم التي خاض في غمارها الإمام الباقر المسائل الكلامية التي ألقاها في كثير من محاضراته، فسألوه عن أعقد المسائل وأدقها في بحر هذا العلم فأجاب عنها. ومما يجدر ذكره أن عصر الإمام كان من أكثر العصور الإسلامية امتداداً في الفتح الإسلامي فانضوى تحت لواء الإسلام أغلب المناطق وشتى شعوب الأرض من كل عرق ولون مما أثار موجة من الحقد والحسد في نفوس المعادين للإسلام من الشعوب المغلوبة على أمرها فقاموا بحملة تشويش ضد العقيدة الإسلامية فزرعوا الشكوك بين أبناء المسلمين وأخلوا الأوهام إلى قلوبهم من خلال الفرق الإسلامية.

والذي شجع على ذلك في اعتقادنا الحكومات الأموية التي حملت عبر أغلب حكامها أفكاراً معادية

للإسلام، والناس على دين ملوكهم في كل زمان. فلم يؤثر عن أي واحد من ملوك بني أمية إن قاوم هذه الادعاءات ومنع نشرها بين المسلمين ولم نعرف أحداً انبرى مجاهداً إلى إنقاذ المسلمين في ذلك العصر سوى الإمام الباقر (عليه السلام) ابن العترة الطاهرة المكلفة شرعاً لمقاومة الظالمين وحماية الدين. فقد تصدى إلى تزيف هذه الترهات ببالغ الحجة والبرهان وسنعرض بعض هذه البحوث الكلامية التي خاضها الإمام (عليه السلام). وأولها:

التوحيد:

كشف الإمام الغطاء عن أهم مسائل التوحيد فشرحها وفند ما أثير حولها من أوهام وشكوك، ومن بين ما عرض له.

١ . عجز العقول عن إدراك حقيقة الله:

من المتفق عليه عند أولى البصيرة أن الإنسان مهما ملك من طاقات فكرية فإنه عاجز عن معرفة حقيقة الله جل وعلا. لأن هذه العقول المحدودة القدرة عاجزة عن ذلك في جميع تصوراتها. وإن للعقل حداً ينتهي إليه كما أن للبصر حداً ينتهي إليه وكذلك حال جميع الحواس البشرية. فلا يستطيع العقل أن يتخيل موجودات لا مكان لها، أو أشياء لا يجري عليها الزمان ولا المكان فإنه تعالى هو الذي خلقهما.

وفي الكون أمور كثيرة عجز العقل عن الإحاطة بكنهها وبقيت خافية على العقل الذي لم يهتد إلى معرفتها.

إن ذات الله تعالى لا تدركها أوهام القلوب وتعجز العقول عن إدراكها بالعين المجردة. وقد أدلى بذلك الإمام الباقر (عليه السلام) عندما سئل: (لا تدركه الأبصار، وهو يدرك الأبصار) (١) فقال (عليه السلام): (أوهام القلوب أدق من أبصار العيون، أنت قد تدرك بوهمك السند والهند والبلدان التي لم تدخلها، ولا تدركها ببصرك، وأوهام القلوب لا تدركه فكيف أبصار العيون؟) (٢). إن البصر ينقلب خاسئاً وهو حسير في تصويره لذات الله تعالى خالق الكون وواهب الحياة. جاء في شرح النهج:

فيك يا أعجوبة الكون غدا الفكر عليلاً

كلما أقدم فكري فيك شبراً فرّ ميلاً

أنت حيرت ذوي اللب وبلبلت العقولاً (٣)

فذات الله تعالى بعيدة الإدراك جداً، تمتنع على العقول وتعجز من أن تلم بأي جانب من جوانبها. ولما سئل الإمام الباقر (عليه السلام) عن الله تعالى من سائل قال له: إني أتوهم شيئاً فقال (عليه السلام): (نعم غير معقول ولا محدود، فما وقع وهمك عليه من شيء فهو خلافه، ولا يشبهه شيء، ولا تدركه الأوهام، وهو خلاف ما يعقل، وخلاف ما يتصور، إنما يتوهم شيء، غير معقول ولا محدود) (٤).

ومن البحوث الكلامية والفلسفية التي عرضت على الإمام الباقر (عليه السلام):

٢ . أزلية واجب الوجود:

سأله أحدهم قائلاً له: أخبرني عن ربك متى كان؟

فأجابه (عليه السلام): (ويلك إنما يقال لشيء لم يكن، متى كان؟! إن ربي تبارك وتعالى كان ولم يزل حياً بلا كيف، ولم يكن له كان، ولا كان لكونه كون كيف، ولا كان له أين، ولا كان في شيء ولا كان على شيء، ولا ابتدع لمكانه مكاناً، ولا قوي بعدما كوّن الأشياء، ولا كان ضعيفاً قبل أن يكون شيئاً، ولا كان مستوحشاً قبل أن يبتدع شيئاً، ولا يشبه شيئاً مذكوراً، ولا كان خلواً من الملك قبل إنشائه، ولا يكون منه خلواً بعد ذهابه، لم يزل حياً بلا حياة، وملكاً قادراً قبل أن ينشئ شيئاً، ولا ملكاً جباراً بعد إنشائه للكون، فليس لكونه كيف ولا له أين، ولا له حد، ولا يعرف بشيء شبيهه، ولا يهرم لطول البقاء ولا يصعق لشيء، بل لخوفه تصعق الأشياء كلها (٥) كان حياً بلا حياة حادثة، ولا كون موصوف ولا كيف محدود ولا أين موقوف عليه، ولا مكان، جاور شيئاً، بل حي يعرف، وملك لم يزل له القدرة والملك، إن شاء ما شاء حين شاء بمشيئته، ولا يحد ولا يبغض، ولا يفنى، كان أولاً بلا كيف ويكون آخراً بلا أين، وكل شيء هالك إلا وجهه، له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين.

ثم تابع (عليه السلام) قائلاً للسائل: ويلك أيها السائل وإن ربي لا تغشاه الأوهام، ولا تنزل به الشبهات، ولا يحار، ولا يجاوزه شيء، ولا تنزل به الأحداث، ولا يسأل عن شيء، ولا يندم على شيء، ولا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السماوات وما في الأرض وما بينهما، وما تحت الثرى(٦).

وكما ترى في هذه القطعة الذهبية عرض الإمام (عليه السلام) لأدق المسائل الكلامية التي لم يتطرق إليها أحد من متكلمي المسلمين وفلاسفتهم سوى جده الإمام علي (عليه السلام) أمير المؤمنين. أما إذا أردنا الإحاطة بكلام الإمام (عليه السلام) فإننا نحتاج إلى وقت طويل ودراسة مفصلة. ومن فلاسفة الإسلام الذين عنوا بالاستدلال على النقاط التي وردت في حديث الإمام الفيلسوف صدر الدين الشيرازي (٧).

٣ . النهي عن الكلام في ذات الله:

نهى الإمام الباقر عن الكلام في ذات الله تعالى لأن ذلك يوقع أصحاب العقول البسيطة في حائل الشيطان ويخرجهم من حظيرة الإيمان إلى حظيرة الشيطان. ومن أراد أن يتعرف على الخالق فيتأمل في مخلوقاته. قال الإمام (عليه السلام):

(تكلموا في خلق الله، ولا تتكلموا في الله فإنه لا يزداد صاحبه إلى تحيراً)(٨).

إن الحديث عن ذات الله لا يزيد الإنسان إلا تحيراً ويوقع به في المهالك والشبهات، أما التفكير في مخلوقات الله، والتأمل في صناعة هذا الكون العجيب فإنه يدعو بلا ريب إلى حتمية الإيمان بالله. فتأمل

مختلف المخلوقات من حيوانات مختلفة الشكل واللون والعرق فكل منها بحسب صنعته وتركيبه ليعيش ويستمر في الحياة ويعطي مثله قبل الموت. فكل ذلك يدل على قدرة الخالق العظيم جل شأنه. وتأمل الإنسان بكل ما فيه من أجهزة كل منها يعمل في حقله المخصص له على أكمل وجه من أجل أن يقوم جسم الإنسان قياماً ميموناً بوظيفته في الحياة. قال تعالى:

(وصوركم فأحسن صوركم وإليه المصير)(٩). والذين قالوا بأن هذه العوالم وجدت من باب الصدفة هم واهمون منحرفون لأنه ليس من باب الصدفة وجدت السيارة والطيارة والتلفزيون... بل أوجدها الفكر والعلم.

٤ . علم الله:

لقد أحاط الله تعالى بكل شيء علماً وعلمه بالأشياء قبل وقوعها وبعد تكوينها. قال في ذلك الإمام الباقر (عليه السلام): (كان الله عز وجل ولا شيء غيره، ولم يزل عالماً بما يكون، فعلمه به قبل كونه كعلمه به بعد كونه)(١٠). قال تعالى: (إن الله عالم غيب السماوات والأرض إنه عليم بذات الصدور)(١١) وقال تعالى أيضاً: (إن ربك عليم حكيم)(١٢).

٥ . صفات الله:

إن صفات الخالق العظيم ورب العالمين هي عين ذاته، وليس بينهما تعدد حسب ما دلت عليه في علم الكلام. وقد قامت فرقة من أهل العراق وضلت عن طريق الحق وأشاعت أن الله تعالى يسمع بغير ما يبصر، ويبصر بغير الذي يسمع شأنه في ذلك شأن مخلوقاته وقد عرض ذلك محمد بن مسلم على الإمام الباقر فقال (عليه السلام): (كذبوا وألحدوا، وشبهوا، تعالى الله عن ذلك إنه سميع بصير يسمع بما يبصر، ويبصر بما يسمع).

فقال السائل: يزعمون أن بصير على ما يعقلونه، فرد (عليه السلام) مزاعمهم وقال: (تعالى الله، إنما يعقل ما كان بصفة المخلوق، وليس الله كذلك)(١٣).

٦ . واقع التوحيد:

طلب جابر بن يزيد الجعفي من الإمام أن يحدثه شيئاً عن التوحيد فقال (عليه السلام): (إن الله تباركت أسماؤه التي يدعى بها وتعالى في علو كنهه.. واحد توحيد بالتوحيد في توحده، ثم أجره على خلقه، فهو واحد صمد، قدوس يعبده كل شيء ويصمد إليه كل شيء، ووسع كل شيء علماً)(١٤).

٧ . الشك والجحود:

الذي يشك في وجود الله تعالى، خالق الكون وفاطر السماوات والأرض، ينعكس عليه جحوده فلا يقبل أي عمل يصدر عنه ولو كان خيراً، وطلبه من صاحب العزة مرفوض مردود، ولا ينفعه يوم حشره ونشره أي دعاء. وقد وصف هؤلاء الله تعالى فقال: (الذين اتخذوا دينهم لهواً ولعباً وغرتهم الحياة الدنيا فاليوم

ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا وما كانوا بآياتنا يجحدون)(١٥) وقال الإمام الباقر (عليه السلام): (لا ينفع مع الشك والجحود عمل)(١٦).

- (١) سورة الأنعام، الآية ١٠٣.
 - (٢) نسب هذا الحديث أيضاً إلى الإمام الجواد.
 - (٣) شرح النهج لابن أبي الحديد ج ١٣ ص ٥١.
 - (٤) أصول الكافي ج ١ ص ٨٢.
 - (٥) يصعق: أي يهلك.
 - (٦) أصول الكافي ج ١ ص ٨٩.٨٨.
 - (٧) عرض صدر الدين الشيرازي الفيلسوف الإسلامي الكبير لهذه النقاط في كتابه: (الشواهد الربوية).
 - (٨) أصول الكافي ج ١ ص ٩٢.
 - (٩) سورة التغابن، الآية ٣.
 - (١٠) أصول الكافي ج ١ ص ١٠٧.
 - (١١) سورة فاطر، الآية ٣٨.
 - (١٢) سورة يوسف، الآية ٦.
 - (١٣) أصول الكافي ج ١ ص ١٠٨.
 - (١٤) نفسه ج ١ ص ١٢٣.
 - (١٥) سورة الأعراف، الآية ٥١.
 - (١٦) جامع السعادات ج ١ ص ١١٧.
- علم الفقه عند الإمام الباقر (عليه السلام)

منذ فجر التاريخ حتى اليوم آمن الشيعة بأن أئمة أهل البيت (عليهم السلام) قد وهبهم الله العلم والحكمة وفصل الخطاب، كما وهب أنبياءه الكرام ورسله العظام. (ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء) وأكد هذا العلم المؤرخون والرواة فقالوا: كان أئمة أهل البيت يملكون طاقات هائلة من العلوم والمعارف لم يملك مثلها أحد من الناس، وقد فاقوا بمواهبهم جميع العلماء الذين عاصروهم والأدلة على ذلك متوفرة وكثيرة. يكفي أن نذكر سيد العترة الطاهرة الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) الذي أعلن من على منبر الكوفة: (سلوني قبل أن تفقدوني، سلوني عن طرق السماء فإني أعلم بها من طرق الأرض) فعلمه (عليه السلام) قد تجاوزت شؤون هذا الكوكب الذي يعيش عليه الإنسان إلى شؤون الكواكب والفضاء. علي صاحب نهج البلاغة أثرى كتاب عالمي عرفته الإنسانية بعد القرآن الكريم وباب مدينة علم الرسول

(صلى الله عليه وآله) ووصيه فاق جميع علماء الدنيا في مواهبه وعلومه.

وعلى هذا الطراز من سعة العلم وغزارة المعرفة كان سائر الأئمة الطاهرين من بعده. وقد اعترف ابن خلدون بهذه الظاهرة لأئمة أهل البيت (عليهم السلام) فقال: (وإذا كانت الكرامة تقع لغيرهم فما ظنك بهم علماً وديناً، وآثاراً من النبوة، وعناية بالأصل الكريم تشهد لفروعه الطيبة، والشريعة قد قررت أن البشر محجوبون عن الغيب إلا من أطلعه الله عليه من عنده في ولاية، وقد وقع لجعفر وأمثاله من أهل البيت كثير من ذلك مستندهم فيه والله اعلم الكشف بما كانوا من الولاية، فهم أولى الناس بهذه الرتب الشريفة والكرامات الموهوبة)(١).

أما علم الفقه فقد أخذ معظمه من الإمامين الإمام الباقر وولده الإمام الصادق (عليهما السلام) وقد حفلت موسوعات الفقه بالروايات الكثيرة التي أثرت عنهما، وما زالت يرجع إليها فقهاء الإمامية في استنباطهم الأحكام الشرعية، وفي إصدارهم الفتاوى.

لقد جهد الإمام الباقر وولده الإمام الصادق (عليهما السلام) على نشر الفقه الإسلامي وشرحه وتبينه بصورة إيجابية تفصيلية في زمن كان المجتمع الإسلامي غارقاً في الأحداث السياسية المؤلمة والثورات الداخلية الدامية. مما جعل الحكومات تهمل الشؤون الدينية إهمالاً تاماً، وتعد الشعوب الإسلامية تفقه من أمور دينها لا الكثير ولا القليل. فالحكام والعلماء والشعب لم يعد لديهم المعرفة في أمور الدين، حتى في العبادات باتوا يتأرجحون ولا يجزموا في أمور دينهم من صوم وحج وصلاة وغير ذلك من ذلك ما روي أن ابن عباس خطب في نهاية شهر رمضان على منبر البصرة فقال: (أخرجوا صدقة صومكم). فكان الناس لا يعلمون كيف ذلك. فقال: من هنا من أهل المدينة قوموا إلى إخوانكم فعلموهم، فإنهم لا يعلمون من زكاة الفطرة الواجبة شيئاً (٢).

والحقيقة أنه في عصر بني أمية كان الحكام لا يهتمون بأمر الدين بل كان همهم الوحيد تثبيت دعائم الحكم والبدخ والتترف والحياة الدنيا ولم يكن يعرف من هذه الشؤون الدينية إلا أهل المدينة وحدهم (٣) فالدور المشرق في ذلك الزمن المظلم والظالم كان للإمام الباقر والإمام الصادق (عليهما السلام) فقد عمداً إلى نشر الفقه الإسلامي وبيان أحكام الشريعة الإسلامية فكان لهم الفضل الجليل في العالم الإسلامي ولولاها لخسر المسلمون أعظم ثروة دينية لهم. فكان والحالة هذه أن أسرع أبناء الصحابة ورؤساء المذاهب الإسلامية كأبي حنيفة ومالك وغيرهما إلى الأخذ من علوم الإمامين وكان لمدرستهما الفضل في حفظ الثروة الدينية من الضياع، ولالإمام الباقر الدور المشرق في المحافظة على نضارة الإسلام. يقول مصطفى عبد الرزاق: (من المعقول أن يكون النزوع إلى تدوين الفقه كان أسرع إلى الشيعة لأن اعتقادهم العصمة في أئمتهم فكان حرياً إلى تدوين أقضيتهم وفتاواهم)(٤).

وبذلك ساهم الشيعة في بناء فقه الصرح الإسلامي وثوراته الدينية.

من غرر حواراته

مع رجل قدري:

ابتلي المسلمون في ذلك الوقت برجل من القدرية أفسد عليهم دينهم، ولم يقدرُوا على رد تخرصاته وإبطال مزاعمه، فرأى عبد الملك أن لا طريق لإفحامه والرد عليه إلا الإمام محمد الباقر (عليه السلام) فكتب إلى عامله على يثرب رسالة يطلب فيها إحضار الإمام إلى دمشق، والتلطف معه. عرض حاكم يثرب على الإمام (عليه السلام) رسالة عبد الملك، فاعتذر الإمام (عليه السلام) عن السفر لأنه شيخ لا طاقة له على عناء السفر، لكنه أناب عنه ولده الإمام جعفر الصادق للقيام بهذه المهمة. سافر الإمام الصادق (عليه السلام) إلى دمشق فلما حضر عند عبد الملك قال له: قد أعيانا هذا القدري، وإني أحب أن أجمع بينك وبينه، فإنه لم يدع أحداً إلا وخصمه، وأمر بإحضاره فلما حضر عنده أمره الإمام الصادق (عليه السلام) بقراءة الفاتحة، فبهر القدري، وأخذ بقراءتها، فلما بلغ قوله: (إياك نعبد وإياك نستعين) قال له الإمام (عليه السلام):

(من نستعين؟ وما حاجتك إلى المعرفة إن كان الأمر إليك) وبان العجز على القدري، ولم يطق جواباً، وواصل الإمام حديثه في إبطال مزاعمه ورد شبهه.

مع قسيس:

ومرة كان الإمام الباقر (عليه السلام) في الشام فالتقى مع قسيس من كبار علماء النصارى وجرت بينهما مناظرة اعترف القسيس بعجزه وعدم استطاعته على مناظرة الإمام والرد عليه. قال أبو بصير: قال أبو جعفر (عليه السلام): مررت بالشام، وأنا متوجه إلى بعض خلفاء بني أمية فإذا قوم يمرون، فقلت: أين تريدون؟ قالوا: إلى عالم لم نر مثله، يخبرنا بمصلحة شأننا، قال: فتبعتهم حتى دخلوا بهواً عظيماً فيه خلق كثير، فلم ألبث أن خرج شيخ كبير متوكئ على رجلين، قد سقطت حاجباه على عينيه، وقد شدهما فلما استقر به المجلس نظر إلي وقال:

من أنت أم من الأمة المرحومة؟

من الأمة المرحومة.

أمن علمائها أم من جهالها؟

لست من جهالها.

أنتم الذين ترعمون أنكم تذهبون إلى الجنة فتأكلون وتشربون ولا تحدثون!!؟

نعم.

هات على هذا برهاناً.

نعم، الجنين يأكل في بطن أمه من طعامها، ويشرب من شرايبها ولا يحدث.

ألست زعمت أنك لست من علمائها؟

إنما قلت لك: لست من جهالها.

أخبرني عن ساعة ليست من النهار وليست من الليل؟

هذه ساعة من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، لا تعدها ليلاً ولا تعدها نهاراً وفيها تفيق المرضى.

بهر القسيس وراح يقول للإمام:

ألست زعمت أنك لست من علمائها؟

إنما قلت لك: لست من جهالها.

والله لأسألك عن مسألة ترتطم فيها.

هات ما عندك.

أخبرني عن رجلين ولدا في ساعة واحدة، وماتا في ساعة واحدة؟ عاش أحدهما مائة وخمسين عاماً

وعاش الآخر خمسين عاماً؟

ذلك عزيز وعزيرة. عاش أحدهما خمسين عاماً ثم أماته الله مائة عام، فقيل له كم لبثت؟ قال: يوماً أو

بعض يوم، وعاش الآخر مائة وخمسين عاماً، ثم ماتا جميعاً. عندها صاح القسيس بأصحابه، والله لا

أكلمكم، ولا ترون لي وجهاً اثني عشر شهراً (٥).

وسبب حنقه منهم لأنه ظن أنهم عمدوا إلى إدخال الإمام (عليه السلام) عليه لامتحانه وفضيخته،

ونهض الإمام أبو جعفر (عليه السلام) وأخذت الشام تتحدث عن قدراته العلمية ووفرة اطلاعه على

جميع المعارف في عصره.

مع قادة الاعتزال:

التقى الإمام الباقر (عليه السلام) مع قادة المعتزلة وجرت بينه وبين كبار علمائها عدة مناظرات نذكر

منها مناظرته:

مع الحسن البصري:

وفد الحسن البصري إلى يثرب فتشرف بمقابلة الإمام أبي جعفر (عليه السلام) فقال الإمام:

جئت لأسألك عن أشياء من كتاب الله؟

ألست فقيه البصرة؟

قد يقال ذلك.

هل بالبصرة أحد تأخذ عنه؟

لا.

فجميع أهل البصرة يأخذون عنك؟

نعم.

لقد تقلدت عظيماً من الأمر، بلغني عنك أمر فما أدري أذكلك أنت أم يكذب عليك؟

ما هو؟

زعموا أنك تقول: إن الله خلق العباد ففوض إليهم أمورهم.

وأطرق الحسن البصري برأسه إلى الأرض وحرار في الجواب، فبادره الإمام قائلاً:

أرأيت من قال له الله في كتابه: إنك آمن هل عليه خوف بعد القول منه؟

لا.

إني أعرض عليك آية، وأنهى إليك خطاباً، ولا أحسبك إلا وقد فسرتة على غير وجهه، فإن كنت فعلت ذلك فقد هلكت، وأهلكت.

ما هو؟

أرأيت حيث يقول الله: (وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير، سيروا فيها ليالي وأياماً آمنين)(٦).

بلغني أنك أفنتيت الناس فقلت: هي مكة.

قال الحسن البصري: بلى.

وأخذ الإمام يستدل على ما ذهب إليه في تفسير الآية حتى بهت الحسن البصري وحرار في الجواب، ثم نهاه عن القول بالتفويض وبين فساد(٧).

مع عمرو بن عبيد (المعتزلة):

هو شيخ المعتزلة وزعيمها الروحي، النقي بالإمام أبي جعفر (عليه السلام) وكان قد قصد امتحانه

واختباره فوجه له السؤال التالي:

جعلت فداك ما معنى قوله تعالى: (أولم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما)(٨).

قال (عليه السلام): كانت السماء رتقاً لا تنزل القطر، وكانت الأرض رتقاً لا تخرج النبات.

وأفحم عمرو ولم يطق جواباً وخرج من المجلس ثم عاد إليه، وقال للإمام: جعلت فداك، أخبرني عن قوله

تعالى: (ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى)(٩) ما معنى غضب الله؟

قال (عليه السلام): غضب الله عقابه، ومن قال: إن الله يغيره شيء فقد كفر (١٠).

مع عمرو الماصر (المرجئة):

كان عمرو بن قيس ممن ذهب إلى الإرجاء. وقد قصد مع رفيق له الإمام (عليه السلام). انبرى عمرو

يسأل الإمام قائلاً: (إنا لا نخرج أهل دعوتنا، وأهل ملتنا من الإيمان في المعاصي والذنوب)فرد عليه الإمام مزاعمه الفاسدة قائلاً:

(يا بن قيس: أما رسول الله (صلى الله عليه وآله) فقد قال: (لا يزني الزاني وهو مؤمن ولا يسرق السارق وهو مؤمن) فاذهب أنت وأصحابك حيث شئت)(١١) ما ذهب إليه المرجئة يتنافى مع الإيمان، لأن الإيمان قوة رادعة للنفس تصونها من ارتكاب الذنوب، ومن يقترفها لا عهد له بواقع الإيمان. مع نافع الأزرق (الخوارج):

نافع الأزرق هو من أعلام الخوارج وفد على الإمام الباقر (عليه السلام) يسأله عن بعض المسائل الدينية، والإمام يجيبه عنها. وبعد أن فرغ من أسئلته قال له الإمام (عليه السلام):
قل لهذه المارقة بم استحلتم فراق أمير المؤمنين (عليه السلام) وقد سفكتم دماءكم بين يديه في طاعته، والقربة إلى الله في نصرته؟ وسيقولون لك: إنه قد حكم في دين الله، فقل لهم: قد حكم الله في شريعة نبيه رجلين من خلقه فقال: (فابعثوا حكماً من أهله، وحكماً من أهلها إن يريدوا إصلاحاً يوفق الله بينهما)(١٢)
وحكم رسول الله (صلى الله عليه وآله) سعد بن معاذ في بني قريظة منحكم فيهم بما أمضاه الله عز وجل، أو ما علمتم أن أمير المؤمنين (عليه السلام) إنما أمر الحكمة بالقرآن، واشترط عليهما أن يتجاوزا أحكام القرآن من أحكام الرجال، وقال حين قالوا له: (قد حكمت على نفسك، من حكم عليك فقال: ما حكمت مخلوقاً، وإنما حكمت كتاب الله، فأين تجد المارقة تضليل من أمر الحكمة بالقرآن واشترط رد ما خالفه لولا ارتكابهم في بدعتهم البهتان) وبهر نافع بهذا الكلام السديد، وطفق يقول: (هذا والله كلام ما مر بمسمعي قط، ولا خطر بيالي، وهو الحق إن شاء الله)(١٣).

(١) المقدمة: ص ٢٣٢.٢٣٣.

(٢) الأحكام في أصول الأحكام لابن جزم ج ٢ ص ١٢١.

(٣) راجع في ذلك طبقات ابن سعد ج ٥ ص ١٧٠ واليعقوبي ج ٢ ص ٣٥٨.

(٤) تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية ص ٢٠٢.

(٥) حياة الإمام الباقر للقرشي ج ٢ ص ٦٥ عن دلائل الإمامة ص ١٠٦.

(٦) سورة سبأ، الآية ١٩.

(٧) الاحتجاج للطبرسي ج ٢ ص ٦٢ . ٦٣.

(٨) سورة الأنبياء، الآية ٣٠.

(٩) سورة طه، الآية ٨١.

(١٠) روضة الواعظين ج ١ ص ١٤٤.

(١١) حياة الإمام الباقر للقرشي ج ٢ ص ٨٩.

(١٢) سورة النساء، الآية ٣٥.

(١٣) روضة الواعظين ج ١ ص ٢٤٥.

فيض من مكارم الأخلاق الباقرية

المعروف

حث الإمام (عليه السلام) في كثير من أحاديثه على فعل المعروف ومما أثر عنه:

أ . (إن الله جعل للمعروف أهلاً من خلقه حيب إليهم المعروف وحبب إليهم فعاله، ووجه لطلاب المعروف الطلب إليهم، ويسر إليهم قضاءه كما يسر الغيث للأرض المجدبة ليحييها ويحيي أهلها، وإن الله جعل للمعروف أعداءً من خلقه بغض إليهم المعروف، وبغض إليهم فعاله وحظر على طلاب المعروف التوجه إليهم، وحظر عليهم قضاءه كما يحظر الغيث على الأرض المجدبة ليهلكها، ويهلك أهلها، وما يعفو عنه الله أكثر)(١).

إنه كلام جميل جمع فأوعى وتشبيه لطيف أصاب الهدف في الصميم، فاللمعروف أهله يحبونه ويحبون به كما تحيي الأرض المجدبة بالمطر، وللمعروف أعداؤه يبغضونه ويكرهون فعاله وهو محظر إليهم كما هو محظر الغيث عن الأرض المجدبة ليهلكها ويهلك أهلها.

فيا سبحان الله هذه المتناقضات موجودة في الطبيعة منذ وجدت وفيها يكمن سر الحياة، ومن التناقض خير وشر. فالليل والنهار يتناقضان ويدفع كل منهما الآخر، وكذلك هي حال الإنسان يقلدا الطبيعة في سيرها ومن هذا الصراع بين المتناقضات في داخلنا وخارجنا نعيش الحياة، الهادئة حيناً والمضطربة أحياناً. ومن صراعنا مع الحياة تتوالد أشكال من التاريخ المفرح والمشين. فمننا من لديه القدرة في تجهيز العدة اللازمة ليزيل جماع الظلام القاسي، ومننا من لا يملك هذه القدرة فيفشل ويقضي معظم أيامه في الظلام. وكما الليل يجادل النهار فيأخذ منه ويعطيه كذلك نحن البشر نجادل الزمان فنستهلك جزء أمنه ويستهلك عمرنا.

وفي أجسادنا تجري معارك موصولة بين كائنات حية تتوق إلى الانطلاق وتكون حياتنا منذ البدء ميداناً فسيحاً للمغالبة، فأما أن ترتفع وتسمو إلى المثل العليا المتصوفين، وأما أن تنزلق في منحدرات كالماديين.

ب . وقال (عليه السلام): صنایع المعروف تقي مصارع السوء، وكل معروف صدقة، وأهل المعروف في الدنيا أهل المعروف في الآخرة، وأول أهل الجنة دخولاً أهل المعروف وإن أول أهل النار دخولاً إلى النار أهل المنكر)(٢).

عمل المعروف عمل إنساني فرضه الله عز وجل على عباده الصالحين، والمعروف مهما كان نوعه مادياً كان أم معنوياً هو صدقة. والصدقة كما هو معلوم تدفع عن أصحابها مصارع السوء وتمنحهم مركزاً اجتماعياً محبوباً ومرموقاً وأهل المعروف مكرمين في الدنيا والآخرة. وهم أول الداخلين إلى الجنة. أما أهل المنكر فهم على العكس مكروهين في الدنيا ومطرودين من الجنة وهم أول الداخلين إلى النار. من هنا أمر الإسلام المؤمنين بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. قال تعالى: (يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر)(٣).

الإحسان

الإحسان إلى الناس من أوثق الروابط الاجتماعية التي تدعو إلى تماسك المجتمع وترابطه، وتشيع المحبة والألفة بين أبنائه، وقد ندب إليه الإسلام. قال تعالى: (وأحسنوا إن الله يحب المحسنين)(٤) وحث عليه الإمام الباقر (عليه السلام) فقال: (ما تدرع إليّ بذريعة، ولا توسل بوسيلة هي أقرب إليّ من يد سالفة مني إليه أتبعها أختها ليحسن حفظها وربها لأن منع الأواخر يقطع لسان شكر الأوائل، وما سمحت لي نفسي برد بكر الحوائج)(٥).

إنه أحب شيء إلى نفس الإمام (عليه السلام) مواصلة الإحسان وتكراره ليغرس به المودة والحب والألفة في قلوب الناس.

ليس هذا غريباً على من اختارهم الله تعالى وخصهم بالكرامة والعصمة وجعلهم فوق مستوى البشر في مواهبهم وأخلاقهم وجميع صفاتهم، فأخلاق الإمام الباقر هي أخلاق أبيه الإمام زين العابدين، وأخلاق جديه الإمام الحسين سيد الشهداء وأمير المؤمنين وارث علم الأنبياء فنجد الإمام علي (عليه السلام) عفا عن مروان أحد قادة الجيوش لحربه في البصرة وأحسن إليه بعد أن ظفر به ووقع أسيراً في قبضته.

وجده الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله) عفا عن رأس الشرك أبي سفيان بعد أن ظفر به، كما عفا عن زوجته هند بن عتبة وأحسن إليها بعد عملها الشنيع عندما شقت بطن عمه الحمزة واستخرجت كبده ونهشتها، وعفا أيضاً عن ابن سرح عندما ظفر به في مكنة وقد كان يؤذيه ويسيء إليه. فهذه صفة الأوصياء ورثة الأنبياء عليهم أفضل الصلاة والسلام.

مقابلة المعروف بالإحسان

لقد أوصى الإمام (عليه السلام) أصحابه بمقابلة المعروف بالإحسان فقال (عليه السلام): (من صنع مثل ما صنع إليه فقد كافاه. ومن أضعف كان شكوراً، ومن شكر كان كريماً. ومن علم أنه ما صنع كان إلى نفسه لم يستبطن الناس في شكرهم، ولم يستزدهم في مودتهم، فلا تلتمس من غيرك شكر ما أتيت به إلى نفسك، ووقيت به عرضك، واعلم أن طالب الحاجة لم يكرم وجهه عن مسألتك فإكرم وجهك عن رده)(٦).

فبعد أن أوصى (عليه السلام) بمقابلة المعروف بالمزيد من الإحسان، دعا إلى صنع المعروف بما هو معروف وأن لا يبغى الذي يسديه لا جزاءً ولا شكوراً. لأنه قد صنع ذلك لنفسه. فالعمل الصالح يفيد صاحبه الذي يقمه في سبيل الله أكثر مما يفيد المسدى إليه. (الأعمال الصالحات خير وأبقى) (ومن يعمل مثقال ذرة خيراً يره).

القول الحسن والمعاملة الحسنى

دعا الإمام (عليه السلام) إلى هجر الكلام السيئ ومعاملة الناس بالحسنى فقال (عليه السلام): (قولوا للناس: أحسن ما تحبون أن يقال لكم، فإن الله يبغض اللعان السباب الطعان على المؤمنين، الفاحش المتفحش السائل الملحف، ويحب الحيّ الحليم العفيف المتعفف)(٧).

الكلام الطيب يصدر من قلب طيب وأخلاق طيبة ذلك أن الإناء يرشح بما فيه. والكلمة الطيبة تمنح صاحبها احتراماً ومهابة وتبقى خالدة على الأيام يتداولها الناس ويذكرون قائلها بالخير. وما أروع الكلمات التي خلدت أصحابها والتي نردها نحن اليوم. وقد ضرب لنا الله عز وجل مثلاً عنها فقال تعالى: (.. كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله المثال للناس لعلهم يتذكرون)(٨).

وكما حدثنا سبحانه على الكلمة الطيبة دعانا أيضاً إلى البعد عن السباب واللعان والطعان على المؤمنين لأن الكلام الفاحش المتفحش مبغوض عند الله، والسبابون مكروهون مذمومون في الدنيا والآخرة. المؤمن الصالح لا يسب أحداً ولا يهتم إنه سبه الآخرون لأن همه الوحيد كسب رضى الله تعالى لا غيره. فالإمام (عليه السلام) سبه الأمويون على المنابر وافتعلوا الأحاديث في ذمه وحاولوا تزوير الحقائق وتشويه تاريخه المجيد. لكنهم فشلوا وسقطوا وبقي ذكره عالياً كاسمه تطيب الألسن بذكره وبمجد اسمه عند المؤمنين الصالحين، ويذكر اسمه كل يوم على المآذن بعد ذكر الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله). فلعن الله السبابين الذين يطعنون على المؤمنين لقد زالوا واندثروا ولم يسجل التاريخ اسمهم إلا على صفحاته السود. وقد وصفهم الله تعالى في كتابه العزيز: (ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار، يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء)(٩).

طلاقة الوجه

أمر الإمام (عليه السلام) المؤمنين بمقابلة الناس بطلاقة الوجه والترحيب بهم ببشاشة وسرور. فقال (صلى الله عليه وآله):

(البشر الحسن، وطلاقة الوجه، وسوء البشر مكبة للمحبة وقربة من الله، وعبوس الوجه، وسوء البشر مكسبة للمقت ويعد من الله)(١٠).

من آداب السلوك الاجتماعية التي أمر الله بها عباده الصالحين الوجه البشوش عند استقبال الناس لأن هذا مما يوثق الروابط الاجتماعية بين الناس ويزرع في النفوس الألفة والمحبة والتعاون. بينما الوجه العبوس يجلب المقت لصاحبه ويبعد الناس عنه ويجعله ممقوتاً منبوذاً في مجتمعه، وبالتالي فإنه يبتعد عن الله عز وجل. جاء في الحديث الشريف: (الخلق كلهم عيال الله وأقربهم إليه أنفعهم لعياله)(١١).
حقوق المسلم

شرح الإسلام الحقوق الكاملة للمسلم تجاه أخيه المسلم، وأدلى الإمام (عليه السلام) بهذه الحقوق فقال (١٢):

(أحبب أخاك المسلم، وأحبب له ما تحب لنفسك، واکره له ما تكره لنفسك، وإذا احتجت فسله، وإذا سألك فأعطه، ولا تدخر عنه خيراً فإنه لا يدخره عنك، كن له ظهراً فإنه لك ظهر، إن غاب فاحفظه في غيبته، وإن شهد فزره، وأجله، وأكرمه فإنه منك، وأنت منه، وإن كان عليك عاتباً فلا تفارقه حتى تسئل سخيته (١٣). وما في نفسه، وإذا أصابه خير فاحمد الله عليه، وإن ابتلي فاعضده، وتمحل له)(١٤).
إنها تعاليم حية خالدة ترسخ دعائم الحياة الاجتماعية بين الأفراد، وأننا نرى أنه لو طبق المسلمون هذه التعاليم على واقع حياتهم، وخاصة في هذه الأيام الصعبة، لأصبحوا من أقوى الشعوب في العالم، ولما تجرأت الأمم الأخرى على غزوهم ونهب ثرواتهم. ولما انحرف بعضهم عن هذه المبادئ الإسلامية الأصيلة تفرقوا شيعاً وأحزاباً وهانوا وذلوا واصبحوا (كل حزب بما لديهم فرحون)(١٥).
ولما كانت هذه حقوق المسلم فلا بد من قضاء حاجاته.

قضاء حاجة المسلم

طالب الإمام (عليه السلام) المسلمين إلى قضاء حوائج إخوانهم، وحذر من تركها أو إهمالها، فقال (عليه السلام): (ما من عبد يمتنع عن معونة أخيه المسلم والسعي له في حاجته قضيت له أو لم تقض إلا ابتلي في حاجة فيما يآثم عليه، ولا يؤجر، وما من عبد يبخل بنفقة ينفقها فيما يرضى الله إلا ابتلي بأن ينفق أضعافها فيما أسخط الله)(١٦).

إن قضاء حاجة المسلم أمر شرعي وواقعي واجتماعي والله عز وجل سمى: (إنما المؤمنون أخوة) ورسول الله (صلّى الله عليه وآله) قال: (المسلم مرآة أخيه)(١٧).

صلة الأرحام

حث الإمام الباقر (عليه السلام) على صلة الأرحام وقال: (صلة الأرحام تزكي الأعمال، وتتمى الأموال، وتدفع البلوى، وتيسر الحساب، وتنسى في الأجل)(١٨).

عني الإسلام بصلة الرحم ودعا إليها لأنها توجب تماسك الأسرة وارتباطها بالعطف والمحبة، وتعود على الأمة بأفضل الثمرات. قال الرسول الأعظم (صلّى الله عليه وآله) في ذلك: (بلّوا أرحامكم ولو

بالسلام)(١٩) وفي رواية أخرى: (انضحوا أرحامكم). والمراد: صلوا أرحامكم ولو بالسلام، أي جددوا المودة بينكم وبين أقربائكم ولو بالتسليم عليهم تشبيهاً ببيل السقاء اليابس. لأن حسن المخالقة (٢٠) تجديداً لمخلقتها (٢١). ومثل ذلك قول الكميت الأسيدي:
نضحتُ أديم الود بيني وبينهم بأصرة الأرحام لو يتبلُّ (٢٢)
الصدقة

أكد الإمام على الصدقات وذكر الفوائد الناجمة عنها والتي يظفر بها المتصدق. وقد أدلى بها أمام أصحابه فقال (عليه السلام): (إلا أنبئكم بشيء إذا فعلتموه يبعد السلطان، والشيطان منكم) فقال له أبو حمزة: (بلى أخبرنا حتى نفعله) قال (عليه السلام): (عليكم بالصدقة فبكروا بها، فإنها تسود وجه إبليس وتكسر شره السلطان الظالم عنكم في يومكم ذلك، وعليكم بالحب لله والتودد والمؤازرة على العمل الصالح فإنه يقطع دابرهما. يعني الشيطان والسلطان. وألحوا في الاستغفار فإنه ممحاة للذنوب) (٢٣). والسر في الصدقة أن تنفق مستورة وفي سبيل الله وليس بقصد الافتخار والمباهاة. ولهذا قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) في حديث طويل: (ورجل تصدق بصدقة لا تعلم شماله ما تنفقه يمينه)(٢٤) والمراد كتمان النفقة التي يتصدق بها وإخفاؤها. فإذا كانت شماله لا تعلم بما تنفقه يمينه وهي شقيقتها وقسميتها، فالأجدر ألا يعلم بذلك غيرها ممن بعد داراً وشط جواراً.

ومن المعروف شرعاً أن الصدقة تجب على الميسور والغني ويعفى منها فقير الحال. ولهذا قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (الصدقة عن ظهر غنى)(٢٥) والظهر هنا بمعنى القوة، فكأن المال للغني بمنزلة الظهر الذي عليه اعتماده. من ذلك قولهم: فلان ظهر لفلان إذا كان يتقوى به ويلجأ إليه في الحوادث. وكذلك قول الله تعالى: (لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً)(٢٦).

العطف على اليتيم

اليتيم هو أمانة في رقاب العباد الصالحين ومساعدتهم له واجب شرعي. قال تعالى: (وآتوا اليتامى أموالهم ولا تبدلوا الخبيث بالطيب)(٢٧). والإمام الباقر (عليه السلام) الذي وضع علم الأصول وحفيد الرسول (صلى الله عليه وآله) يدعو إلى العطف على اليتيم والبر بالضعيف يقول: (أربع من كن فيه بنى له الله بيتاً في الجنة من آوى اليتيم، ورحم الضيف وأشفق على والديه ورفق بمملوكه)(٢٨).
واليوم وبعد هذه الحرب القذرة التي شنّها الإسرائيليون على لبنان وما زالوا في هذه الأيام يغيرون على جنوب لبنان وعلى البقاع الغربي ويتركون نتيجة ذلك الأيتام الذين ليس لهم معين إلا الله والعلماء الأتقياء الأفاضل والعباد الصالحين من الأخوة المؤمنين.

نذكر في هذا المجال العلامة الكبير والمجاهد العظيم السيد محمد حسين فضل الله الذي قام بدور إنساني رائع فعمل على قيام المبرات الخيرات الخيرية تضم آلاف الأيتام من المسلمين، يتعلمون ويصرف

عليهم أموالاً طائلة من أجل الغذاء والكساء والتربية الإسلامية الصالحة.
وقد زرنا هذه المبرات الخيرية المنتشرة في كل أنحاء لبنان واطلعنا عن كثب عما تقوم به من نشاط اجتماعي وثقافي وتربوي وإنساني نحو هؤلاء الأيتام. فله الشكر كل الشكر وله الأجر كل الأجر على هذا العمل الصالح الذي يقوم به مع جماعة من المؤمنين الصالحين تجاه هؤلاء الأيتام المحرومين. وإن الله لا يضيع أجر المحسنين(٢٩) و(إنا لا نضيع أجر المصلحين)(٣٠).
(١) تحف العقول ص ٢٩٥.

(٢) أمالي الصدوق ص ٢٢٥.

(٣) سورة لقمان، الآية ١٧ وراجع سورة الأعراف، الآية ١٥٧ وسورة التوبة، الآية ٧١ و ١١٢ وسورة الحج، الآية ٤١.

(٤) سورة البقرة، الآية ١٩٥.

(٥) تحف العقول ص ٢٩٦.

(٦) تحف العقول ص ٣٠٠.

(٧) نفسه ص ٣٠٠.

(٨) سورة إبراهيم، الآية ٢٥.

(٩) سورة إبراهيم، الآية ٢٦ و ٢٧.

(١٠) تحف العقول ص ٢٩٦.

(١١) المجازات النبوية ص ٢٤١.

(١٢) أمال الصدوق ص ٢٨٨. وكن له ظهراً: أي عوناً.

(١٣) سخيمته: ضغينته.

(١٤) أمالي الصدوق ص ٢٨٨.

(١٥) سورة المؤمنون، الآية ٥٣.

(١٦) تحف العقول ص ٢٩٢.

(١٧) المجازات النبوية ص ٧٩.

(١٨) تحف العقول ص ٢٩٨.

(١٩) المجازات النبوية ص ١٠١.

(٢٠) المخالفة: المعاشرة بحسن الخلق.

(٢١) المخلق الذين استنفذت جدته فصار بالياً والمراد: تجديد البالي بالمعاشرة.

(٢٢) آصرة الأرحام: صلة الأرحام والآصرة تطلق على الرحم وعلى القرابة وعلى المنة والعطية.

(٢٣) تحف العقول ص ٢٩٨.

(٢٤) المجازات النبوية ص ٤١٣.

(٢٥) المجازات النبوية ص ٧٥ وهذا جواب عن سؤال سأله أحدهم للنبي (صلى الله عليه وآله) (أي الأعمال أفضل فقال الرسول (صلى الله عليه وآله): (الصدقة عن ظهر غني).

(٢٦) سورة الإسراء، الآية ٨٨ وظهيراً معيناً.

(٢٧) سورة النساء، الآية ٢.

(٢٨) الخصال ص ٢٠٤.

(٢٩) سورة التوبة، الآية ١٢٠.

(٣٠) سورة الأعراف، الآية ١٧٠.

الداء والدواء

شدد الإمام (عليه السلام) في أمر الغضب، وحذر من عواقبه. قال الإمام الصادق (عليه السلام): (كان أبي يقول: أي شيء أشد من الغضب إن الرجل ليغضب فيقتل النفس التي حرم الله، ويقذف المحصنة)(١).

وكلما زاد غضب الرجل قل عقله وساء تصرفه وضعفت حيلته وقلت هيئته بين أهله ومجتمعه، ومن قل حياؤه قل ورعه، ومن قل ورعه دخل النار. قال الإمام الباقر في ذلك:
(إن الرجل ليغضب فما يرضى أبداً حتى يدخل النار)(٢).
قال أحد الشعراء:

لكل شيء دواء يستطب به إلا الحمافة أعت من يداويها

أما الإمام الباقر فقد حذر من الغضب ووضع له علاجاً فقال (عليه السلام): (إن هذا الغضب جمرة من الشيطان توقد في قلب ابن آدم، وإن أحدكم إذا غضب احمرت عيناه وانتفخت أوداجه، ودخل الشيطان فيه، فإذا خاف أحدكم ذلك من نفسه فليلزم الأرض، فإن رجز الشيطان ليذهب عنه عند ذلك)(٣).
فدواء الغضب الصبر والحلم، فمن صبر على ما يكره ظفر بما يهدف إليه ورجز الشيطان لا دخل له في شؤون المؤمن، فلا يصغي إليه ولا يجعل له واجسه سبيلاً إليه. قال الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله):

(إن المؤمن لينض شيطانه كما ينض أحدكم بغيره في السفر)(٤).

فالمؤمن يصعب قياده على الشيطان ولا يصغي لوساوسه، اعتصاماً منه بدينه، واستلاماً عليه في ستر يقينه، فشيطانه أبداً متعب مكود لطول منازعته القياد ومغالته الزمام (٥).

فدواء الغضب الإيمان، والمؤمن صبور حلیم.

الغيبية والبهتان

قال تعالى في كتابه العزيز: (أحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه)(٦). فالله عز وجل يطلب إلينا البعد عن النميمة والغيبية لأن كل نمام مذموم عند ربه وفي مجتمعه. قال تعالى: (ولا تطع كل حلاف مهين هماز مشاء بنميم)(٧).

وفرق الإمام الباقر (عليه السلام) بين الغيبية والبهتان بقوله: (من الغيبة أن تقول: في أخيك ما ستره الله عليه، فأما الأمر الظاهر منه مثل الجدة والعجلة فلا بأس أن تقوله، وإن البهتان أن تقول في أخيك ما ليس فيه)(٨).

العجب

قال (عليه السلام): (عجباً للمختال الفخور، إنما خلق من نطفة ثم يعود جيفة وهو فيما بين ذلك لا يدري ما يصنع به)(٩).

ويقول الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله): (ورجل ينازع الله رداءه، فإن رداءه الكبرياء، وإزاره العظمة)(١٠).

إن العظمة والكبرياء على حقيقتها صفتان لله عز وجل وتعنيان الكرامة التي يلقيها الله سبحانه على رسله وأنبيائه والقائمين بالقسط من عباده، فيعظمون بها في العيون، وإن كانت هيئاتهم ذميمة. والكبرياء والعظمة يكسوهما الله على عباده الصالحين.

وفي ذلك يقول أمير المؤمنين (عليه السلام): (أعجب للمتكبر ألا يذكر أنه خرج من مخرج البول مرتين؟). فالإنسان أوله نطفة يخرج من بين الصلب والترائب، وآخره جيفة، (وهو فيما بين ذلك لا يدري ما يصنع به) على حد قول الإمام الباقر (عليه السلام).

الصمت

دعا الإمام (عليه السلام) إلى عدم الخوض فيما لا يكسب فيه الإنسان فائدة أو يجني خيراً. قال (عليه السلام):

(إن هذا اللسان مفتاح كل خير وشر، فينبغي للمؤمن أن يختم لسانه كما يختم على ذهبه وفضته، فإن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال: (رحم الله مؤمناً أمسك لسانه من كل شر فإن ذلك صدقة منه على نفسه) (لا يسلم أحد من الذنوب حتى يخزن لسانه)(١١). اللسان ترجمان العقل وميزان الكلام منه يخرج الخير ومنه يخرج الشر ويعود ذلك على قدرة صاحبه في التحكم بأقواله وأفعاله فيكون لسانه رهن إرادته وتكون كلماته ملك يده. قال أحد الحكماء: إذا تكلمت بالكلمة ملكتني وإن لم أتكلم بها ملكتها. وقال أحد الحكماء: ليت لي عنقاً كعنق الحمل حتى إذا تكلمت بالكلمة هضمتها قبل النطق بها.

وقال أمير المؤمنين: لسان العاقل وراء قلبه ولسان الأحمق أمام قلبه. فالعاقل يفكر ملياً بالكلمة قبل

النطق بها لأنه يعلم جيداً أنه سوف يحاسب عليها أمام الله عز وجل وأمام الناس. وهذه صفات كل مؤمن الذي يمسك لسانه عن كل شر، ويطلقه في كل خير وبذلك يسلم من الذنوب والأخطاء أو على الأقل تقل أخطاؤه وتخف ذنوبه. أما من أفلت للسان العنان وأغفل مراقبة أخطائه فإنه يقع في شرورها. والصمت محبوب في أوقات وغير محبوب في أوقات أخرى، محبوب عند الإصغاء وأخذ المعلومات المفيدة عن العلماء الفضلاء وكما يتعلم الإنسان فن التكلم والخطابة يتعلم أيضاً فن الإصغاء ومن أحسن الأخذ أحسن العطاء. ولا ريب أن العطاء الجيد في سبيل الله صدقة من الصدقات المباركة.

- (١) جامع السعادات ج ١ ص ٢٨٩.
 - (٢) نفسه ج ١ ص ٢٨٩.
 - (٣) نفسه ج ١ ص ٢٨٩.
 - (٤) المجازات النبوية ص ٤١٠ وينضي: يسبب له الهزال من كثرة إجهاده في السير خلفه لإغوائه ثم لا يحصل الشيطان على طائل بسبب الرجل الهزال لبعيره من كثرة السير.
 - (٥) مغالته الزمام: أي كلما أمسك الشيطان بزمام المؤمن ليقوده في غوايته، يشد المؤمن زمامه من يد الشيطان ويفلته منه.
 - (٦) سورة الحجرات، الآية ١٢.
 - (٧) سورة القلم، الآية ١٠ و ١١، وهماز: مغتاب الناس. مشاء بنميم: يسعى بالإفساد بين الناس.
 - (٨) تحف العقول ص ٢٩٨.
 - (٩) حياة الإمام محمد الباقر للقرشي ج ١ ص ٣٠٤.
 - (١٠) المجازات النبوية ص ٤٤٠.
 - (١١) تحف العقول ص ٢٩٨.
- في رحاب الشعر والخطابة
- كانت حياة الأئمة (عليهم السلام) حلقات متواصلة من الجهاد المتواصل في إصلاح المسلمين وإرشادهم، حافلة بتوجيههم إلى الطريق الصحيح، وموعظتهم إلى سبل الخير والرشاد. وكانوا (عليهم السلام) يسلكون كافة السبل لتوعية الناس، فمرة بالخطب، وأخرى بالوصايا، أو الحكم أو إلقاء الدروس. والشعر كما قالوا: ديوان العرب وأنيس النفوس وفاكهة المجالس، يستريح الإنسان الذواقة باستماعه، ويأنس صاحب الحواس المدربة والثقافة الأدبية بانسياقه.
- وجرياً مع الناس في هذا الاتجاه جاء شعر الأئمة (عليهم السلام) جاء متمشياً مع اتجاههم في الدعوة

إلى الخير، والحث على الفضيلة والأمر بمكارم الأخلاق. ومن هنا كان تعريف النقاد للشعر فقالوا:
(الشعر هو الحق ينقله الشعور حياً إلى القلب).

والمشهور عن الإمام الباقر (عليه السلام) أنه فتق أبواباً كثيرة في العلوم، وأسس معظم قواعدها كعلم
الفقه وعلم الأصول...، وأنه أوتي الحكمة وفصل الخطاب، ولم تنص المصادر المترجمة للإمام (عليه
السلام) أنه كان ينظم الشعر. غير أن بعض المؤرخين نسبوا له بعض الأبيات منها:

فنحن على الحوض ذواده نذود ويسعد رواده
فما فاز من فاز إلا بنا وما خاب من حبنا زاده
فمن سرنا نال من السرور ومن ساءنا ساء ميلاده
ومن كان غاصبنا حقنا فيوم القيامة ميعاده (١)
وقال أيضاً:

عجبت من معجب بصورته وكان من قبل نطقه مذره
وفي غد بعد خسف صورته يصير في القلب جيفة قذره
وهو على عجبه ونخوته ما بين جنبيه يحمل العذره
وقال أيضاً مخاطباً العصاة:

تعصي الإله وأنت تظهر حبه هذا لعمرك في الفعال بديع
لو كان حبك صادقاً لأطعته إن المحب لمن أحب مطيع (٢)
ونقش على خاتمه:

ظني بالله حسن وبالنبي المؤمن

وبالوصي ذي المنن وبالحسين والحسن (٣)

وسواء أصح أن الإمام (عليه السلام) كان ينظم الشعر أم لم يصح، فإن من المقطوع به، إنه كان في
طليعة البلغاء، لأنه نشأ في بيت الفصاحة والبلاغة. وقد دلت على ذلك المجموعات الضخمة من الحكم
والمواعظ والاحتجاجات والحوارات التي سجلها له التاريخ وكلها تعد من الطراز الأول في فصاحتها
وبلاغتها.

ومن رحاب الشعر إلى رحاب الخطابة:

جاء في كتاب أئمتنا للأديب علي محمد علي دخيل (تأسف ابن عباس أشد الأسف لأن الإمام أمير
المؤمنين (عليه السلام) لم يتم خطبته الشقشقية، في حين أنه سمع منه (عليه السلام) مئات الخطب
والوصايا، والحكم، وليت الزمن امتد بابن عباس ليشهد حياة الأئمة (عليهم السلام) وما رافقها من ضيق

واضطهاد. فهم لا يستطيعون أن يتكلموا فضلاً من أن يخطبوا، وقد يسمعهم ولادة الجور سب آبائهم من فوق منبر جدهم فلا يستطيعون الرد عليهم والإنكار في وجوههم. ثم تابع:

إن عقيدتي فيما حفظ للأئمة (عليهم السلام) من أحاديث وتعاليم وسير وفصائل كان بطريق المعجز، وبعناية من الله سبحانه وإذا كان أمير المؤمنين (عليه السلام) وقد أسر أولياؤه مناقبه خوفاً، وكنتمها أعداؤه حقداً. كما يقول الشافعي. فما هو الحال في أولاده (عليهم السلام) (٤).

والحقيقة أن الحكم الأموي افتعل الكثير من المضايقات مع الشيعة وقام بأعمال إجرامية فظيعة وأخذ يطارده كل شيعي يحب أهل البيت وبصورة خاصة أمير المؤمنين ومن جاء بعده من أولاده وأحفاده من الأئمة المعصومين (عليهم السلام) اعتقلوهم وضايقوهم ودسوا لهم السم، وأحرقوا مكتباتهم، وحاربوا كل من وقف بجانبهم من أدباء وشعراء وفقهاء وكتاب ومحدثين.

فبات من المعجز والحالة هذه إذا وصلتنا بعض خطبهم أو حكمهم أو أشعارهم لكن (ياأبي الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون) (٥) وهذا بعض ما وجدناه من خطب الإمام الباقر (عليه السلام). من خطبة له (عليه السلام) في الشام:

قال الإمام الصادق (عليه السلام): لما شخص أبي محمد بن علي إلى دمشق سمع الناس يقولون: هذا ابن أبي تراب!! قال: فأسند ظهره إلى جدار القبلة ثم حمد الله وأثنى عليه، وصلى على النبي (صلى الله عليه وآله) ثم قال:

(اجتنبوا أهل الشقاق وذرية النفاق، وحشو النار، وحصب جهنم عن البدر المزهر، والبحر الزاخر والشهاب الثاقب، وشهاب المؤمنين، والصراط المستقيم، من قيل أن نطمس وجوهاً فنردها على أديبارها أو يلعنوا كما لعن أصحاب السبب، وكان أمر الله مفعولاً. ثم قال بعد كلام له:

أبصنو رسول الله تستهزئون، أم بيعسوب (٦) الدين تلمزون، وأي سبل بعده تسلكون، وأي حزن بعده تدفعون؟! هيهات هيهات برز الله بالسبق، وفاز بالخصل، واستوى على الغاية، وأحرز على الخطاب فانحسرت عنه الأبصار، وخضعت دونه الرقاب، وقرع الذروة العليا، فكذب من رام من نفسه السعي، وأعياء الطلب فأتى لهم التناوش (٧) من مكان بعيد. وقال:

أقلوا عليهم لا أباً لأبيكم من اللوم أو سدوا المكان الذي سدوا
أولئك قوم إن بنوا أحسنوا البنا وإن عاهدوا وفوا وإن عقدوا شدوا (٨)
فأنى يسد ثلثة أخي رسول الله (صلى الله عليه وآله) إذ شفعا، وشقيقه إذ نسبوا، ونديده إذ فشلوا، وذوي قربي كنزها إذ فتحوا، ومصلي القبلتين إذ انحرفوا، والمشهود له بالإيمان إذ كفروا، والمدعي لنبذ عهد المشركين إذ نكلوا، والخليفة على المهادة ليلة الحصار إذ جزعوا، والمستودع لأسرار ساعة الوداع... إلى

آخر كلامه (٩).

هذه الفقرات مقتطفات من خطاب الإمام الباقر (عليه السلام) وهو حفيد أبي تراب، وله ولأي إنسان، الشرف أن ينتسب إليه، وكلها تعنى بنشر مآثر أهل البيت، والتدليل على فضائلهم أمام ذلك المجتمع الذي تربي على بغضهم وعدائهم. فيا سبحان الله كم غرتهم هذه الدنيا الفانية وغرت أمثالهم. لكنهم فشلوا ولم يدروا لقد فضلوا جاه الدنيا على جنة الآخرة!!

وله خطبة أخرى (عليه السلام) في الشام جاء فيها:

لما حمل أبو جعفر إلى الشام إلى هشام بن عبد الملك وصار ببابه، قال هشام لأصحابه: إذا سكت من توبيخ محمد بن علي فلتوبخوه، ثم أمر أن يؤذن له فلما دخل عليه أبو جعفر قال بيده: السلام عليكم، فعمهم بالسلام جميعاً ثم جلس، فازداد هشام عليه حنقاً بتركه السلام عليه بالخلافة وجلوسه بغير إذن، فقال: يا محمد بن علي لا يزال الرجل منكم قد شق عصا المسلمين ودعا إلى نفسه، وزعم أنه الإمام سفهاً وقلة علم، وجعل يوبخه، فلما سكت أقبل القوم عليه رجل بعد رجل يوبخه. فلما سكت القوم نهض قائماً ثم قال:

أيها الناس أين تذهبون وأين يراد بكم، بنا هدى الله أولكم، وبنا ختم آخركم فإن يكن لكم ملك معجل فإن لنا ملكاً مؤجلاً، وليس بعد ملكنا ملك لأننا أهل العاقبة، يقول الله عز وجل: (والعاقبة للمتقين) (١٠) فأمر به إلى الحبس، فلم يبق رجل إلا ترشفه (١١) وحسن عليه، فجاء صاحب الحبس إلى هشام وأخبره بخبره، فأمر به فحمل إلى البريد هو وأصحابه يردوا المدينة (١٢).

الكميت بن زيد الأسدي مع الإمام الباقر (عليه السلام)

عرف الكميت بحبه لأهل البيت منذ نشأته. ولد سنة ٦٠ هـ وهي السنة التي فجعت بها الأمة الإسلامية بقتل سيد الشهداء الإمام الحسين (عليه السلام) (١٣). انطبعت نفسه بتلك المأساة المرعبة وأخذت تتفاعل مع مشاعره وعواطفه، وظهر أثر ذلك في رثائه للإمام الحسين (عليه السلام) بشعر يفيض حزناً وأسى.

نشأ بالكوفة التي كانت عاصمة الشيعة ومنجم الثورات على بني أمية، وتربي على حب أهل البيت (عليهم السلام) وقد ظهر حبه لهم في شعره وبصورة خاصة في هاشمياته.

كان شعره منجماً من مناجم الأدب العربي، صرف معظمه في مديح بني هاشم وهجاء بني أمية، وعبر أصدق تعبير عن عواطفه تجاه ساداته الذين أخلص لهم في حبه ومودته وهذه لوحة من إحدى لوحاته الرائعة التي تمثل هذا الاتجاه:

وقالوا: ورثناها أبانا وأمنا وما ورثتهم ذاك أم ولا أب

يروون لهم حقاً على الناس واجباً سفاهاً وحق الهاشميين أوجب

ثم يعرج على ما ذهب إليه من أحقية أهل البيت بالخلافة فيقول:
يقولون: لم يورث ولولا تراثه لقد شركت فيه بكيل وأرحب
وعك ولخم والسكون وحمير وكندة والحيان بكر وتغلب (١٤)
وقد أقام شعره في مدح بني هاشم على الاستشهاد بآيات من القرآن الكريم. يقول مخاطباً بني هاشم:
وجدنا لكم في آل حاميم آية تأولها منا تقي ومعرب
وفي غيرها آياً وآياً تتابعت لكم نصب فيها الذي الشك منصب (١٥)
يشير في البيت الأول إلى قوله تعالى: (قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى)(١٦).

وفي البيت الثاني إلى قوله تعالى: (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم
تطهيراً)(١٧).

وإلى قوله تعالى: (وآت ذا القربى حقه)(١٨).

وقوله تعالى: (واعلموا إنما غنمتم من شيء فإن لله خمسه وللرسول ولذي القربى)(١٩).
اتسم شعر الكميت في مدحه لأهل البيت (عليهم السلام) بأنه صادق اللهجة، قوي العاطفة، متين
الإيمان الخالص الذي لا يشوبه أي شائبة من أعراض الدنيا، فقد كان يبغى فيه وجه الله عز وجل والدار
الآخرة. يقول:

إلى النفر البيض الذي بحبهم إلى الله فيما نالني أتقرب
أخلص في حبه وهواه لأهل البيت (عليهم السلام) لأنه لم ير وسيلة غيرهم تقربه زلفى إلى الله تعالى.
مع الإمام الباقر (عليه السلام):

عرف الكميت بحبه الخالص للإمام الباقر (عليه السلام) فكان شاعره الخاص وقد تلا عليه بعض
هاشمياته وقصائده التي نظمها في حق أهل البيت (عليهم السلام) أخذت مأخذها في نفس الإمام (عليه
السلام) فشكره عليها ودعا له بالمغفرة والرضوان.

ولا يرى الكميت أحداً في هذه الدنيا يستحق الولاء والتقدير غير سيده أبي جعفر (عليه السلام) دخل
عليه وهو يقول:

ذهب الذين يعاش في أكنافهم لم يبق إلا شامت أو حاسد
وبقي على ظهر البسيطة واحد فهو المراد وأنت ذاك الواحد (٢٠)
كان الكميت مقيماً في الكوفة، فاشتد به الوجد إلى رؤيا الإمام فسافر إلى يثرب، ولما دخل إلى حضرة
الإمام تلا عليه قصيدته التي يذكر فيها تعطشه لرؤياه يقول فيها (٢١):

كم جزت فيك من أحواز وإيقاع وأوقع الشوق بي قاعاً إلى قاع
يا خير من حملت أنثى ومن وضعت به إليك غدي سيرري وإيضاعي

أما بلغتكم فالآمال بالغة بنا إلى غاية يسعى لها الساعي
من معشر شيعة الله ثم لكم صور إليكم بأبصار وأسماعي
دعاة أمر ونهي عن أئمتهم يوحي بها منهم واع إلى واعي
رثاؤه لسيد الشهداء (عليه السلام)

لما ترعرع الكميت ذهل كغيره من الناس بأهوال تلك المأساة التاريخية الخالدة في دنيا الأحران. والجميع
ينوح وينادي في الأندية والمجالس ما عاناه ربحانة رسول الله (صلى الله عليه وآله) من فواجع الخطوب
التي هزت مشاعره وعواطفه.

هذه القصيدة تمثل ذوب روحه وعمق عاطفته ونبل شعوره يروي المؤرخون أنه وفد على الإمام الباقر
(عليه السلام).

فقال له: يا ابن رسول الله قد قلت فيكم أبياتاً من الشعر أفتأذن لي بإنشادها؟
أجابه (عليه السلام): إنها أيام البيض (٢٢) التي يكره فيها إنشاد الشعر.
هي فيكم خاصة.
هات ما عندك.

فانبرى يقول:

أضحكني الدهر وأبكاني والدهر نو صرف وألوان
لتسعة بالطف قد غودروا صاروا جميعاً رهن أكفان
تألم الإمام (عليه السلام) كثيراً حينما سمع رثاء جده سيد الشهداء وأغرف في البكاء وبكى معه ولده
الإمام الصادق (عليه السلام) كما بكت العلويات من وراء الخباء، ولما بلغ إلى قوله:
وسنة لا يتجارى بهم بنو عقيل خير فرسان
ثم علي الخير مولاهم ذكرهم هيج أحزاني
بكى الإمام (عليه السلام)، وذكر له ما أعد الله من الثواب الجزيل لمن يذكر أهل البيت، ويحزن
لحزنهم، ولما بلغ قوله:

من كان مسروراً بما مسكم أو شامتاً يوماً من الآن
فقد ذللت بعد عز فما أدفع ضيماً حين يغشاني
أخذ الإمام (عليه السلام) بيد الكميت ودعا له قائلاً:
(اللهم اغفر للكميت ما تقدم من ذنبه وما تأخر..).
ولما بلغ قوله:

متى يقوم الحق فيكم متى يقوم مهديكم الثاني

عندها التفت إليه الإمام (عليه السلام) وعرفه بأن المهدي (عليه السلام) هو الإمام المنتظر الذي يملأ الأرض عدلاً بعدما ملئت ظلماً وجوراً، سأله الكميّ عن زمان خروجه فقال (عليه السلام): لقد سئل رسول الله (صلى الله عليه وآله) عن ذلك، فقال: إنما مثله كمثل الساعة لا تأتيكم إلا بغتة (٢٣).

المشهور من شعره في حبه وولائه لأهل البيت هاشمياته والمشهور من هاشمياته قصيدته (الميمية) التي أنشدها عند الإمام الباقر (عليه السلام) وهي تعد من أروع الشعر العربي في تصوير انطباعات الكميّ عن أهل البيت (عليهم السلام) تصويراً واقياً رائعاً.

يقول في مطلعها:

من لقلب متيمّ مستهام غير ما صبوة ولا أحلام

يمدح فيها بني هاشم فيقول:

إنهم معدن الجود والكرم، وأساس العدل بين الناس، تحلوا بالشجاعة وكانوا المأوى، والملجأ لأيتام الفقراء والمحرومين. وهم الذين يملكون العقول النيرة لإرشاد الناس وهدايتهم لأنهم الحكماء الماهرون في معالجة أمراض النفوس بحكمتهم ودرابنتهم وعلومهم. كانوا مصدر خير وسعادة لجميع الناس وهم أكرمهم جوداً وجوداً. لقد فاقوا جميع مراحل التاريخ بأصالة فكرهم وخصوبة رأيهم وصدق حديثهم.

(١) تحف العقول ص ٢١٤ وأعيان الشيعة ج ٢ ص ٨٠.

(٢) كشف الغمة ص ٢١٨ وبحار الأنوار ج ١١ ص ٧٧ ونسبها بعضهم للإمام زين العابدين (عليه السلام).

(٣) الدمعة الساكبة ص ٤٠٣.

(٤) أئمتنا ج ١ ص ٣٥٧.

(٥) سورة التوبة، الآية ٣٢.

(٦) التناوش: التناول.

(٧) يعسوب الدين: يعني الإمام أمير المؤمنين.

(٨) هم في السلم أوفياء وفي الحرب أبطال أقوياء.

(٩) المناقب ج ٢ ص ٢٩ وبحار الأنوار ج ١١ ص ٩١.

(١٠) سورة هود، الآية ٤٩ وسورة الأعراف، الآية ١٢٨.

(١١) ترشفه: قام بخدمته.

(١٢) المناقب ج ٢ ص ٢٨٠ وأصول الكافي ج ١ ص ٤٧١.

(١٣) الغدير ج ٢ ص ٢١١.

(١٤) الهاشميات ص ٤٢.

(١٥) الهاشميات ص ٤٠.

(١٦) سورة الشورى، الآية ٢٣.

(١٧) سورة الأحزاب، الآية ٣٣.

(١٨) سورة الإسراء، الآية ٢٦.

(١٩) سورة الأنفال، الآية ٤١.

(٢٠) روضات الجنات ج ٦ ص ٥٦.

(٢١) تأسيس الشيعة ص ١٨٩ وأعيان الشيعة ج ٤ ص ٥١٦ وقد نسبت هذه الأبيات إلى زيد الأسدي شقيق الكميت.

(٢٢) الأيام البيض هي: الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر وسميت لياليها بيضاً لأن القمر يطلع فيها من أولها وإلى آخرها.

(٢٣) الغدير ج ٢ ص ٢٠٠.

مميزات فقه أهل البيت عليهم السلام

تميز فقه أهل البيت بمميزات جلى تعد في قمة الفقه الإسلامي وما زالت حتى اليوم مرجعاً معتمداً عند كافة العلماء. من هذه الميزات نذكر:

١ . اتصال فقه أهل البيت بالنبي (صلى الله عليه وآله):

من مميزات فقه أهل البيت أنه يتصل اتصالاً مباشراً بالنبي (صلى الله عليه وآله). والطريق الوحيد إليه أئمة أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً. وجعلهم الرسول الأعظم سفن نجاة الأمة وأمن العباد الدائم، وعدلاء الذكر الحكيم حسبما تواترت الأخبار. قال الإمام الباقر (عليه السلام): (نحن خزان علم الله، ونحن تراجمة وحي الله، ونحن الحجة البالغة على من دون السماء ومن فوق الأرض)(١). وقال أيضاً (عليه السلام): (نحن أهل بيت الرحمة، وشجرة النبوة، ومعدن الحكمة وموضع الملائكة، ومهبط الوحي)(٢).

ومما لا شك فيه أنهم سلام الله عليهم ألصق الناس برسول الله (صلى الله عليه وآله) وأعلم الناس بشؤون شريعة الله وأدرى الناس في توضيح أحكام سنة الله من غيرهم. فروايتهم عن جدهم النبي (صلى الله عليه وآله) أو عن جدهم أمير المؤمنين (عليه السلام) من أصح الروايات وأقربها إلى الواقعية والدقة. وهذا ما دعا الفقهاء إلى الاقتصار على روايات الأئمة في استنباطهم للأحكام الشرعية، باعتبارها قد حازت على وثاقة الدليل. قال الإمام الباقر (عليه السلام): لو أننا حدثنا برأينا ضللنا كما ضل من قبلنا، ولكننا حدثنا ببينة من ربنا بينها لنبيه (صلى الله عليه وآله) فبينها لنا(٣) وقال أيضاً في وثاقة الحديث

عندما سئل كيف يحدث الحديث ولا يسنده فقال (عليه السلام):

(إذا حدثت بالحديث فلم أسنده فسندي فيه أبي زين العابدين عن أبي الحسين الشهيد عن أبيه علي بن أبي طالب عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) عن جبريل عن الله) (٤).

فهل هناك سند أصح وأشرف وأوثق من هذا السند؟ وهل يجد المسلمون الذين يبتغون وجه الله والدار الآخرة طريقاً يوصلهم إلى الله جل شأنه أسلم وأضمن من هذا الطريق؟
٢ . موافقته لكل زمان:

فقه أهل البيت وافق كل زمان ويواكب التطور، ويساير جميع متطلبات الحياة، فليس فيه ضرر ولا إضرار . والحمد لله . ولا ينطلق من مصالح شخصية ضيقة تنتهي بانتهاء أصحابها، وإنما فيه الصالح العام ومصلحة الأمة الإسلامية. وقد نال إعجاب جميع رجال القانون واعترفوا بأنه من أفضل ما قنن في عالم التشريع عمقاً وأصالة وذلك بسبب التوازن في جميع مناحي تشريعاته. إن فقه أهل البيت استعرض مشاكل الأمة الإسلامية فوضع الحلول الحاسمة لجميع مشاكلها، فكان آية للعدل المطلق ومنازة للحق والمحض، وقوة دافعة للتقدم العلمي والحضاري. من هنا كانت مرونته ومواكبته للفطرة الإنسانية.
٣ . حيويته وأصالته:

يركز الفقه الإمامي بالرجوع إلى حكم العقل معتبراً أنه أحد المدارك لاستنباط الأحكام الشرعية، وقد أضفى عليه فقهاء الإمامية ألوان التقديس فاعتبروه رسول الله الباطني، وإنه مما يعبد به الرحمن ويكتسب به الجنان. ومن الطبيعي أن الرجوع إلى العقل أمر طبيعي إذا لم يكن في المسألة نص، وإن للعقل مسرحةً كبيراً في علم الأصول الذي يتوقف عليه الاجتهاد، إذ أكثر مسائل الفقه يستند فيه الفقهاء إلى ما تقتضيه القواعد الأصولية فيها، وعلى ضوء حكم العقل فقد حكموا بوجود مقدمة الواجب، وأن الأمر بالشئ يقتضي النهي عن ضده، كما حكموا بحجية الظن المطلق بناء على الحكم لا على الكشف، وأرجعوا الخبرين المتعارضين إلى حكم العقل فإن أيد أحدهما فيؤخذ به حسبما دلت عليه الأخبار إلى غير ذلك من المسائل التي يرتبط موضوعها بحكم العقل وهذا مما يدعو إلى الاعتزاز بالفقه الإمامي والفخر بحيويته وأصالته. فقه أصيل عقلاي يدرس مشاكل الأمة الإسلامية ويضع لها الحلول المناسبة.
٤ . فتح باب الاجتهاد:

وما تميز به فقه أهل البيت (عليهم السلام) عن بقية الفقه الإسلامي هو فتح باب الاجتهاد الذي أقفل في المذاهب الأخرى. وهذا إن دلت على شيء فإنه يدل على أصالته وتفاعله مع الحياة واستمراره في العطاء لجميع شؤون الإنسان. فلا يقف مكتوف الأيدي أمام الأحداث المستجدة التي يتخبط بها الناس وعلى الأخص في العصر الأموي الذي ولدت فيه أحداث جديدة لم تكن موجودة في العصور السابقة

(٥).

لقد أدرك علماء المسلمين من الأزهر مدى الحاجة الملحة إلى فتح باب الاجتهاد وموافقة الشيعة في هذه الظاهرة حيث لم يجدوا لبعض المشاكل حلاً مناسباً إلا على مائدة أهل البيت. يقول أحمد أمين: (وقد أصيب المسلمون بحكمهم على أنفسهم بالعجز، وقولهم بإقفال باب الاجتهاد لأن معناه لم يبق في الناس من تتوفر فيه شروط المجتهد، ولا يرجى أن يكون ذلك في المستقبل، وإنما قال هذا القول: بعض المقلدين لضعف ثقتهم بأنفسهم وسوء ظنهم بالناس)(٦). ويؤكد عالم آخر عرف برجاحة عقله وبعد تفكيره، وهو السيد رشيد رضا بضرورة فتح باب الاجتهاد فيقول:

(ولا نعرف في ترك باب الاجتهاد منفعة ما، وأما مضاره فكثيرة وكلها ترجع إلى إهمال العقل، وقطع طريق العلم، والحرمان من استغلال الفكر، وقد أهمل المسلمون كل علم بترك الاجتهاد فصاروا إلى ما نرى)(٧).

فهو يرى أن إهمال المسلمين لفتح باب الاجتهاد أوقعهم بمشاكل كثيرة كانوا بغنى عنها. فالإسلام دين الحياة والأحياء يكره جمود الفكر ويدعو إلى الانطلاق في ميادين الفكر ورحاب العلم، ولذلك يرى من الضروري فتح باب الاجتهاد وفرض التقليد لأن ليس فيه خروج على المنطق والدليل وأما إقفاله فقد كان في زمن خاص فرضته الأحوال السياسية للحكومات القائمة في تلك العصور حسبما يقول الباحثون.

والآن سوف نعطي بعض المسائل الفقهية التي أثرت عن فقه الإمام الباقر (عليه السلام).

إن ما أثر عن الإمام الباقر من المسائل الفقهية يستدعي تدوين موسوعة فقهية ضخمة، ذلك أن معظم أبواب الفقه وبحوثه قد رويت عنه، إلا أننا نذكر بعض المسائل التي رويت عنه، منها:

حكم القتال في الإسلام:

سأله رجل من الشيعة عن حكم القتال في الإسلام بصورة عامة وحروب جده أمير المؤمنين (عليه السلام) التي جرت في عهده. فقال له (عليه السلام): (بعث الله محمداً (صلى الله عليه وآله) بخمسة أسياف: ثلاثة منها شاهرة لا تغمد حتى تضع الحرب أوزارها، ولن تضع الحرب أوزارها حتى تطلع الشمس من مغربها فإذا طلعت الشمس من مغربها أمن الناس كلهم في ذلك اليوم فيومئذ لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً، وسيف منها مغمود، سله إلى غيرنا، وحكمه إلينا، وسيف مكفوف.

فأما السيوف الثلاثة الشاهرة: فسيف على مشركي العرب، قال تعالى: (... فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد)(٨). ويتابع قوله تعالى: (فإن تابوا وأقاموا الصلاة

وأتوا الزكاة فأخوانكم في الدين ونفصل الآيات لقوم يعلمون)(٩). هؤلاء لا يقبل منهم إلا القتل أو الدخول في الإسلام، وأموالهم فيء وذراريهم سبي على ما سن رسول الله (صلى الله عليه وآله) فإنه سبي وعفا وقبل الفداء.

والسيف الثاني: على أهل الذمة. قال تعالى: (وقولوا للناس حسناً)(١٠). نزلت هذه الآية في أهل الذمة، ونسخها قوله: (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون)(١١).

فمن كان من أهل الذمة في دار الإسلام فلن يقبل منهم إلا: الجزية أو القتل، وليس لهم فيء، وذراريهم سبي، فإذا قبلوا الجزية على أنفسهم حرم علينا سبيهم وحرمت أموالهم، وحلت لنا مناكحتهم)(١٢) ومن كان منهم في دار الحرب حل لنا سبيهم وأموالهم، ولم تحل لنا مناكحتهم، ولم يقبل منهم إلا دخول دار الإسلام والجزية أو القتل.

والسيف الثالث:

على مشركي العجم كالترك والديلم والحزر. قال تعالى: أول السورة: الذين كفروا ثم يذكر بعدهم المشركين: (فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما مناً بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها...)(١٣).

فقوله: (فإما مناً بعد) يعني بعد السبي منهم. (وإما فداء) يعني المفاداة بينهم وبين أهل الإسلام. فهؤلاء لن يقبل منهم إلا القتل أو الدخول في الإسلام، ولا يحل لنا نكاحهم ما داموا في الحرب. وأما السيف المكفوف:

فسيف على أهل البغي والتأويل. قال تعالى: (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله)(١٤). فلما نزلت هذه الآية قال رسول الله (صلى الله عليه وآله):

إن منكم من يقا تل بعدي على التأويل كما قاتلت على التنزيل، فسئل النبي (صلى الله عليه وآله) من هو؟ فقال: خاصف النعل. يعني أمير المؤمنين. وقال عمار بن ياسر: قاتلت بهذه الراية مع رسول الله (صلى الله عليه وآله) ثلاثاً (١٥) وهذه الرابعة والله لو ضربونا حتى يبلغوا بنا السعفات من هجر لعلمنا أنا على الحق، وأنهم على الباطل (١٦)، وكانت السيرة فيهم من أمير المؤمنين (عليه السلام) مثل ما كان من رسول الله (صلى الله عليه وآله) في أهل مكة يوم فتحها فإنه لم يسب لهم ذرية، وقال: من أغلق بابيه فهو آمن، ومن ألقى سلاحه فهو آمن، وكذلك قال أمير المؤمنين (عليه السلام): يوم البصرة نادى فيهم لا تسبوا لهم ذرية ولا تدفوا على جريح (١٧)، ولا تتبعوا مدبراً، ومن أغلق بابيه وألقى سلاحه

فهو آمن.

والسيف المغمود:

هو السيف الذي يقام به القصاص. قال الله عز وجل: (النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص فمن تصدق به فهو كفارة له ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون)(١٨) فسله إلى أولياء المقتول وحكمه إلينا. هذه السيوف قد بعث الله بها محمداً (صلى الله عليه وآله) فمن جردها أو جحد واحداً منها أو شيئاً من سيرها فقد كفر بما أنزل الله تبارك وتعالى على محمد نبيه)(١٩). وفقهاء المسلمين استمدوا هذه الأحكام وطبقوها على قتال أهل البغي من سيرة الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) في حرب الجمل كما أخذوا عن الإمام الباقر وغيره من الأئمة المعصومين الكثير من الأحكام فيما يعود إلى حكم القتال في الإسلام وغيره من الأحكام. المسح على الخفين:

لقد جوز أئمة أهل البيت (عليهم السلام) المماساة على الخفين ولم يسوغوا غيرها بينما خالف ذلك فقهاء المذاهب الإسلامية وجوزوا المسح على الخفين في الوضوء. يقول الربيع: أدركت الناس يمسحون على الخفين في الوضوء حتى لقيت رجلاً من بني هاشم، محمد بن علي بن الحسين فسألته عن المسح؟ فنهاني عنه وقال: لم يكن أمير المؤمنين (عليه السلام) يمسح، وكان يقول سبق الكتاب المسح على الخفين، وهو يعني الآية: (وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم) والآية ظاهرة فيما حكم به أهل البيت (عليهم السلام)(٢٠).

هذه بعض المسائل الفقهية التي أدلى بها الإمام الباقر (عليه السلام) ومعظم أبواب الفقه أصولاً وفروعاً قد أخذت عنه.

وبعد علم الفقه الذي أتحننا به الإمام الباقر ماذا عن علم الأصول؟

(١) أصول الكافي ج ١ ص ١٩٢.

(٢) روضة الواعظين ص ٢٧.

(٣) أعلام الورى ص ٢٧٠.

(٤) نفسه ص ٢٧٠.

(٥) مثل التلقيح الاصطناعي وزرع الأعضاء وغير ذلك.

(٦) يوم الإسلام ص ١٨٩.

(٧) الوحدة الإسلامية ص ٩٩.

(٨) سورة التوبة، الآية ٥.

- (٩) سورة التوبة، الآية ١١٨ .
 (١٠) سورة البقرة، الآية ٨٣ .
 (١١) سورة التوبة، الآية ٢٩ .
 (١٢) الكافي باب (المنالك).
 (١٣) سورة محمد، الآية ٤ .
 (١٤) سورة الحجرات، الآية ٩ .
 (١٥) الثلاث هي: يوم بدر ويوم أحد ويوم حنين .
 (١٦) هجر: بلدة باليمن .
 (١٧) لا تدفوا على جريح: أي لا تجهزوا عليه .
 (١٨) سورة المائدة، الآية ٤٥ .
 (١٩) تحف العقول ص ٢٨٨ وما بعدها ورواه الكليني في فروع الكافي والشيخ الصدوق في الخصال،
 والشيخ الطوسي في التهذيب .
 (٢٠) روضة الواعين ص ٢٤٣ .

علم الأصول

ومن العلوم الدينية التي فتق أبوابها الإمام الباقر (عليه السلام) وسبر أغوارها علم الأصول الذي يعد من أجل العلوم الإسلامية بعد علم الفقه. لأن الاجتهاد يتوقف عليه حيث أن المجتهد لا يتمكن من الفتوى إلا بعد أن يحصل على ملكة الاجتهاد (١).

أجمع العلماء على أن أسبق من أسس هذا العلم، وأرسى قواعده هو الإمام الباقر (عليه السلام). يقول السيد حسن الصدر (إن أول من فتح بابيه . أي باب علم الأصول . وفتق مسائله هو باقر العلوم الإمام محمد بن الباقر (عليه السلام) وبعده ابنه أبو عبد الله الصادق (عليه السلام) وقد أمليا فيه على جماعة من تلامذتهما قواعده ومسائله، جمعوا من ذلك مسائل رتبها المتأخرون على ترتيب مباحثه ككتاب آل الرسول وكتاب (الفصول المهمة في أصول الأئمة) وكتاب (الأصول الأصلية) كلها بروايات الثقات مسندة، متصلة الإسناد إلى أهل البيت (عليهم السلام)(٢).

وفيما يلي بعض القواعد الأصولية التي أسسها الإمام (عليه السلام) أو نقلها عن أجداده الطاهرين وإليها يرجع الفقهاء عند عدم النص على الحكم الشرعي.

قاعدة التجاوز:

وهي الحكم على وجود الشيء المشكوك بعد الدخول في غيره مما هو مترتب عليه (٣). كما إذا شك في القراءة وقد ركع، وقد نقل عن الإمام الباقر (عليه السلام) والإمام الصادق (عليه السلام) في عدم العناية

بالشك والمضي في الصلاة.

قاعدة الفراغ:

وهي تعنى بالحكم على صحة الفعل الموجود في ظرف الشك في صحته (٤) قال الإمام الباقر (عليه السلام) في ذلك: (كل ما شككت فيه مما قد مضى فأمضه كما هو) (٥). كما دلت على ذلك صحيحة محمد بن مسلم عن الإمام الباقر (عليه السلام) جاء فيها: (كلما شككت فيه بعدما تفرغ من صلاتك فامض ولا تعد) (٦) وعلى ضوء هذا أفتى فقهاء الإمامية بعدم الاعتناء بالشك في أفعال الصلاة بعد الفراغ منها.

قاعدة نفي الضرر:

هذه القاعدة هي من القواعد المهمة في التشريع الإسلامي (نفي الضرر) ومفادها نفي الحكم المؤدي إلى الضرر. ويترتب عليها كثير من الأحكام ذكرها الفقهاء. وقد نص عليها الإمام الباقر (عليه السلام) فقال لزرارة: إن سمرة بن جندب (٧) كان له عنق (٨) في حائط لرجل من الأنصار، وكان منزل الأنصاري بباب البستان وكان سمرة يمر إلى نخلته ولا يستأذن، فكلمه الأنصاري أن يستأذن إذا جاء فأبى سمرة، فجاء الأنصاري إلى النبي (صلى الله عليه وآله) فشكا إليه وأخبره بالخبر، فأرسل رسول الله إليه وأخبره بقول الأنصاري وما شكاه، فقال (صلى الله عليه وآله): إذا أردت الدخول فاستأذن، فأبى، فلما أبى ساومه حتى بلغ من الثمن ما شاء الله، فأبى أن يبيعه، فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله) للأنصاري اذهب واقطعها وارم بها إليه فإنه لا ضرر ولا ضرار (٩).

وقد ذكر الأصوليون هذا الحديث وما يترتب عليه من الأحكام.

الاستصحاب:

وهو أحد الأصول التي يرجع إليها الشاك في مقام العمل، أما سبب شكه فيرجع إلى فقدان النص، أو إلى تعارض النصوص وتساقطها فيما إذا تكافأت، ولم يكن أحدهما أرجح من الآخر. ولا يجري الاستصحاب حتى يتوفر في المستصحب اليقين السابق والشك اللاحق، وقد نص الإمام الباقر (عليه السلام) على حجبة الاستصحاب في كثير من المسائل التي سئل عنها وبصورة خاصة في أبواب الشك في الصلاة، وقد ذكرت تلك الأخبار في (وسائل الشيعة) وغيرها من الموسوعات الفقهية. تعارض الخبر وعلاجه:

وردت أخبار كثيرة عن أئمة أهل البيت (عليهم السلام) متعارضة في مدلولها بين النفي والإيجاب في موضوع واحد. ولا ريب أن هذا اللون من التعارض يستحيل أن يصدر عن أئمة أهل البيت العترة الطاهرة المعصومون. وإذا ثبت التعارض فلا يخلو من أمرين:

الأول: صدور أحدهما للنقبة، من المعروف أن الأئمة رواد الإصلاح في الأمة الإسلامية، قد ابتلوا بفراغنة زمانه وحكام طغاة ظالمين نكّلوا بهم وبشيعتهم، وقد أحاطوا مجالسهم بمخابرات ومباحث تعزلهم عن سائر المسلمين. هذه الظروف القاسية والخطرة كانت حرجة جداً، فإذا سئلوا عن مسألة وشكوا في أمر السائل أو كان في المجلس من يخافون منه أفتوا بالمسألة على رأي الجمهور حذراً من الغدر بهم والتكيل.

الثاني: أن يكون أحد الخبرين من الأخبار الموضوعة عليهم لأن وضع الحديث وافتعاله قد كثر في تلك العصور لأسباب سياسية معروفة افتعلها المرتزقة من الرواة عند الأمويين.

وكانت معرفة الخبر الصحيح وتمييزه عن غيره من الأخبار الموضوعة تهم المتحرجين في دينهم من الرواة. فأسرعوا إلى الإمام الباقر (عليه السلام) وسألوه عن ذلك فوضع عند ذلك (عليه السلام) البرامج العلاجية والقواعد الأساسية التي على ضوئها يتوضح الصحيح من الفاسد هذه المبادئ هي:

١ . الشهرة:

وتعني الشهرة بالرواية لا في الفتوى فإذا كان أحد الخبرين المتعارضين مشهوراً بالرواية أكثر من الآخر يؤخذ به وأما الشاذ النادر فيطرح. يقول الإمام الباقر (عليه السلام) لزرارة: (يا زرارة خذ بما اشتهر بين أصحابك ودع الشاذ النادر) فالشاذ النادر من الخبرين يطرح ولا يؤخذ به ويعول على الخبر المشهور بين الرواة.

٢ . موافقة الكتاب والسنة:

المقياس المعول عليه أيضاً الذي وضعه الإمام (عليه السلام) لعلاج التعارض هو عرض الخبرين المتعارضين على الكتاب والسنة، فإن اتفق أحدهما مع منطوق الكتاب والسنة يؤخذ به وما لا يوافقهما يطرح ويسقط. قال (عليه السلام) لأصحابه: (لا تصدق علينا إلا بما يوافق كتاب الله وسنة نبيه).

٣ . الترجيح بالصفات:

المقياس الثالث لمعرفة الخبر الصحيح هو النظر في صفات الراوي من حيث الوثاقة والعدالة، فنقدم روايته على من لا تتوفر فيه هذه الصفات يقول الإمام الباقر لزرارة:

(خذ بما يقوله أعدلهما عندك وأوثقهما).

يسمى الخبر الصحيح بالمتواتر. يقول الأمدي:

(اتفق القائلون بحصول العلم عن الخبر المتواتر على شروط منها ما يرجع إلى المخبرين ومنها ما يرجع

إلى المستمعين. فأما ما يرجع إلى المخبرين:

١. أن يكونوا قد انتهوا من الكثرة إلى حد يمتنع تواطؤهم على الكذب.

٢. أن يكونوا عالمين بما أخبروا به لا ظانين.

٣. أن يكون علمهم مستند الحس لا إلى دليل العقل فقط.

٤. أن يستوي طرفا الخير ووسطه في هذه الشروط لأن خبر كل عصر مستقل بنفسه، فكانت هذه الشروط معتبرة فيه (١٠).

وأما ما يرجع إلى المستمعين:

فأن يكون المستمع متأهلاً لقبول العلم بما أخبر به، غير عالم به قيل ذلك، وإلا كان فيه تحصيل الحاصل. غير أن من زعم أن حصول العلم بخبر التواتر نظري، شرط تقدم العلم بهذه الأمور على حصول العلم بخبر التواتر ومن زعم أنه ضروري لم يشترط سبق العلم بهذه الأمور (١١).
أما الشيعة فإنهم شرطوا وجود المعصوم في خبر التواتر حتى لا يتفقوا على الكذب، وهو باطل أيضاً، لأنه لو اتفق أهل بلد من بلاد الكفار على الأخبار عن قتل ملكهم أو أخذ مدينة فإن العلم يحصل بخبرهم.

وهذا بالنسبة إلى الشيعة خطأ (١٢).

(١) كفاية الأصول ج ٢ باب الاجتهاد.

(٢) الشيعة وفنون الإسلام ص ٩٥.

(٣) حقائق الأصول ج ٢ ص ٥٤٧.

(٤) حقائق الأصول ج ٢ ص ٥٤٧.

(٥) مستمسك العروة الوثقى ج ٧ ص ٣٥٠.

(٦) نفسه ج ٧ ص ٣٤٩.

(٧) سمرة بن جندب صحابي كذاب كان من سماسة معاوية وأعوانه على نشر الظلم والإرهاب. استعمله زياد بن أبيه والياً على البصرة فأسرف في قتل الأبرياء فقتل فيما يقول المؤرخون ثمانية آلاف تاريخ الطبري ج ٦ ص ٦٣٢.

(٨) العذق: النخلة ويكسر العين عنقود التمر.

(٩) في رواية عن الإمام الباقر (عليه السلام): (ما أراك يأسرمة إلا مضار اذهب يا فلان فاقلعه وارم بها وجهه).

(١٠) الأحكام في أصول الأحكام ج ٢ ص ٢٤ وعلم الرواية للشهيد الثاني ص ١٤.

(١١) قواعد التحديث ص ١٤٧.

(١٢) نقد الحديث في علم الرواية وعلم الدراية ج ١ ص ٥١٢ للمؤلف عن الشهيد الثاني في علم الدراية. الإمام وعلم الاقتصاد

عالمج الإمام (عليه السلام) في محاضراته وسيرته أهم الأبحاث الاقتصادية التي تعمل على تحسين

أحوال المعيشة وتنشيط الحركة العمالية.

من هذه الأبحاث نذكر:

١ . تحسين الأحوال المعيشية:

دعا الإمام (عليه السلام) جميع أفراد الأمة إلى السعي الحثيث والجد الدؤوب في طلب المعيشة لينعم الإنسان بالرخاء والرفاه مع أسرته ومع المجتمع الذي يعيش فيه، ويتجنب بذلك بؤس الفقر وذل الحاجة ويعيش بكرامة من عرق جبينه وكدميمينه. قال (عليه السلام): (من تسلىح لطلب المعيشة خفت مؤونته، ورخا باله، ونعم عياله) ومع توفر المال يجب توفر الأخلاق وحسن السلوك. قال (عليه السلام): (بسعة الخلق تطيب المعيشة).

فالجد في طلب المعيشة الشريفة يوفر للإنسان الحياة الاقتصادية الحافلة بالرخاء والنعم، وراحة البال وهدوء الاستقرار، وإن الحياة يطيب مناخها وينعم بال أفرادها في ظلال الرخاء، ولا رخاء بدون اقتصاد. فاققتصاد ناجح حياة ناجحة.

٢ . العمل يطرد الكسل:

الكسل موجب لشل الحركة الاقتصادية وتجميد الطاقات الإنسانية، ونشر الفساد في الأرض. يقول (عليه السلام): (الكسل يضر بالدين والدنيا)(١).

وهذا أمر طبيعي لأن الكسول يتقاعس عن القيام بواجباته الدينية ولا يؤدي فرائضه على وجه تام ولا يقوم بواجباته المطلوبة وهذا بلا ريب يضر

بالدين. وأما أنه يضر بالدنيا فإن الكسول يميل دائماً إلى الخمول مما يسبب له حياة بائسة تسودها الحاجة ويضنيها الفقر. وقد حذر الإمام (عليه السلام) بعض أبنائه من الكسل فقال له: (إياك والكسل والضجر فإنهما مفتاح كل شر، من كسل لم يؤدّ حقاً، ومن ضجر لم يصبر على حق) وقال علماء الاجتماع: العمل يبعد عنك ثلاث آفات: الفقر والضجر والرذيلة (٢).

وقد شجع القرآن الكريم على العمل. قال تعالى: (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون..)(٣).

فالعمل يطرد الكسل وهو واجب على كل فرد منا والله يأمرنا بذلك وهو يراقب أعمالنا ورسوله والمؤمنون لتكون أعمالاً صالحة يفيد منها الفرد لنفسه وعياله ومجتمعه.

والإسلام بكل اعتزاز يريد للإنسان أن ينطلق في هذه الحياة فيعمل وينتج ويسعد. كما يريد له أن يؤدي حقوق الناس ويرتبط معهم ارتباطاً وثيقاً من خلال سلوكه الحسن، ويؤدي ما عليه من واجبات عائلية واجتماعية. وهذا ما دعا الإمام (عليه السلام) إلى التحذير من الكسل لأن الكسل يهمل حقوق الله وحقوق عباد الله.

٣ . التشجيع على العمل:

كان الإمام (عليه السلام) يمقت تارك العمل لأنه يؤدي إلى ضعف الإنتاج وزيادة البطالة وانتشار الأزمات الاقتصادية في البلاد. قال (عليه السلام): (إني أمقت الرجل الذي يتعذر عليه المكاسب فيستلقي على قفاه، ويقول: اللهم ارزقني، ويدع أن ينتشر في الأرض، ويلتمس من فضل الله، والذرة تخرج من حجرها وتلتمس رزقها)(٤) والله عز وجل يطلب إلينا أن ننتشر في الأرض بعد أن نقوم بواجباتنا الدينية لنعمل وننتج ونعيش. قال تعالى: (فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله)(٥).

٤ . العمل في طاعة الله:

كان الإمام (عليه السلام) يرى أن العمل هو طاعة الله، فيعمل بنفسه في أرضه يزرعها ويروبها ويصلحها. يقول محمد بن المنذر: خرجت إلى بعض نواحي المدينة، فلقيني أبو جعفر محمد بن علي (عليه السلام) وكان بادناً ثقيلاً، وهو متكئ على غلامين أسودين، وموليين، فقلت في نفسي: سبحان الله شيخ من أشياخ قريش في هذه الحالة، وفي هذه الساعة يخرج في طلب الدنيا!! أما أني لأعظنه فدنوت منه، فسلمت عليه، وهو يتصبب عرقاً، فقلت له: (أصلحك الله، شيخ من أشياخ قريش في هذه الساعة يخرج لطلب الدنيا؟! أرايت لو جاء أجلك على هذه الحالة ما كنت تصنع؟) فأجابه الإمام بمنطق الإسلام قائلاً:

(لو جاعني الموت، وأنا في طاعة من طاعات الله عز وجل أعمل فأكف نفسي وعيالي عنك وعن الناس، وإنما كنت أخاف لو جاعني الموت وأنا على معصية من معاصي الله).
فخجل الرجل، ولم يطق جواباً، وانبرى يقول: (صدقت يرحمك الله أردت أن أعظك فوعظتني).
فالعامل على حد تعبير الإمام طاعة من طاعات الله لأن به سد الحاجة وكف النفس والعيال من الاحتياج عما في أيدي الناس والذي يكشف يستطيع أن يعطي والذي يعطي خير من الذي يأخذ لأن (اليد العليا خير من اليد السفلى) على حد قول الرسول الأعظم.

٥ . سك الدراهم والدنانير:

قام الإمام الباقر (عليه السلام) بأسمى خدمة للعالم الإسلامي، فقد حرر النقد من التبعية إلى الإمبراطورية الرومية، حيث كان النقد يصنع في بلاد الروم ويحمل شعارهم. فجعله الإمام (عليه السلام) مستقلاً بنفسه يحمل الشعار الإسلامي. والسبب في ذلك: هو أن عبد الملك بن مروان نظر إلى قرطاس قد طرز بمصر فأمر بترجمته إلى العربية، وقد كتب عليه الشعار المسيحي: الأب والابن والروح. فأنكر ذلك، وكتب إلى عامله على مصر عبد العزيز بن مروان بإبطال ذلك وأن يحمل المطرزين للثياب والقرطاس وغيرها على

أن يطرزها بشعار التوحيد، ويكتبوا عليها: (شهد الله أنه لا إله إلا هو). وكتب إلى عماله في الآفاق بإبطال ما في أعمالهم من القراطيس المطرزة بطراز الروم، ومعاقبة من وجد عنده شيئاً بعد هذا النهي، وقام المطرزون بكتابة ذلك، فانتشرت في الآفاق، وحملت إلى الروم. ولما علم ملك الروم بذلك استشاط غضباً وكتب إلى عبد الملك أن عمل القراطيس بمصر، وسائر ما يطرز إنما يطرز بطراز الروم إلى أن أبطلته، فإن كان من تقدمك من الخلفاء قد أصاب فقد أخطأت، وإن كنت قد أصبت فقد أخطأوا، فاختر من هاتين الحالتين أيهما شئت وأحببت، وقد بعثت لك بهدية تشبه محلك، وأحببت أن تجعل رد ذلك الطراز إلى ما كان عليه في جميع ما كان يطرز من أصناف الأعلاق حالة أشكرك عليها وتأمر بقبض الهدية.

ولما قرأ عبد الملك الرسالة أعلم الرسول أنه لا جواب له عنده كما رد الهدية. وقفل الرسول إلى ملك الروم فأخبره الخبر، فكتب ملك الروم إلى عبد الملك يتهدده ويتوعده. ولما قرأ عبد الملك التهديد ضاقت عليه الأرض، وحر كيف يصنع وراح يقول: أحسبني أشأم مولد في الإسلام، لأنني جنيت على رسول الله (صلى الله عليه وآله) من شتم هذا الكافر، وسيبقى عليّ هذا العار إلى آخر الدنيا فإن النقد الذي توعدني به ملك الروم إذا طبع سوف يتناول في جميع أنحاء العالم. جمع عبد الملك الناس، وعرض عليهم الأمر فلم يجد عند أحد رأياً حاسماً. أشار عليه أحدهم يدعى: روح بن زنباع، فقال له: إنك لتعلم المخرج من هذا الأمر، ولكنك تتعمد تركه، فأنكر عليه عبد الملك وقال له:

(ويحك من؟). (عليك بالباقر من أهل بيت النبي (صلى الله عليه وآله) فأذعن عبد الملك، وصدقه على رأيه، وعرفه أنه غاب عليه الأمر، كتب من فوره إلى عامله على يثرب يأمره بإشخاص الإمام وأن يقوم برعايته والاحتفاء به، وأن يجهزه بمائة ألف درهم، وثلاثمائة ألف درهم لنفقته، ولما انتهى الكتاب إلى العامل قام بما عهد إليه، وخرج الإمام من المدينة إلى دمشق. ولما وصل إليها استقبله عبد الملك، واحتفى به، وعرض عليه الأمر فقال (عليه السلام): (لا يعظم هذا عليك فإنه ليس بشيء من جهتين: إحداهما أن الله عز وجل لم يكن ليطلق ما تهدد به صاحب الروم في رسول الله (صلى الله عليه وآله) والأخرى وجود الحيلة فيه..).

وظفق عبد الملك حائراً؟ (وما هي؟).

قال (عليه السلام): تدعو في هذه الساعة بصناع فيضربون بين يديك سككاً للدرهم والدنانير، وتجعل النقش صورة التوحيد وذكر رسول الله (صلى الله عليه وآله) أحدهما في وجه الدرهم، والآخر في الوجه الثاني، وتجعل في مدار الدرهم والدنانير ذكر البلد الذي يضرب فيه والسنة التي يضرب فيها، وتعتمد إلى وزن ثلاثين درهماً عدداً من الأصناف الثلاثة إلى العشرة منها وزن عشرة مثاقيل، وعشرة منها وزن ستة

مئاقيل، وعشرة منها وزن خمسة مئاقيل، فتكون أوزانها جميعاً واحداً وعشرين مثقالاً، فتجزئها من الثلاثين فيصرا لعدة من الجميع وزن سبعة مئاقيل، وتصب صنجات من قوارير لا تستحيل إلى زيادة ولا نقصان، فتضرب الدراهم على وزن عشرة، والدنانير على وزن سبعة مئاقيل وأمره بضرب السكة على هذا اللون في جميع مناطق العالم الإسلامي، وأن يكون التعامل بها، وتلقى السكة الأولى، ويعاقب بأشد العقوبة من يتعامل بها، وترجع إلى المعامل الإسلامية لتصب ثانياً على الوجه الإسلامي.

وامتثل عبد الملك كلام الإمام (عليه السلام)، فضرب السكة حسبما رأى (عليه السلام) ولما فهم ملك الروم ذلك سقط ما في يده، وخاب سعيه، وظل التعامل بالسكة التي صممها الإمام (عليه السلام) حتى في زمان العباسيين (٦) وكما يظهر واضحاً أن العالم الإسلامي مدين للإمام الباقر بما أسداه إليه من الفضل في تحرير النقد الإسلامي وإنقاذه من تبعية الروم وجعله مستقلاً بنفسه يصنع في البلاد الإسلامية ويحمل شعار الإسلامي ويتعامل به جميع المسلمين في شتى الأقطار الإسلامية. وعندها رد عبد الملك على ملك الروم: افعل ما كنت هددت به ملك العرب. فقال: إنما أردت أن أغيظه بما كتبت به إليه لأني كنت قادراً عليه فأما الآن فلا أفعل لأن ذلك لا يتعامل به أهل الإسلام. وثبت ما أشار به محمد بن علي بن الحسين إلى اليوم (٧).

قال: ثم رمى بالدرهم إلى بعض الخدم وقال: علي بالخازن...).

(١) تحف العقول ص ٢٧٠.

(٢) نفسه ص ٢٧١.

(٣) سورة التوبة، الآية ١٠٥.

(٤) الذرة: النملة الصغيرة.

(٥) سورة الجمعة، الآية ١٠.

(٦) المحاسن والأضداد للبيهقي . وحياة الحيوان للدميري ج ١ ص ٦٢.

(٧) نفسه ج ٢ ص ١٢٩.

الإمام في رحاب العلم والعلماء

في رحاب العلم

تحدث الإمام الباقر كثيراً وفي مناسبات عديدة عن العلم فشجع على طلبه وحث الطلاب على المزيد من تحصيله لأنه على ثقة من أمره أن العلم نور العقل وهو الدعامة الأولى التي ترتكز عليها حياة الأمم المتطورة والراقية.

كما أشاد بفضل العلماء ورثة الأنبياء، فهم برأيه مصدر الوعي والتوجيه للأمة وعليهم مسؤوليات كبرى

في الإصلاح والإرشاد وهذا بعض ما أثر عنه في هذا الحقل الكريم. فقال (عليه السلام) في:
فضل العلم

تميز أهل البيت بالعلم خصهم الله به فكانوا رواده وخزائنه وأنواره وقد أخذوه سالف عن سابق عن جدهم
أمير المؤمنين، مدينة علم النبي الأكرم عن جدهم الرسول الأعظم. والله عز وجل فضل المؤمنين
وميزهم قال تعالى: (هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون)(١). وقال الرسول الأعظم: (العلم
خزائن، ومفتاحها السؤال، فاسألوا رحمكم الله فإنه يؤجر أربعة: السائل والمجيب، والمستمع، والمحب
لهم)(٢).

والإمام الباقر (عليه السلام) الحفيد الوفي لأبائه وأجداه مجد العلم ودعانا إليه وأثنى على طلابه. فقال
(عليه السلام): (تعلموا العلم فإن تعلمه جنة، وطلبه عبادة، ومذاكرته تسبيح والبحث عنه جهاد، وتعليمه
صدقة، وبذله لأهله قرية، والعلم منار الجنة، وأنس الوحشية، وصاحب في الغربة، ورفيق في الخلوة،
ودليل على السراء، وعون على الضراء، وزين عند الأخلاء، وسلاح على الأعداء، يرفع الله به قوماً
ليجعلهم في الخير أنمة، يقتدى بفعالهم، وتقتص آثارهم، ويصلى عليهم كل رطب ويابس، وحيتان البحر
وهوامه، وسباع البر وأنعامه) فيا سبحان الله إنه (عليه السلام) سليل العلماء وفخر الأدياء وحفيد النبي
(صلى الله عليه وآله) وابن الوصي فلا غرابة إن نطق بهذه الكلمات الذهبية وهذا الوصف الكامل
الشامل، والموجز المفيد، ولا أعرف كلمة مجدت العلم، وقيمت أهله، أحاطت بفوائده وثمراته كهذه الكلمة
التي من حقها أن ترسم في معاهد العلم وجامعاته ومن حقنا الواجب أن نعلمها ونشرحها ونبين فوائدها
لطلابنا في الجامعة.

مذاكرة العلم

على الطالب أن يذكر العلم لترسخ جذوره في نفسه وتتعلم فوائده في حياته ويستفيد منه ويفيد طلابه.
ولذلك دعا الإمام (عليه السلام) إلى مذاكرة العلوم لأنها تفتح آفاقاً واسعة في ميادين المعرفة والعلم فقال
(عليه السلام): (تذاكر العلم دراسة، والدراسة صلاة حسنة)(٣) فهل بعد هذا التفضيل من تفضيل؟
الدراسة صلاة حسنة. وهل يعي طلابنا ما تتحمل هذه العبارة من قيم سامية وما يرشح منها من فوائد
عالية؟

بذل العلم

الغاية من جمع العلم في الإسلام بذله لأهله وإشاعته بين الناس حتى يطرد الجهل وتتعم البلاد بالسعادة.
لذلك وجدنا باقر العلم يقول: (زكاة العلم أن تعلمه عباد الله)(٤).

وقال أيضاً (عليه السلام): (إن الذي تعلم العلم منكم له أجر مثل الذي يعلمه، وله الفضل عليه، تعلموا

العلم من حملة العلم، وعلموه إخوانكم كما علمكم العلماء(٥).

الفتوى بغير علم

لقد نهى الإمام (عليه السلام) عن الفتيا بغير علم لأنها مصدر الغواية للناس وضلالهم، وهذه بعض ما أثر عنه:

أ . (من أفتى الناس بغير علم، ولا هدى لعنته ملائكة الرحمن ولعنته ملائكة العذاب، ولحقه وزر من عمل بفتواه)(٦).

ب . وقال (عليه السلام): (ما علمتم فقولوا: وما لم تعلموا فقولوا: الله أعلم إن الرجل ينتزع الآية من القرآن يخرب فيها أبعد ما بين السماء والأرض)(٧).

ج . سأل زرارة الأمام الباقر (عليه السلام) ما حق الله على العباد؟ قال (عليه السلام): (أن يقولوا ما يعلمون، ويقفوا عندما لا يعلمون)(٨).

د . وقال (عليه السلام): (للعالم إذا سئل عن شيء وهو لا يعلمه أن يقول: الله أعلم وليس لغير العالم أن يقول ذلك)(٩).

ومن الأمور التي حذر الإمام منها بشأن العلم:

ذم المباهاة بطلب العلم

حذر الإمام الباقر (عليه السلام) العلماء من المباهاة بطلب العلم و الافتخار به وناشد أهل العلم مجاهدة نفوسهم على التقرب به إلى الله عز وجل وأن يلتمسوا به الدار الآخرة. قال في ذلك (عليه السلام):

(من طلب العلم ليباهي به العلماء أو يماري به السفهاء، أو يصرف به وجوه الناس فليتبوأ مقعده من النار، إن الرياسة لا تصلح إلا لأهلها)(١٠).

فعلى العلماء الأتقياء أن يخلصوا في علمهم الديني ليكونوا دعاة سلم وهداية على الأرض وعليهم إذا أرادوا السعادة في الدنيا والآخرة أن يخلصوا في نيتهم لله تعالى لا يبتغون غير وجه الكريم. وأما الأغراض الدنيوية الفاسدة والدواعي الشخصية السقيمة فإنها تحبط الأجر الجزيل الذي أعده سبحانه وتعالى لطلاب العلم، فعليهم ابتغاء وجه الله به وهو القادر الوهاب يرزق من يشاء ويغير حساب.

العمل بالعلم

فائدة العلم، العمل به ولذلك حث الإمام (عليه السلام) أهل العلم بتطبيق ما علموه على واقع حياتهم،

يقول (عليه السلام): (إذا سمعتم العلم فاستعملوه ولتنتسح قلوبكم، فإن العلم إذا كثر في قلب رجل لا

يحتمله قدر الشيطان عليه، فإذا خاصمكم الشيطان فأقبلوا عليه بما تعرفون، فإن كيد الشيطان كان

ضعيفاً، فقال له ابن أبي ليلى: وما الذي نعرفه؟ قال (عليه السلام): خاصموه بما ظهر لكم من قدرة الله

عز وجل)(١١).

فالعلم نور يطرد الظلام بنوره الساطع، والعلم قدرة يبعد الشيطان من التسلط على الإنسان، والعلم سلطة يهب الإنسان مكانة مرموقة في مجتمعه ويغنيه عن ذلك السؤال.

قبول العمل بالمعرفة

وقد وضع الإمام شروطاً لقبول العمل، والشرط الأساسي هو المعرفة. فمن يعمل بدون معرفة فلا فائدة مرجوة من عمله، ولا أثر للواجب الذي يؤديه. قال (عليه السلام): (لا يقبل عمل إلا بمعرفة ولا معرفة إلا بعمل، ومن عرف دلتته معرفته على العمل، ومن لا يعرف فلا عمل له)(١٢). وهذا بلا ريب أمر طبيعي لأن المعرفة هي أساس الجودة والمهارة في العمل. من هنا كان قول الرسول الأعظم: (من عمل منكم عملاً فليتقنه) و الإتيان لا يتم إلا بالمعرفة.

الحث على التعلم

حث الإمام (عليه السلام) على التعلم والسؤال من أهل العلم فقال: (العلم خزائن والمفاتيح السؤال، فاسألوا يرحمكم الله فإنه يؤجر في العلم أربعة: السائل والمتكلم والمستمع والمحب لهم)(١٣).
آداب المتعلم

وكما وضع مبادئ العلم وأصوله، وضع أيضاً مبادئ المتعلمين وكيف يجب أن يتصرفوا تجاه معلمهم. من هذه البرامج الرائعة لآداب المتعلمين يقول (عليه السلام): (إذا جلست إلى عالم فكن على أن تسمع أحرص منك على أن تقول، وتعلم حسن الاستماع كما تتعلم حسن القول، ولا تقطع على أحد حديثه)(١٤).

كلام تربوي رائع ونصائح تعليمية خالدة تتضمن فن الإصغاء ومبدأ الأخذ وأصول التعليم الحديثة يفيد منها كل عصر.

وكما أن هناك مبادئ أصولية للقول في جميع ضروبه من شعر ونثر كذلك هناك مبادئ الاستماع، والذي يسمع عليه أن لا يتكلم لأنه ليس في حوار مع العالم، وعليه أن لا يقاطع العالم حديثه لأن ذلك غير مرغوب فيه تربوياً وأدبياً.

فما أحرانا نحن اليوم أن نطبق هذه المبادئ التربوية الرفيعة وما أحرى بطلابنا أن يأخذوا بهذه النصائح الرائعة.

وبعد أن تحدث (عليه السلام) عن آداب المتعلم الآن يحدثنا عن آداب المعلم. فمن هو العالم الذي يجب أن نأخذ ونستمع إليه؟

صفات العالم

تحدث الإمام (عليه السلام) في كثير من محاضراته وأحاديثه عن صفات

العالم وما يجب أن يتحلى به أو يتجنبه في منهجه التعليمي.
أ . البعد عن الحسد والحقد:

قال الإمام (عليه السلام): (لا يكون العبد عالماً فيما إذا صفت نفسه من الحسد الذي هو أعظم الآفات النفسية، فهو الذي يلقي الناس في البلاء ويجر لهم الخطوب، كما أن العالم لا يكون عالماً فيما إذا احتقر من دونه فإنه يتم عن عدم انتفاعه بالعلم الذي يدعو إلى تكريم الناس، ومقابلتهم بالأخلاق الرفيعة فإن الرسول (صلى الله عليه وآله) إنما بعث ليتمم مكارم الأخلاق، وإذا تجرد العالم من هذه الظاهرة فقد شذ عن سنن الرسول وأخلاقه ولا يكون العبد عالماً حتى لا يكون حاسداً لمن فوقه، ولا محتقراً لمن دونه)(١٥).

ب . الزهد في الدنيا:

قال (عليه السلام): (إن الفقيه حق الفقه الزاهد في الدنيا الراغب في الآخرة المتمسك بسنة النبي (صلى الله عليه وآله))(١٦).

ج . البعد عن الجاه والسلطان:

قال (عليه السلام):

(إذا رأيتم القارئ . أي العالم . يحب الأغنياء فهو صاحب دنيا وإذا رأيتموه يلزم السلطان من غير ضرورة فهو لص)(١٧).

إن مصاحبة العالم للأغنياء هو الطمع في أموالهم، وما يستفيد منهم لمنافع خاصة وهذا بلا شك يسقط من كرامته ويضعف من أخلاقه. فالعلماء الشرفاء يرجون الله في علمهم ولا يرجون غيره وأما ملازمة السلطان من غير حاجة ولا ضرورة، فإنه ينم عن بعد ذلك العالم عن الواقعية وعن الكرامة الإنسانية، وأنه . لص . على حد تعبير الإمام (عليه السلام). يقول أبو العتاهية في هجاء العلماء الطماعين المترددين على بلاطات السلاطين:

عجباً لأرباب العقول والحرص في طلب الفضول

سلاب أكسية الأرا مل واليتامى والكهول

والجامعين المكثرين من الخيانة والغلول

والمؤثرين لدار رحلتهم على دار الحلول

ولها بأطراف الفرع وأغفلوا علم الأصول

وتتبعوا جمع الحطام وفارقوا أثر الرسول (١٨)

وقال محمود الوراق في هجاء مثل هؤلاء العلماء فقال (١٩):

ركبوا المراكب واغتموا زمرًا إلى باب الخليفة
حتى إذا ظفروا بما طلبوا من الحال اللطيفة

خانوا الخليفة عهده بتعسف الطرق المخوفة
باعوا الأمانة بالخيانة واشتروا بالأمن جيفة
ضاقت قبور القوم وات سعت قصورهم المنيفة
متفكة جمع الحديد إلى قياس أبي حنيفة
فأتاك يصلح للقضاء بلحيفة فوق الوظيفة
لم ينتفع بالعلم إذ شغفته دنياه الشغوفة
نسي الإله ولاذ في الدنيا بأسباب ضعيفة

أما العلماء الشرفاء الذين يبغون وجه الله عز وجل في علمهم ويعملون على إصلاح مجتمعهم وإرشاد
الناس إلى الخير والصلاح ولا يبغون من وراء ذلك لا جزاءً ولا شكوراً سوى رضى الله جل وعلا وسعادة
الناس. هؤلاء طلب إلينا الإمام (عليه السلام) مجالستهم.
مجالسة العلماء

دعا الإمام (عليه السلام) إلى مجالسة العلماء والمتحرجين في الدين والموثوق بهم في مجتمعهم
للاستفادة من هديهم وسلوكهم. قال (عليه السلام) (لمجلس أجلسه إلى من أثق به، أوثق في نفسي من
عمل سنة) (٢٠) هؤلاء العلماء المخلصون لدينهم وأمتهم لهم فضل كبير عند ربهم وقد أشاد بهم الإمام
(عليه السلام).
فضل العلماء

لقد أشاد الإمام (عليه السلام) بفضل هؤلاء العلماء، وبين سمو مكانتهم الاجتماعية وما أعد الله من أجر
فقال (عليه السلام):

- أ . (عالم ينتفع بعلمه أفضل من سبعين ألف عابد) (٢١).
- ب . (من علم باب هدى فله مثل أجر من عمل به، ولا ينقص أولئك من أجورهم شيئاً، ومن علم باب
ضلالة كان عليه وزر من عمل به ولا ينقص أولئك من أوزارهم شيئاً) (٢٢).
- ج . (ما من عبد يغدو في طلب العلم ويروح إلا خاض الرحمة خوضاً) (٢٣).

الإمام في رحاب الإيمان

حلل الإمام الباقر (عليه السلام) حقيقة الإيمان، ومراتبه، وتحدث في أحاديث كثيرة عن صفات المؤمنين
المتقيين وما أنعم الله عليهم وما إلى ذلك وهذا بعض ما أثر عنه في هذا المجال:

١ . حقيقة الإيمان:

عرف الإمام (عليه السلام) حقيقة الإيمان بقوله: (الإيمان ثابت في القلوب واليقين خطرات، فيمر اليقين بالقلب فيصير كأنه زبر الحديد ويخرج منه فيصير كأنه خرقة بالية)(٢٤).

يرى الإمام أن الإيمان إذا استقر في أعماق القلوب ودخائل النفوس فإنها تكون في صلابتها كزبر الحديد، تتحمل الأهوال، وتخوض الشدائد في سبيل ما تذهب إليه، وقد كان ذلك الإيمان الراسخ هو السميت البارز في مسيرة الأنبياء والأتقياء والمعلمين الشرفاء الذين قدموا أرواحهم قرابين لمبادئهم القويمة وآرائهم السليمة. أما إذا خرج الإيمان من القلب فإنه يكون خرقة بالية، يفقد عندها صاحبه قوة الإرادة وحسن الاختيار، ويصبح جامداً خالياً من الشعور والإحساس.

قال تعالى واصفاً المؤمنين: (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم)(٢٥). وقال رسول الله (صلى الله عليه وآله) في صفة المؤمن:

(الإيمان هيب)(٢٦) والتقدير صاحب الإيمان هيبوب. والعرب تقول: الباب لئيم: أي أنه مغلق دون الأضياف. والمراد أن صاحب الإيمان بما لديه من حواجز إيمانية وبصائر إيقانية يهاب تطرق الحوب (٢٧) ومواقعة الذنوب، فلا يقدم عليها إقدام المرتكس الهاوي والضال الغاوي. ومن الحقيقة إلى المراتب.

٢ - مراتب الإيمان:

تحدث الإمام (عليه السلام) عن مراتب الإيمان لأن المؤمنين لهم درجات عند ربهم، فقال (عليه السلام): (إن المؤمنين على منازل، منهم على واحدة، ومنهم على اثنين، ومنهم على ثلاث، ومنهم على أربع، ومنهم على خمس، ومنهم على ست. فلو ذهبت تحمل على صاحب الواحدة اثنتين لم يقو، وعلى صاحب الاثنين ثلاثاً لم يقو، وعلى صاحب الثلاث أربعاً لم يقو، وعلى صاحب الأربع خمساً لم يقو، وعلى صاحب الخمس ستاً لم يقو، وعلى صاحب الست سبعمائة لم يقو، وعلى هذه الدرجات)(٢٨) إن مراتب اليقين والمعرفة بالله متفاوتة وليست على درجة واحدة فقد أحاط الله بعض أنبيائه علماً بأسرار الكون وحقائق الوجود وما يحيط في هذه الدنيا من أحداث بما لم يمنح به غيرهم من رسله الآخرين، لأنهم لا يقوون على حملها. ومن هذا القبيل كان الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام)، باب مدينة علم النبي (صلى الله عليه وآله) ومستودع أسراره وحكمه قد أحاط بعض جوانبه كميث التمار علماً بما سيجري عليه من الخطوب والكوارث من بني أمية، وأطلع على كثير من الأسرار وعلى ما سيجري في آخر الزمان في حين أنه لم يخبر بذلك عبد الله بن عباس وهو حبر الأمة لعلمه (عليه السلام) بعدم قدرته على تحملها.

قال تعالى: (أولئك هم المؤمنون حقاً لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم)(٢٩) من هذه الدرجات

الكريمة الذين نصروا الرسول (صلى الله عليه وآله) قال تعالى: (والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقاً لهم مغفرة ورزق كريم)(٣٠). وعلى مقدار الإيمان كانت محن الأنبياء والمصلحين من قبل الظالمين والطغاة والمشركين متفاوتة وكان أشدهم إيذاءً وأعظمهم محنةً النبي (صلى الله عليه وآله) فقد أودى من قبل طواغيت قريش كأبي لهب وأبي سفيان... بما لم يؤذه أي نبي من أنبياء الله.

ثم أودى بعد انتقاله إلى جنة المأوى بعترته الطاهرة التي عانت من الظلم والتنكيل ما يذهل الألباب ويقصم الأصلاب. ولم يمض على وفاته (صلى الله عليه وآله) إلا خمسون عاماً فإذا برؤوس أبنائه على الحراب، وبناته سبايا من يثرب إلى دمشق، فأى محنة وأي بلاء أعظم من هذه المحنة وأشد من هذا البلاء!؟

٣ . صفات المتقين:

تحدث الإمام (عليه السلام) في أحاديث كثيرة عن التقوى وصفات المتقين، والإيمان والمؤمنين، وهذا بعض ما أثر عنه:

أ . قال (عليه السلام): (أهل التقوى أيسر أهل الدنيا مؤونة، وأكثرهم معونة، إن نسيت ذكرك، وإن ذكرت أعانوك، قولين بحق الله، قوامين بأمر الله)(٣١).

هذه الصفات يتصف بها القلائل من أفراد الأمة، الجهابذة والعباقرة الذين يمثلون قوة الإنسانية ومثلها الأعلى في الحياة الحضارية الراقية، ويقومون بدورها في سبيل الإصلاح والرشاد.

ب . وقال (عليه السلام): (إنما المؤمن إذا رضي لم يدخله رضاه في إثم ولا باطل وإذا سخط لم يخرج سخطه من قول الحق: والمؤمن إذا قدر لم تخرجه قدرته إلى التعدي إلى ما ليس بحق)(٣٢). من أبرز صفات المؤمن بربه أن يكون متميزاً في سلوكه ومتميزاً في شخصيته، يلجم نفسه عند الغضب ويعف عند المقدرة، رائده الحق في جميع تصرفاته.

ج . وقال (عليه السلام): (الغنى والعز يجولان في قلب المؤمن فإذا وصلا إلى مكان فيه التوكل استوطناه)(٣٣).

هؤلاء وصفهم الله عز وجل قال تعالى: (الأمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله)(٣٤).

د . تحدث (عليه السلام) عن الفرق بين الإيمان والإسلام فقال: (الإيمان ما كان في القلب والإسلام ما عليه التناكح، وحققت به الدماء والإيمان يشرك الإسلام (٣٥) والإسلام لا يشرك الإيمان). الإيمان يقيم في ضمائر المتقين، يخشون به الله تعالى ويخافون عقابه، فلا يتركون واجباً، ولا يقترفون إثماً.

أما الإسلام فهو من أسلم وجهه لله تعالى، فإذا نفذ إلى أعماق القلب صار المسلم مؤمناً، وإذا بقي كلمة على اللسان فلا يعتد به. وإلى هذا أشارت الآية الكريمة التي تقول: (قالت الأعراب آما قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم)(٣٦).

الإيمان: قول باللسان وعمل بالأركان، والمؤمن يعرف بنتائج أعماله الصالحة، فهي البرهان الواضح والأكيد على عمق إيمانه. وللإمام الباقر (عليه السلام) كلام آخر يفرق بين الإيمان والإسلام يقول: (الإيمان إقرار وعمل، والإسلام إقرار بلا عمل)(٣٧).

واقتراب القول بالعمل أمر ضروري للعطاء المثمر والتقدم الفالح وعندما يقترن القول بالعمل ينجبان صبيهاً يسميانه الصدق. وعندما يقترن القول بالعمل يرزقان بنتاً يسميانه الوفاء ويلعب الجميع لعبة أظنها الحرية.

د . عطاء الله للمؤمنين:

منح الله المؤمنين المزيد من أطفاه وفضله، وقد وعدهم سبحانه بالجنة. قال تعالى: (وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومسكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم)(٣٨) الله أكبر ما أروع وأمتع وأفضل هذا الوعد الجميل والجليل!! وتحدث الإمام الباقر (عليه السلام) عن العطاء الذي أفاضه تعالى عليهم بقوله: (إن الله أعطى المؤمن ثلاث خصال: العز في الدنيا في دينه، والفلج في الآخرة، والمهابة في صدور العالمين)(٣٩) هذه بعض أحاديثه (عليه السلام) في الإيمان وهي على سبيل الذكر لا الحصر.

(١) سورة الزمر، الآية ٩.

(٢) المجازات النبوية للشريف الرضي ص ٢٠٩.

(٣) أصول الكافي ج ١ ص ٤١.

(٤) نفسه ج ١ ص ٤١.

(٥) حياة الإمام محمد الباقر للقرشي ج ١ ص ٢٣٦.

(٦) أصول الكافي ج ١ ص ٤٢.

(٧) أصول الكافي ج ١ ص ٤٣.

(٨) نفسه ج ١ ص ٤٣.

(٩) تحف العقول ص ٢٩٧.

(١٠) أصول الكافي ج ١ ص ٤٧ وجامع السعادات ج ١ ص ١٠٦.

- (١١) أصول الكافي ج ١ ص ٤٥.
- (١٢) نفسه ج ١ ص ٤٥ وتحف العقول ص ٢٩٤.
- (١٣) الخصال ص ٣٢٣ والمرجح أن هذا الحديث أخذه الإمام الباقر (عليه السلام) عن جده الرسول الأعظم راجع المجازات النبوية للشريف الرضي ص ٢٠٩ رقم الحديث ١٦٩،
- (١٤) أصول الكافي ج ١ ص ٤١،
- (١٥) تحف العقول ص ٢٩٤،
- (١٦) أصول الكافي ج ١ ص ٧٠.
- (١٧) الإمام الصادق لأبي زهرة ص ٢٤.
- (١٨) جامع بيان العلم وفضله ج ١ ص ٢٠١.
- (١٩) نفسه ج ١ ص ٢٠١.
- (٢٠) أصول الكافي ج ١ ص ٣٤.
- (٢١) جامع بيان العلم وفضله ج ١ ص ٣٢ وجامع السعادات ج ١ ص ١٠٤.
- (٢٢) أصول الكافي ج ١ ص ٣٤.
- (٢٣) حياة الإمام محمد الباقر لشريف القرشي ج ١ ص ٢٣٥.
- (٢٤) حلية الأولياء ج ٣ ص ١٨٠.
- (٢٥) سورة الأنفال، الآية ٢.
- (٢٦) المجازات النبوية ص ٢٣١ والهيوب: الخشية والخوف.
- (٢٧) الحوب: الذنب والإثم قال تعالى: (إنه كان حوباً كبيراً) أي إثماً كبيراً.
- (٢٨) أصول الكافي باب درجات الإيمان.
- (٢٩) سورة الأنفال، الآية ٤.
- (٣٠) سورة الأنفال، الآية ٧٤.
- (٣١) شذرات الذهب ج ١ ص ١٤٩.
- (٣٢) الخصال ص ١٠١.
- (٣٣) صفة الصوفة ج ٢ ص ٦١.
- (٣٤) سورة التوبة، الآية ١١٢.
- (٣٥) تحف العقول ص ٢٩٧.
- (٣٦) سورة الحجرات، الآية ١٤.
- (٣٧) تحف العقول ص ٢٩٧.

(٣٨) سورة التوبة، الآية ٧٢.

(٣٩) الخصال ص ١٣٣.

أنوار بهية من وصاياه القيمة

الوصية زبدة الأفكار وخلاصة الآراء، تتجمع في وجدان الإنسان بعد تجارب عديدة في الحياة وعندما يتقل وزنها تتطلق من صدور أصحابها غنية بمادتها، مصيبة في أهدافها لأنها صادرة من عقل راجح وفكر طامح وشعور عميق وفكر دقيق.

وقد أثر عن حفيد النبوة وصايا كثيرة وجه بعضها لأبنائه وبعضها الآخر لأصحابه، وهي تزخر بأداب السلوك، وتفيض بالقيم العظيمة والمثل العليا الكريمة. قالها (عليه السلام) من أجل التوجيه الصالح الذي يصون الإنسان من الانحراف، والإرشاد الصحيح الذي يحفظ الأمة من الانزلاق في المتهاتات المظلمة والمنعطفات الخطرة.

من هذه الوصايا الخالدة نذكر:

١ . وصاياه لولده الصادق. قال (عليه السلام):

(يا بني إن الله خبأ ثلاثة أشياء في ثلاثة أشياء: خبأ رضاه في طاعته، فلا تحقرن من الطاعة شيئاً فلعل رضاه فيه. وخبأ سخطه في معصيته فلا تحقرن من المعصية شيئاً فلعل سخطه فيه. وخبأ أولياءه في خلقه فلا تحقرن أحداً فلعله ذلك الولي)(١) يرشح من هذه الوصية الأخلاق العالية، والترغيب في طاعة الله تعالى والحث عليها، كما تتضمن التحذير من المعصية، والتشديد في أمرها، وأنهاها بالحث على تكريم عباد الله وعدم الاستهانة بأي أحد منهم. (فالخلق كلهم عيال الله وأقربهم إليه أنفعهم لعياله). ثم روى الإمام (عليه السلام) إحدى وصايا أبيه إلى سفيان الثوري فقال له: (يا سفيان أمرني أبي بثلاث، ونهاني عن ثلاث. فكان فيما قال لي: يا بني من يصحب صاحب سوء لا يسلم، ومن يدخل مداخل سوء يتهم، ومن لا يملك لسانه يندم، ثم أنشدني:

عود لسانك قول الخير تحظ به إن اللسان لما عودت يعتاد

موكل بتقاضي ما سننت له في الخير والشر فانظر كيف تعتاد (٢)

فتأمل هذه الوصايا التي تفيض الحكم الرائعة، وتحفل بجميع مقومات الآداب السلوكية والآداب الأخلاقية والفضائل الإنسانية.

٢ . وصيته لعمر بن عبد العزيز:

عرف عمر بن عبد العزيز بعدله وتقواه فأزال الظلم عن كاهل المظلومين ومنع السب على المنابر عن أمير المؤمنين، وأعطى الحرية لجميع الناس ليتنفسوا الصعداء ويشكوا عن مضايقاتهم وظلاماتهم. دخل مرة الإمام (عليه السلام) على عمر حينما ولي الخلافة فقال له: يا أبا جعفر أوصني فقال (عليه

(السلام):

(أوصيك بتقوى الله، وأن تتخذ صغير المسلمين ولداً، وأوسطهم أماً وكبيرهم أباً، فارحم ولدك، وصل أحاك، وبرك أباك، وإذا صنعت معروفاً فربه) (٣).

فلما سمع عمر هذه الحكمة الجامعة بهر بها وأعجب وقال:

(جمعت والله ما إن أخذنا به، وأعاننا الله عليه استقام لنا الخير إن شاء الله) (٤)

فما أحوجنا نحن اليوم لمسؤولين يتحلون بهذه الصفات الكريمة، سياسة العدل والإنصاف لا سياسة المحسوبية والإجحاف. ما أحوجنا لرئيس يعتبر الأمة من أفراد أسرته، ويعاملهم كما يعامل الرجل أهله فيشيع فيهم الخير، ويبسط فيهم العدل. وعندئذ يسعد الشعب والحكومة معاً وتستقيم الأمور ويعم الخير. ولكن من أين لنا هذا الخير ومن حولنا مسؤولون همهم أنفسهم وتكديس الأموال على الأموال والشعب يزرح تحت أفدح الأحمال!؟

٣. وصيته لبعض أبنائه:

أوصى الإمام (عليه السلام) بعض أبنائه بهذه الوصية القيمة. فقال له: (يا بني إذا أنعم الله عليك نعمة فقل: الحمد لله وإذا أحزنك أمر فقل: لا حول ولا قوة إلا بالله، وإذا أبطأ عنك رزقك فقل أستغفر الله) (٥).

٤. وصيته لجابر الجعفي:

جابر بن يزيد الجعفي هو تلميذ الإمام الباقر (عليه السلام) أوصاه بهذه الوصية الخالدة والشاملة لجميع القيم الكريمة والمثل العليا التي يسمو بها الإنسان إلى أعلى المراتب الإنسانية فيما لو طبقها على واقع حياته. وهذا بعض ما جاء فيها من درر ثمينة.

(أوصيك بخمس: إن ظلمت فلا تظلم، وإن خانوك فلا تخن، وإن كُذبت فلا تغضب، وإن مُدحت فلا تقرح، وإن ذممت فلا تجزع. وفكر فيما قيل فيك، فإن عرفت من نفسك ما قيل فيك فسقوطك من عين الله عز وجل عند غضبك من الحق أعظم عليك مصيبة مما خفت من سقوطك من أعين الناس، وإن كنت على خلاف ما قيل فيك: فثواب اكتسبته من غير أن يتعب بدنك. واعلم بأنك لن تكون لنا ولياً حتى لو اجتمع عليك أهل مصرك، وقالوا: إنك رجل سوء لم يحزنك ذلك، ولو قالوا: إنك رجل صالح لم يسرك ذلك، ولكن اعرض نفسك على كتاب الله فإن كنت سالكاً سبيله زاهداً في تزهيده راغباً في ترغيبه، خائفاً من تخويفه فاثبت وابشر، فإنه لا يضرك ما قيل فيك، وإن كنت مبابئاً للقرآن، فماذا الذي يغرك من نفسك. إن المؤمن معني بمجاهدة نفسه ليغلبها على هواها، فمرة يقيم أودها ويخالف هواها في محبة الله ومرة تصرعه نفسه فيتبع هواها فينعهه الله، فينتعش، ويقبل الله عترته فيتذكر، ويفزع إلى التوبة والمخافة فيزداد بصيرة ومعرفة لما زيد فيه من الخوف وذلك بأن الله يقول:

(إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون)(٦) يا جابر استكثر لنفسك من الله قليل الرزق تخلصاً إلى الشكر واستقل من نفسك كثير الطاعة لله ازراء على النفس (٧) وتعرضاً للعفوف، وادفع عن نفسك حاضر الشر بحاضر العلم، واستعمل حاضر العلم بخالص العمل، وتحرز في خالص العمل من عظيم الغفلة بشدة التيقظ، واستجلب شدة التيقظ بصدق الخوف، واحذر خفي التزين بحاضر الحياة، وتوق مجازفة الهوى بدلالة العقل، وقف عند غلبة الهوى باسترشاد العلم. واستبق خالص الأعمال ليوم الجزاء، وانزل ساحة القناعة باتقاء الحرص، وادفع عظيم الحرص بإيثار القناعة، واستجلب حلاوة الزهادة بقصر الأمل، واقطع أسباب الطمع ببرد اليأس، وسد سبيل العجب بمعرفة النفس، وتخلص إلى راحة النفس بصحة التفويض، واطلب راحة البدن بإجمام القلب (٨) وتخلص إلى إجمام القلب بقلّة الخطأ، وتعرض لرقّة القلب بكثرة الذكر في الخلوات، واستجلب نور القلب بدوام الحزن. وتحرز من إبليس بالخوف الصادق، وإياك والرجاء الكاذب فإنه يوقعك في الخوف الصادق، وتزين لله عز وجل بالصدق في الأعمال، وتحبب إليه بتعجيل الانتقال وإياك والتسويق فإنه بحر يغرق فيه الهلكى، وإياك والغفلة ففيها تتكون قساوة القلب، وإياك والتواني فيما لا عذر لك فيه فإليه يلجأ النادمون. واسترجع سالف الذنوب بشدة الندم، وكثرة الاستغفار، وتعرض للرحمة وعفو الله بحسن المراجعة، واستعن على حسن المراجعة بخالص الدعاء، والمناجاة في الظلم، وتخلص إلى عظيم الشكر باستكثار قليل الرزق، واستقلال كثير الطاعة، واستجلب زيادة النعم بعظيم الشكر، والتوسل إلى عظيم الشكر بخوف زوال النعم. واطلب بقاء العز بأمانة الطمع، وادفع ذل الطمع بعز اليأس، واستجلب عز اليأس ببعد الهمة، وتزود من الدنيا بقصر الأمل، وبادر بانتهاز البغية عند إمكان الفرصة، ولا إمكان كالأيام الخالية مع صحة الأبدان، وإياك والثقة بغير المأمون فإن للشر ضراوة

كضراوة الغذاء. واعلم أنه لا علم كطلب السلامة، ولا سلامة كسلامة القلب، ولا عقل كمخالفة الهوى، ولا خوف كخوف حاجز، ولا رجاء كرجاء معين، ولا فقر كفقر القلب، ولا غنى كغنى النفس، ولا قوة كغلبة الهوى، ولا نور كنور اليقين، ولا يقين كاستصغارك للدنيا، ولا معرفة كمعرفتك بنفسك، ولا نعمة كالعافية، ولا عافية كمساعدة التوفيق، ولا شرف كبعد الهمة، ولا زهد كقصر الأمل، ولا حرص كالمنافسة في الدرجات، ولا عدل كالإنصاف، ولا تعدي كالجور، ولا جور كموافقة الهوى، ولا طاعة كأداء الفرائض، ولا خوف كالحزن، ولا مصيبة كعدم العقل، ولا عدم عقل كقلة اليقين، ولا قلة يقين كفقد الخوف، ولا فقد خوف كقلة الحزن على فقد الخوف، ولا مصيبة كاستهانتك بالذنوب، ولا رضاك بالحالة التي أنت عليها، ولا فضيلة كالجهاد ولا جهاد كمجاهدة الهوى، ولا قوة كرد الغضب، ولا مصيبة كحب البقاء، ولا ذل كذل الطمع، وإياك والتفريط عند إمكان الفرصة فإنه ميدان يجر لأهله بالخسران)(٩).

وتابع وصيته لجابر:

يا جابر إنه من دخل قلبه صافي دين الله أشغله عما سواه، يا جابر ما الدنيا وما عسى أن تكون، هل هي إلا ثوب لبسته، أو لقمة أكلتها، أو مركب ركبته، أو امرأة أصبتها.

يا جابر: إن المؤمنين لم يطمئنوا إلى الدنيا لبقاء فيها، ولم يأمنوا قدوم الآخرة عليهم، ولم يصمهم عن ذكر الله ما سمعوا بآذانهم من الفتنة، ولم يعمهم من نور الله ما رؤوا بأعينهم من الزينة، ففازوا بثواب الأحرار، إن أهل التقوى أيسر أهل الدنيا مؤونة وأكثرهم لك معونة، إن نسيت ذكرك، وإن ذكرت أعانوك، قوالين بحق الله، قوامين بأمر الله (١٠).

هذه الوصية الرائعة الحافلة بجواهر الحكم أضاعت جانباً كبيراً من مواهب الإمام (عليه السلام) وعبقرياته، ولو لم تكن له إلا هذه الوصية لكفت على الاستدلال على عظمته وما يملكه من طاقات علمية لا حدود لها.

لقد نظر حفيد رسول الله (صلى الله عليه وآله) إلى أعماق النفوس البشرية وحلل أبعادها وسبر أغوارها، وعرف ما ابتلى به الإنسان في ذلك العصر من آفات وأمراض خبيثة كالجهل والطمع والغرور والكبرياء والجشع... وما إلى ذلك مما دفعه إلى الإغراق في المعاصي واقتراف الآثام والانحراف عن طريق الحق، طريق الإسلام القويم.

درس الإمام هذه الأمراض الأخلاقية والاجتماعية فوضع لها العلاج اللازم والدواء الحاسم. ولكن هل يلتزم الإنسان بهذه الوصفة الطبية؟ إنه لو التزم بها لعاد إنساناً مثالياً في سلوكه وأخلاقه يصون نفسه من الانزلاق في متاهات الدنيا الفانية، ويتصل بخالقه العظيم الذي إليه مرجعه ومآله. والآن من المواعظ القيمة إلى الحكم العظيمة والمواعظ الخالدة.

(١) الفصول المهمة ص ٢٩.

(٢) الخصال ص ١٥٧.

(٣) الأمالي لأبي علي القالي ج ٢ ص ٣٠٨ وره: أي أدمه يقال: رب بالمكان: أقام فيه.

(٤) تاريخ دمشق ص ٣٨.

(٥) البيان والتبيين ج ٣ ص ٢٨٠ وبحار الأنوار ج ١٧ ص ١٦٧.١٦٨.

(٦) سورة الأعراف، الآية ٢٠٠.

(٧) ازراء: أي احتقاراً واستخفافاً بها.

(٨) إجمام: راحة القلب والجمام بالفتح: الراحة.

(٩) تحف العقول ص ٢٨٤.٢٨٦.

(١٠) تذكرة الخواص ١٩١.

حكم الإمام (عليه السلام) ومواعظه

هذه بعض الحكم والمواعظ للإمام الباقر (عليه السلام) جاءت من فوح القرآن الكريم وبوح وجدانه العظيم ولنا ملء الأمل أن تؤخذ لدى طلاب العلم للبحث والتفكير، والدراسة والتمحيص، ثم العمل على تطبيقها في الحياة الفردية والجماعية، والالتزام بما اشتملت عليه من تعاليم اجتماعية ودروس أخلاقية ليتحقق الغرض الأسمى الذي أراده (عليه السلام) من هدف هذه الحكم الخالدة على صدر الزمن. من روائع هذه الحكم:

قال (عليه السلام): (قم بالحق، واعتزل ما لا يعينك، وتجنب عدوك واحذر صديقك من الأقوام، إلا الأمين من خشي الله، ولا تصحب الفاجر ولا تطلعه على شرك، واستشر في أمرك الذين يخشون الله) أراد لنا الإمام القيام بالحق وعدم الخوض فيما لا يعيننا، وأن نحذر أعداءنا ونصادق المؤمنين الذين يخشون الله والبعد عن الفاجرين الأشرار الذين لا يخافون الله. وبهذا نفيد ونستفيد. وقال: (ثلاثة من مكارم الدنيا والآخرة: أن تعفو عن ظلمك، وتصل من قطعك، وتحلم إذا جهل عليك). ولا يتصف بهذه الصفات سوى المؤمن العاقل الصابر.

وقال (عليه السلام): (ما من عبادة لله تعالى أفضل من عفة بطن أو فرج، وما من شيء أحب إلى الله تعالى من أن يسأل، وما يدفع القضاء إلى الدعاء. وإن أسرع الخير ثواباً البر والعدل، وأسرع الشر عقوبة البغي، وكفى بالمرء عيباً أن يبصر من الناس ما يعمى عنه من نفسه، وأن يأمرهم بما لا يستطيع التحول عنه، وأن يؤذي جليسه بما يعنيه)(١).

من أراد أن يكون عفيف البطن والفرج عليه أن يتسلح بقوة الإرادة. ومن أراد أن يتقرب من الله تعالى عليه بالسؤال والدعاء. ومن أراد الخير له ولغيره عليه براً عادلاً وبذلك يبتعد عن محارم الله. وعلى المرء أن ينظر إلى عيوبه قبل أن ينظر إلى عيوب الآخرين وعندها فلا يمكن أن يطلب منهم ما لا يستطيع التحول عنه. وبذلك يصلح أمر المجتمع. وقال (عليه السلام): من صدق لسانه زكاً عمله، ومن حسنت نيته زيد في رزقه، ومن حسن بره بأهله زيد في عمره (٢).

إن الصدق في اللسان يزكي الأعمال، والنوايا الحسنة تزيد في الرزق لأن الله سبحانه وتعالى أقرب إلينا من حبل الوريد يعلم ما بأنفسنا، وحسن نواياكم ترزقون.. والبر بالأهل عمل إنساني في أمر به رب العالمين فقال سبحانه: (... وبالوالدين إحساناً) (٣).

وقال (عليه السلام): (إن أشد الناس حسرة يوم القيامة عبد وصف عدلاً ثم خالفه إلى غيره)(٤).

فعلى الإنسان ألا يكون ذا وجهين مظهره يختلف عن جوهره.
وقال (عليه السلام): (من أعطى الخلق والرفق فقد أعطى الخير والراحة، وحسن حاله في دنياه وآخرته،
ومن حرم الخلق والرفق كان ذلك سبيلاً إلى كل شر وبلية إلا من عصمه الله)(٥).
الأخلاق الحسنة صفة المسلم المؤمن فمن اتصف بها أعطى الخير والراحة في الدنيا والآخرة. وقد أحبها
سبحانه وتعالى للإنسان فوصف بها رسوله الأعظم (صلى الله عليه وآله). قال تعالى: (وانك لعلى خلق
عظيم)(٦).

وقال (عليه السلام): (أعرف المودة في قلب أخيك بما له في قلبك)(٧). فإذا أردنا أن نعرف ما في
قلوب إخواننا من خير أو شر تجاهنا فلننظر إلى أنفسنا فما نحمله لهم يحملون لنا. فعلينا أن نحمل
الخبر لنلاقي الخير عند الآخرين.

وقال (عليه السلام): (ما دخل قلب امرئ شيء من الكبر إلا نقص من عقله مثل ذلك)(٨).
يتميز المسلم العاقل بتواضعه لإخوانه مهما جمع من العلوم والمعارف. ويكون محبوباً في مجتمعه
محترماً بين أهله وأصحابه، بينما نرى المتكبر مذموماً مكروهاً بعيداً عن الناس، وهذا دليل واقعي على
نقص في تفكيره. لأن الحياة لا تحلو إلا بين الأهل والأصحاب الأوفياء. فمن لا إخوان له لا حياة سعيدة
له. وقد حذر أمير المؤمنين (عليه السلام) المتكبرين فذكرهم قائلاً: (أعجب للإنسان كيف يتكبر وقد
خرج من مخرج البول مرتين).

وقال (عليه السلام): (لموت عالم أحب إلى إبليس من موت سبعين عابداً)(٩) فعلى العابد أن يتحلى
بالعلم والمعرفة، وكلما ازداد العبد علماً ابتعد عنه إبليس مسافة بقدر علمه، لأن الكأس المملأ بالماء
يمنتع فيها دخول الهواء، والنفس المملأ بالعلم والتفقه في الدين يمنتع إليها دخول الشيطان، فلنتسلح
بالمعرفة الدينية لنأمن من دخول الشيطان إلى نفوسنا (١٠).
ومن هنا قول الإمام الباقر (عليه السلام): (لا يقبل عمل إلا بمعرفة ولا معرفة إلا بعمل، ومن عرف
دلته معرفته على العمل ومن لم يعرف فلا عمل له)(١١).

الأصل في العمل المعرفة، لأن المعرفة هي سلاح الإنسان لإتقان أعماله. فمن لا يتسلح بالعمل فلا
يتمكن من إتقان أعماله وإخراجها بشكل جيد يفيد منها نفسه ويفيد بها مجتمعه. وكلما ازداد الإنسان علماً
ومعرفة ازداد إتقانه لعمله وأبدع فيه.

. وقال (عليه السلام): (ليس شيء مميل للإخوان إليك مثل الإحسان إليهم)(١٢). الإحسان إلى الآخرين
من المثل العليا التي دعا إليها الإسلام وقد طلب إلينا الله سبحانه وتعالى أن نحسن إلى عباد الله لأنه
عز وجل يحب المحسنين. قال تعالى: (وأحسنوا إن الله يحب المحسنين)(١٣).
وإذا أحسننا فالإحسان ليس منا وإنما هو من عند الله، فهو الذي أنعم علينا بنعمه التي لا تحصى فعلينا

أن نحسن إلى الناس كما أحسن إلينا رب الناس إله الناس، رب العالمين. قال تعالى:
(وأحسن كما أحسن الله إليك)(١٤).

والإحسان كما قال الإمام الباقر (عليه السلام) يميل إلينا قلوب من نحسن إليهم ويشدنا إلى بعضنا
ويمتن الروابط الاجتماعية فيما بيننا. قال أبو الطيب المتنبّي في ذلك:
أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم فطالما استعبد الإنسان إحسان
وقال (عليه السلام): (من لم يجعل من نفسه واعظاً فإن مواعظ الناس لن تغني عنه شيئاً)(١٥).
الإرادة القوية التي تعمل في سبيل الله هي التي تجعل من الفرد إنساناً كريماً قوياً محترماً. وتربية النفس
هي العامل الأساسي في نجاح الإنسان في حياته الفردية وحياته الاجتماعية على حد سواء.
فالمسلم هو من يعظ نفسه وينتج بها نحو الخير والعزة والكرامة ولا تفيد مواعظ الآخرين مهما علت
مراتب أصحابها ولا تؤثر في سلوك الفرد إذا لم يكن من نفسه واعظاً لها. وكل موعظة تفيد وتثمر إذا
وجدت في نفس الإنسان أرضاً صالحة لإقامتها.

وقال (عليه السلام): (إنما شيعة علي المتبادلون في ولايتنا، المتحابون في مودتنا، المتأزرون لإحياء
الدين إذا غضبوا لم يظلموا، وإذا رضوا لم يسرفوا، بركة على من حاورهم، وسلم لمن خالطهم)(١٦).
الشيعة المتبادلون في ولاية أهل البيت هم المتحابون في مودتهم ولا يكونون متحابين حتى يتأزروا لإحياء
الدين فإذا غضبوا لا يصرفهم غضبهم عن العدالة، وإذا رضوا اعتدلوا، فيصبحون بذلك بركة على من
جاورهم وسلم لمن خالطهم. وهذه هي صفات المؤمن المتميز بسلوكه الحسن وأخلاقه العالية.
وقال (عليه السلام): (المتكبر ينافع الله رداءه)(١٧).

إن الكبرياء والعظمة هما رداء الله تعالى يكسوهما خليقته، ويلبسهما بريته، ولا يقدر إليه على أن ينزع
منهما ما ألبسه، أو يلبس منهما ما نزع. والمراد بذلك العظمة والكبرياء على حقيقتها، دون ما يعتقدوه
الجهال أنه عظمة وكبرياء وليس بهما، وذلك مثل ما نشأ من تعظيم الحاكمين والمتملكين، فليس ذلك
بتعظيم من الله سبحانه لهم، ولا بإفاضة من كبريائه عليهم، وإنما العظمة والكبرياء في الحقيقة هما
الكرامة التي يلقبها الله سبحانه على رسله وأنبياؤه، والقائمين بالقسط من عباده، فيعظمون بها في عيون
الناس ويجلون في الصدور والقلوب وإن كانت ظواهرهم غير لائقة. فالعظمة والكبرياء هما رداء الله لأنه
يكسوهما. ويجري ذلك مجرى قولنا: بيت الله: وليس بساكنه وعرش الله وليس براكبه.
. وقال (عليه السلام): (من عمل بما يعلم، علمه الله ما لا يعلم)(١٨).

وهذا أمر طبيعي أن يعمل الإنسان بما يعلم وهذا كل ما يطلب منه فهو يعطي قدرته وجهده ولا يطلب
منه فوق طاقته. لأن (الله لا يكلف نفساً إلا وسعها)(١٩). أما إذا عمل فوق ما يعلم فإنه يقع في
أحضان الجهل ويبتعد عن الهدف المنشود.

وقال (عليه السلام): (بئس العبد يكون ذا وجهين وذا لسانين، يطري أخاه في الله شاهداً، ويأكله غائباً، إن أعطي حسده، وإن ابتلي خذله)(٢٠).

لقد أراد (عليه السلام) ذم المنافق الذي يخالف ظاهره باطنه، وحاضره يضاد غائبه فكأنه يلقي أخاه في مشهده بصفحة المودة، ويتناوله في مغيبه بلسان الذم والمعصية، فيأكله غائباً، فإذا أنعم الله عليه حسده وإن وقع في مصيبة أو حادثة خذله وتخلّى عنه، والله عز وجل يكره النميمة. قال تعالى: (أحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه)(٢١).

وقال (عليه السلام): (ما عرف الله من عصاه، وأتشد:

تعصي الإله وأنت تظهر حبه هذا لعمرك في الفعال بديع

لو كان حبك صادقاً لأطعته إن المحب لمن أحب مطيع (٢٢)

هل يمكن لمن عصى ربه في أحكامه وخالفه في تشريعاته أن يطلب رضاه والعفو عنه؟ إن من يعرف الله الرزاق العليم والفتاح الكريم والغفور الرحيم، والقادر العظيم... لا يمكن إلا أن يطيعه ويسير على سنته ويعمل بما أمر وينتهي عما نهى (لأن المحب لمن أحب مطيع).

وقال (عليه السلام): (الحياء والإيمان مقرونان في قرن فإذا ذهب أحدهما تبعه صاحبه)(٢٣). يريد

(عليه السلام) أن الحياء يجمع خلال الإيمان، كما يجمع السلك فرائد النظام)(٢٤) لأن الإنسان الكثير الحياء يحجم عن مواجهة المعاصي والانزلاق في المغاوي، فإذا قل حياؤه قل إيمانه، فهو أشبه بالسلك في أنه إذا انقطع تهافتت خرز نظامه، وهذا ما عناه الشاعر بقوله:

يعيش المرء ما استحيا بخير ويبقى العود ما بقي اللحاء (٢٥)

وما أشبه هذا القول بقوله جده النبي الأعظم (صلى الله عليه وآله) قوله: (الحياة شعبة من الإيمان)(٢٦).

وقال (عليه السلام): (من قسم له الخرق حجب عنه الإيمان) تكون المسؤولية على قدر ما يتمتع

الإنسان من قوى عقلية فإذا قل عقله حجب عنه الإيمان. قال الحكماء: (إذا أخذ ما وهب سقط عنه ما وجب) وأغنى غنى العقل. كلما زاد معه الإيمان.

وقال (عليه السلام): (إن المؤمن أخو المؤمن، لا يشتمه، ولا يحرمه، ولا يسيء به الظن)(٢٧).

(ولما كان المؤمن مرآة أخيه)(٢٨) فمن الطبيعي أن يحبه ويحترمه وبالتالي لا يشتمه ولا يحرمه، ولا يسيء به الظن.

فالمؤمن عليه أن يكون الناصح لأخيه المؤمن يبصره مواقع رشدته ويطلعه على خفايا عيبه، وهل يمكن لأخ مؤمن محب أن يشتم أخاه ويحرمه ويسيء به الظن؟ هذا غير مسموح في الإسلام الذي يقول: (إنما

المؤمنون أخوة فاصلحوا بين أخويكم(٢٩).

وقال (عليه السلام): (من أصاب مالا من أربع لم يقبل منه في أربع، من أصاب مالا من غلول أو ربا أو خيانة أو سرقة، لم يقبل منه في زكاة ولا في صدقة ولا في حج، ولا في عمرة)(٣٠).
صاحب المال مسؤول أمام الله تعالى عن كيفية جبايته كما هو مسؤول أيضاً عن كيفية صرفه فالواجب الشرعي يقضي عليه أن تكون جبايته من أوجه حلال ومشروعية، حتى ينفق في أمور حلال ومشروعة. أما إذا كانت جبايته من طرق حرمها الإسلام، كالربا أو السرقة أو غلول أو خيانة فلن يقبل منه في أي مشروع خيري.

والمال في الإسلام هو مال الله والإنسان قائم عليه يحرسه أوقاتاً معينة ثم يتركه لمن جاء بعده من الورثة.

وقال (عليه السلام): (شر الآباء من دعاه البر إلى الإفراط، وشر الأبناء من دعاه التقصير إلى العقوق)(٣١).

جاء الإسلام لتنظيم حياة الإنسان وإصلاحها من أي انحراف فدعا إلى الاعتدال في كل الأمور فقال: لا إفراط ولا تفريط. فالإفراط يوقع صاحبه في المهالك، والأزمات، والتفريط يجعل فاعله فريسة الندم والخسران. هذا بالنسبة للآباء.

أما شر الأبناء فهو الابن المقصر الذي يجره تقصيره إلى العقوق والإسلام دعا الأبناء إلى البر بالوالدين وليس إلى العقوق وعدم طاعتها. قال تعالى: (وبرا بوالديه ولم يكن جباراً عصياً)(٣٢).

وقال (عليه السلام): (كفى بالمرء عيباً أن يتعرف من عيوب الناس ما يعمى عليه من أمر نفسه، أو يعيب الناس على أمر هو فيه لا يستطيع التحول عنه إلى غيره، أو يؤذي جليسه بما لا يعنيه)(٣٣).

العجب كل العجب من إنسان يضع عيوب الناس على صدره فيتأملها وينتقدتها مستغرباً مدهوشاً، ويضع أخطأها على ظهره فلا يراها أو يتعامى عن رؤيتها.

والعجب أيضاً من آخر لا يحسن مداراة جليسه ولا يداري له شعوره، أو أنه يتحدث بحديث يؤذيه ولا من شأنه.

إن جليسيك له عليك حق، أن تؤنسه وتلاطفه وتراعي ظروفه وقد وصف المتنبّي من يعيب الناس على أمر هو فيه فقال:

لا تنه عن خلق وتأتي بمثله عار عليك إذا فعلت عظيم

. وقال (عليه السلام): (إني لا أكره أن يكون مقدار لسان الرجل فاضلاً على مقدار علمه، كما أكره أن

يكون مقدار علمه فاضلاً على مقدار عقله)(٣٤). لكل شيء إذا ما زاد نقصان، واللسان هو ترجمان

العقل ومعبر مطيع لما يأمره به، والرجل الفاضل هو الذي يكون لسانه معبراً على مقدار علمه، وإذا ما

زاد عن ذلك يعد من الثرثارين. أما إذا كان يحمل من العلم الكثير ويعجز لسانه عن بيان علمه فيكون من القاصرين. وكأنه جاهل لا يعلم ويصبح كما قال الشاعر:

كالعيس في البيداء يقتلها الظما والماء فوق ظهورها محمول

من هنا كان قول أمير المؤمنين (عليه السلام): (أغنى الغنى العقل) ومن هنا كان تعريف الجاحظ للإنسان الذكي عندما سئل عنه قال: الذكي هو الذي يعلم متى يتكلم وكيف يتكلم ومع من يتكلم. والإنسان الفاضل بتعريف الإمام الباقر: هو الذي يكون لسانه على مقدار علمه.

(١) تذكرة الخواص ص ١٩١.

(٢) أعيان الشيعة ج ٢ ص ٧١.

(٣) سورة البقرة، الآية ٨٣.

(٤) أعيان الشيعة ص ٧٤.

(٥) كشف الغمة ص ٢١٥. ٢١٦ والبداية والنهاية ج ٩ ص ٣١١.

(٦) سورة القلم، الآية ٤.

(٧) نور الأبصار ص ٢٠٩ وأئمتنا لعلي محمد علي دخیل ج ١ ص ٣٦٥.

(٨) أئمتنا لعلي محمد علي دخیل ص ٣٦٥.

(٩) حلية الأولياء ج ٣ ص ١٨١. ١٨٨.

(١٠) علم الاجتماع الأدبي للمؤلف فصل المعرفة الدينية ص

(١١) أئمتنا ص ٣٦٦.

(١٢) أئمتنا لعلي ممد علي دخیل ج ١ ص ٣٦٦.

(١٣) سورة البقرة، الآية ١٩٥.

(١٤) سورة القصص، الآية ١٧.

(١٥) أئمتنا ج ١ ص ٣٦٦.

(١٦) تحف العقول ص ٢١٩.

(١٧) أئمتنا ج ١ ص ٣٦٧.

(١٨) بحار الأنوار ج ١٧ ص ١٦٨.

(١٩) سورة البقرة، الآية ٢٨٦ و ٢٣٣.

(٢٠) أئمتنا ج ١ ص ٣٦٧ والمجازات النبوية ص ٢٣٨.

(٢١) تحف العقول ص ٢٩٢ وما بعدها والخرق: ضعف العقل.

- (٢٢) سورة الحجرات، الآية ١٢ .
- (٢٣) تحف العقول ص ٢٩٢ .
- (٢٤) النظام: كل خيط يجمع فيه اللؤلؤ ونحوه، والمراد فرائد اللؤلؤ التي تنظم الخيط.
- (٢٥) اللحاء: قشر العود الذي يحفظه.
- (٢٦) المجازات النبوية ص ١٠٦ .
- (٢٧) تحف العقول ص ٢٩٢ وما بعدها.
- (٢٨) المجازات النبوية ص ٧٩ .
- (٢٩) سورة الحجرات، الآية ١٠ .
- (٣٠) أمالي الصدوق ص ٢٩٦ .
- (٣١) تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ٥٣ .
- (٣٢) سورة مريم، الآية ١٤ .
- (٣٣) أئمتنا ج ١ ص ٣٦٨ .
- (٣٤) شرح النهج ج ٧ ص ٩٢ .
- الإمامة نفحة من روح الله

أنعم الله عز وجل بالإمامة على الإنسان لتدله على الإيمان وتلهمه الخير وتهديه إلى سواء السبيل، فهي رحمة من رحماته سبحانه وتعالى، وهي أصل من أصول الدين وركن من أركان الإسلام عند الشيعة الإمامية لأنها القاعدة الصلبة التي تتركز عليها العدالة الاجتماعية في الإسلام. وقد تحدث الإمام الباقر عن كثير من جوانب الإمامة نذكر أهمها:

١ . الحاجة إلى الإمام:

الإمامة ضرورة من ضرورات الحياة الإسلامية، لا تستقيم شؤون المجتمع من دونها وقد أجمع علماء الشيعة ومن سار على خطهم، على لزومها وضرورتها. سأل جابر بن يزيد الجعفي الإمام الباقر (عليه السلام) عن الحاجة إلى النبي والإمام، فقال (عليه السلام):

(لبقاء العالم على صلاحه، وذلك أن الله عز وجل يرفع العذاب عن أهل الأرض إذا كان فيها نبي أو إمام، قال الله عز وجل:

(وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم)(١). وقال الرسول الأعظم: (النجوم أمان لأهل السماء، وأهل بيتي أمان لأهل الأرض، فإذا ذهب النجوم أتى أهل السماء ما يكرهون، وإذا ذهب أهل بيتي أتى أهل الأرض ما يكرهون) وأهل بيته (صلى الله عليه وآله) كما هو معروف الأئمة الذين قرن الله عز وجل طاعتهم بطاعته. فقال:

يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم(٢) وأولي الأمر هم المعصومون المطهرون الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، وهم المؤيدون الموفقون المسددون بهم برزق الله عباده، وبهم تعمر بلادهم، وبهم ينزل الغيث من السماء، وبهم تخرج بركات الأرض، وبهم ينزل عليهم الدركات. ولا يعجل عليهم بالعقوبة والعذاب، ولا تفارقهم روح القدس، ولا يفارقونه، لا يفارقون القرآن ولا يفارقهم صلوات الله عليهم أجمعين(٣).

لقد اهتم الإمام (عليه السلام) بضرورة الإمامة لأنها تنتشده صلاح العالم وتقيم أعواج الدين، كما أشاد بالأئمة الطاهرين من أهل البيت (عليهم السلام) وأنهم أمان أهل الأرض، وبهم يستدفع البلاء، وينزل الغيث وتخرج بركات الأرض.

٢ . وجوب معرفة الإمام:

أجمعت الأحاديث عن النبي (صلى الله عليه وآله) وعن الأئمة الطاهرين في وجوب معرفة إمام العصر، (وإن من مات ولم يعرف إمام عصره مات ميتة جاهلية) وقد أثرت عن حفيد النبي (صلى الله عليه وآله) الإمام الباقر (عليه السلام) أخبار كثيرة بهذا الشأن نذكر منها:

روى جابر الجعفي قال: سمعت أبا جعفر (عليه السلام) يقول: (وإنما يعرف الله عز وجل ويعبده من عرف إمامه من أهل البيت، ومن لا يعرف الله عز وجل، ولا يعرف الإمام من أهل البيت فإنما يعرف ويعبد غير الله)(٤).

وروى محمد بن مسلم قال: سمعت أبا جعفر (عليه السلام) يقول: (كل من دان الله عز وجل بعبادة يجهد فيها نفسه ولا إمام له من الله فسعيه غير مقبول، وهو ضال متحير والله شأنى لأعماله، ومثله كمثل شاة ضلت عن راعيها وقطيعها، فهجمت ذاهبة وجائئة يومها، فلما جنها الليل بصرت بقطيع غنم مع راعيها، فحنت إليها واغترت بها، فباتت معها في مريضها فلما أن ساق الراعي قطيعه أنكرت راعيها وقطيعها، فهجمت متحيرة تطلب راعيها وقطيعها فبصرت بغنم مع راعيها فحنت إليها واغترت بها فصاح بها الراعي: الحقي براعيك وقطيعك فأنت تائهة متحيرة عن راعيك وقطيعك، فهجمت ذعرة، متحيرة، تائهة، لا راعي لها يرشدها إلى مرعاها أو يردها. فبينما هي كذلك إذا اغتتم الذئب ضيعتها، فأكلها، وكذلك والله يا محمد من أصبح من هذه الأمة لا إمام له من الله عز وجل، ظاهر عادل، أصبح ضالاً تائهةً. وإن مات على هذه الحالة مات ميتة كفر ونفاق، واعلم يا محمد أن أئمة الجور وأتباعهم لمعزولون عن دين الله قد ضلوا وأضلوا فأعمالهم التي يعملونها كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف، لا يقدرن مما كسبوا على شيء، ذلك هو الضلال البعيد)(٥).

وعن علي بن إبراهيم، عن محمد بن عيسى.. عن أبي عبد الله (عليه السلام) في قول الله عز وجل: (ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً)(٦) فقال (عليه السلام): طاعة الله ومعرفة الإمام (٧).

إن أئمة أهل البيت (عليهم السلام) كواكب مشرقة تنير دروب الضالين وترشدهم إلى الطريق السوي، الصراط المستقيم، وهم الذين تجب معرفتهم لأنهم سدنة الوحي وأوصياء الرسول (صلى الله عليه وآله) وخلفاؤه على أمته.

٣ . وجوب طاعة الإمام:

طاعة الإمام المعصوم واجب شرعي أعلنه الله في كتابه العزيز . قال تعالى: (وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم)(٨). وأجمعت الأخبار على فرض طاعة الأئمة، عن أحمد بن محمد عن محمد بن أبي عمير، عن سيف بن عميرة، عن أبي الصباح الكناني قال: (قال أبو عبد الله (عليه السلام): نحن قوم فرض الله عز وجل طاعتنا، لنا الأنفال ولنا صفو المال ونحن الراسخون في العلم، ونحن المحسودون الذين قال الله: (أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله)(٩).

. وعن علي بن إبراهيم عن أبيه عن حماد بن عيسى، عن حريز، عن زرارة عن أبي جعفر (عليه السلام) قال:

(ذروة الأمر وسنامه ومفتاحه وباب الأشياء ورضا الرحمن تبارك وتعالى الطاعة للإمام بعد معرفته، ثم قال: إن الله تبارك وتعالى يقول: (من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظاً)(١٠).

ففي طاعة أئمة الهدى تثبيت الدين وإقامة العدل ونشر المساواة بين الناس لأنهم يعملون كما قال الله في القرآن الكريم: (يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة)(١١).

٤ . حق الإمام على الناس:

إن للإمام المعصوم على الناس حقاً، كما أن لهم عليه حقاً، وعن ذلك تحدث الإمام الباقر (عليه السلام). سأله أبو حمزة قائلاً:

ما حق الإمام على الناس؟

حقه عليهم أن يسمعوا ويطيعوا.

ما حقهم عليه؟

يقسم بينهم بالسوية، ويعدل في الرعية (١٢).

وعن القاسم بن العلاء، عن عبد العزيز بن مسلم قال:

(الإمام يحل حلال الله، ويحرم حرام الله، ويقيم حدود الله، ويذب عن دين الله، ويدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، والحجة البالغة، الإمام كالشمس الطالعة المجللة بنورها للعالم، وهي في الأفق بحيث لا تتألم الأيدي والأبصار (١٣).

. وجاء عن علي بن إبراهيم عن صالح بن السندي، عن جعفر بن بشير عن أبي جعفر قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) لا تصلح الإمامة إلا لرجل فيه ثلاث خصال: ورع يحجزه عن معاصي الله، وحلم يملك به غضبه وحسن الولاية على من يلي حتى يكون لهم كالوالد الرحيم. وفي رواية أخرى: حتى يكون للرعية كالأب الرحيم (١٤).

فحق الإمام على الناس السمع والطاعة لأوامره الهادفة لسعادتهم وصلاحهم، وحققهم عليه العدالة فيما بينهم والمساواة فلا يفضل أحداً على الآخرين ولا يؤثر قوماً على قوم، وأن يعمل كما أمره الله تعالى بالعدل في الرعية حتى يكون ظل الله في أرضه.

٥ . عظمة الإمامة:

كرم الله تعالى الإمام وأعطاه منزلة لا يبلغها أي أحد من عباده وقد تحدث الإمام الباقر (عليه السلام): عن عظمة الإمامة في أحاديث كثيرة منها قوله (عليه السلام): لجابر بن يزيد الجعفي: (إن الله اتخذ إبراهيم عبداً قبل أن يتخذه نبياً، واتخذه نبياً قبل أن يتخذه رسولاً، واتخذه رسولاً قبل أن يتخذه خليلاً، واتخذه خليلاً قبل أن يتخذه إماماً، فلما جمع له هذه الأشياء وقبض يده قال له: يا إبراهيم (إني جاعلك للناس إماماً) ومن عظمها في عين إبراهيم قال: يا رب ومن ذريتي؟ قال: لا ينال عهدي الظالمين) (١٥) يتوضح من هذا الحديث أن الإمام أرقى منزلة عند الله، ولا يصل إليها من الأنبياء والمرسلين إلا من خصهم سبحانه وتعالى كخليل الله، نبي الله إبراهيم الذي خصه تعالى بها وجعل الإمامة من مكملات ذاتياته المباركة.

كما خص بها عز وجل عترة النبي (صلى الله عليه وآله) أهل البيت الذين أرسلهم أبواب هداية وعوامل رحمة وسدنة الوحي للأمة الإسلامية ولمن اتبعها بإحسان من الأمم الأخرى.

٦ . الإشادة بالأئمة:

تحدث الإمام الباقر في كثير من أحاديثه عن الأئمة الأطهار وأشاد بسمو منزلتهم لأنهم كانوا مستودع مواريث الأنبياء، وحبل الله المتين. قال (عليه السلام):

(نحن ولادة أمر الله، وخزان علم الله، وورثة وحي الله، وحملة كتاب الله، طاعتنا فريضة، وحبنا إيمان، وبغضنا كفر، محبنا في الجنة ومبغضنا في النار) (١٦).

وقال (عليه السلام): (نحن خزان علم الله، ونحن ترجمة وحي الله، ونحن الحجة البالغة على من دون السماء ومن فوق الأرض) (١٧).

وقال (عليه السلام): (والله إنا لخزان الله في سمائه وأرضه لا على ذهب ولا على فضة إلا على علمه) (١٨).

إن من راجع سيرة الأئمة وما أثر عنهم من الهدى والصلاح وسائر الكمالات النفسية والاجتماعية

والخلفية يؤمن بأنهم سادات الخلق وأوصياء النبي (صلى الله عليه وآله) وحملة علومه، وليس في هذا القول أي غلو، فقد وهب الله أنبياءه العلم والحكمة وفصل الخطاب، ووهب أوصيائه الطاهرين المزيد من العلم والفضل والحكمة، وخصهم بالكرامة، وجعلهم ينابيع الحكمة وورثة علوم الأنبياء. وقد أخلصوا الله سرّاً وعلانية، وقدموا في سبيل طاعته ودينه من التضحيات ما لم يقدمه أي مصلح في الأرض. ولهذا كله وجبت الولاية لهم (عليهم السلام).

٧ . الولاية لأهل البيت:

إن الولاية لأهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، عنوان للإيمان، وجزء من الإسلام. وقد أذاع الرسول الأعظم هذا الفرض الديني المقدس بين أمته، وألزمها به: قال الإمام الباقر: (بني الإسلام على خمس: الصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، والولاية ولم يناد بشيء كما نودي بالولاية فأخذ الناس بأربع وتركوا هذه يعني الولاية)(١٩).

وروى الحسين بن محمد الأشعري عن أبي الصباح قال: أشهد أنني سمعت أبا عبد الله (عليه السلام) يقول: أشهد أن علياً إمام فرض الله طاعته وأن الحسن إمام فرض الله طاعته، وأن الحسين إمام فرض الله طاعته، وأن علي بن الحسين إمام فرض الله طاعته وأن محمد بن علي إمام فرض الله طاعته)(٢٠).

وقال سعيد بن جبير: (سألت الإمام زين العابدين (عليه السلام) عن القربى في الآية الكريمة: (قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى)(٢١). هي قرابتنا أهل البيت)(٢٢) فالله تعالى قربهم منه لأنه يعلم أين يضع رسالته. نخلص من هذا أن محبة أهل البيت واجب شرعي لكل مؤمن ومؤمنة والولاية لهم مفروضة من رب العالمين جل وعلا، لأنهم خزان علمه وورثة وحيه وحملة كتابه، وهم نبراس هداية ونور الإسلام والسلام.

(١) سورة الأنفال، الآية ٣٣.

(٢) سورة النساء، الآية ٥٩.

(٣) علل الشرائع ص ١٢٣.

(٤) أصول الكافي ج ١ ص ١٨١.

(٥) أصول الكافي ج ١ ص ١٨٣. ١٨٤، وشانئ: مبغض، فهجمت، أي دخلت في السعي بلا روية.

وجنّها الليل: أحاطت بها ظلمة الليل. واغترت بها: أي خافت.

(٦) سورة البقرة، الآية ٢٧٣.

(٧) أصول الكافي ج ١ ص ١٨٥.

- (٨) سورة النساء، الآية ٥٩،
- (٩) أصول الكافي ج ١ ص ١٨٦ وصفو المال: خالص كل شيء ما اختاره الرئيس لنفسه قبل القسمة والآية ٥٨ من سورة النساء.
- (١٠) أصول الكافي ج ١ ص ١٨٦، والآية ٨٣ من سورة النساء.
- (١١) سورة التوبة، الآية ٧١،
- (١٢) أصول الكافي ج ١ ص ٤٠٥.
- (١٣) نفسه ج ١ ص ٢٠٠.
- (١٤) نفسه ج ١ ص ٤٠٧.
- (١٥) أصول الكافي ج ١ ص ١٧٥ والآية ١٢٤ من سورة البقرة.
- (١٦) مناقب آل أبي طالب ج ٢ ص ٣٣٦.
- (١٧) أصول الكافي ج ١ ص ١٩٢.
- (١٨) نفسه ج ١ ص ١٩٢.
- (١٩) أصول الكافي ج ١ ص ١٨٣.
- (٢٠) أصول الكافي ج ١ ص ١٨٦.
- (٢١) سورة الشورى، الآية ٤٢.
- (٢٢) أحكام القرآن ج ٣ ص ٤٧٥،
- مظاهر الولاء لأهل البيت

أما مظاهر الولاء لأئمة أهل البيت سلام الله عليهم من قبل الشيعة فهي تتمثل بمظهرين أساسيين هما:

١ . تأخذ الشيعة معالم الدين أصولاً وفروعاً عن أئمة أهل البيت (عليهم السلام) وتجمع على لزوم العمل بأقوالهم وأفعالهم. وبذلك فقد بنوا إطارهم العقائدي على ما أثر عنهم في المجالات التشريعية ولا يتعدون إلى غيرهم من بقية المذاهب الإسلامية. ولم يكن هذا من قبيل التحزب أو التعصب وإنما النصوص القطعية التي أثرت عن الرسول (صلى الله عليه وآله) هي التي دفعتهم إلى الاقتصار على مذهب أهل البيت (عليهم السلام).

يقول الإمام شرف الدين: (إن تعبدنا في الأصول بغير المذهب الأشعري وفي الفروع بغير المذاهب الأربعة لم يكن لتحزب أو تعصب، ولا لريب في اجتهاد أئمة تلك المذاهب ولا لعدم عدالتهم، وأمانتهم ونزاهتهم وجلالتهم علماً وعملاً).

لكن الأدلة الشرعية أخذت بأعناقنا إلى الأخذ بمذاهب الأئمة من أهل بيت النبوة، وموضع الرسالة، ومختلف الملائكة، ومهبط الوحي والتنزيل فانقطعنا إليهم في فروع الدين وعقائده وأصول الفقه وقواعده،

ومعارف السنة والكتاب وعلوم الأخلاق والسلوك والآداب، نزولاً على حكم الأدلة والبراهين وتعبداً بسنة سيد المرسلين (صلى الله عليه وآله) أجمعين.

ولو سمحت لنا الأدلة بمخالفة الأئمة من آل محمد (صلى الله عليه وآله) أو تمكنا من تحصيل نية القربى لله تعالى في مقام العمل على مذهب غيرهم لتعقبنا أثر الجمهور واقتفينا أثرهم لعقد الولاء، وتوثيقاً لعرى الإخاء، لكنها الأدلة تقطع على المؤمن من وجهته وتحول بينه وبين ما يروم (١) ثم تابع يقول: (وما أضن أحداً يجرواً على القول بتفضيلهم . أي أئمة المذاهب . في علم أو عمل على أئمتنا، وهم العترة الطاهرة، وسفن نجاة الأمة وباب حطتها، وأمانها من الاختلاف في الدين، وأعلام هدايتها، وتقل رسول الله (صلى الله عليه وآله) وقد قال (صلى الله عليه وآله): (فلا تقدموهم، ولا تقصروا عنهم فتهلكوا، فإنهم أعلم منكم، لكنها السياسة، وما أدراك ما اقتضت في صدر الإسلام.

وقد أيد شيخ الأزهر هذا الجانب المشرق من حديث الإمام شرف الدين فقال: بل قد يقال إن أئمتكم الاثني عشر أولى بالاتباع من الأئمة الأربعة لأن الاثني عشر كلهم على مذهب واحد قد محصوه وقرروه بإجماعهم بخلاف الأربعة فإن الاختلاف بينهم شائع في أبواب الفقه كلها، فلا تحاط موارده ولا تضبط، ومن المعلوم أن ما يحصه الشخص الواحد، لا يكفى في الضبط ما يحصه اثنا عشر إماماً، هذا كله مما لم تبق فيه وقفة لمنصف، ولا وجهة لمتعسف (٢). هذه الظاهرة التي تمسكت بها الشيعة لا نجد فيها أي جانب من الغلو وقد أعلنتها في جميع المجالات بعيدة عن الإفراط في الحب وإنما هي متممة بالاعتدال والاستقامة والمنطق.

٢ . ومن مظاهر الولاء الذي تكنه الشيعة لأهل البيت (عليهم السلام):

أنها تقوم بإحياء ذكراهم في عاشوراء، أو خارج أيام المحرم فتشيد بفضائلهم ومآثرهم، وتنتشر مكارم أخلاقهم، وتقيم الحفلات التأبينية على ما أصابهم من عظيم الخطب وفادح الرزء، وتحي ذكرى مواليدهم، وتقيم العزاء في مواعيد وفاتهم، وتزور مراقدهم الطاهرة للتبرك بها والتقرب إلى الله تعالى فإنها من أعظم مظاهر الود الذي فرضه الله تعالى في كتابه المجيد للعترة الطاهرة على جميع المسلمين. جاء في الحديث عن أبي عبد الله (عليه السلام):

في قول الله عز وجل: (إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا) (٣) يعني علياً وأولاده الأئمة (عليهم السلام) إلى يوم القيامة، ثم وصفهم الله عز وجل فقال (والذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون) (٤) وكان أمير المؤمنين

في صلاة الظهر وقد صلى ركعتين، وهو راكع وعليه حلة قيمتها ألف دينار، وكان النبي كساه إياها وكان النجاشي أهداها له فجاء سائل فقال: السلام عليك يا ولي الله وأولى بالمؤمنين من أنفسهم، تصدق على مسكين، فطرح الحلة إليه وأوماً بيده إليه أن يحملها! فأنزل الله عز وجل فيه هذه الآية، وصير نعمة أولاده بنعمته فكل من بلغ من أولاده مبلغ الإمامة، يكون بهذه النعمة مثله فيتصدقون وهم راكعون، والسائل الذي سأل أمير المؤمنين من الملائكة والذين يسألون الأئمة من أولاده يكونون من الملائكة (٥). هذه بعض مظاهر الولاء الذي تكنه الشيعة للأئمة الطاهرين المعصومين، وليس في ذلك أي شائبة للغلو، وعلى هذا الأساس أقام الشيعة إطارهم العقائدي في الولاء لأهل البيت.

رأي الشيعة في الصحابة

تكن الشيعة أعمق الود وأصفي الحب للصحابة، صحابة النبي (صلى الله عليه وآله) الذين ترى لهم الحق على كل مسلم ومسلمة، أنهم نصرُوا الإسلام أيام محنته وغربته، وإن جهودهم وجهادهم السبب الرئيسي في انتشار الإسلام. ولا بد لنا من وقفة قصيرة لنتحدث عن موقف الشيعة تجاه الصحابة. اتهم الشيعة بتجريح الصحابة، والقول بعدم عدالتهم، وهذا افتراء محض. فمن هم الصحابة؟
تعريف الصحابة:

المراد بالصحابة: هم الذين صحبوا النبي (صلى الله عليه وآله) وآمنوا برسالته، وماتوا في سبيل دينه، وليس المراد بالصحابة كل من رأى النبي (صلى الله عليه وآله) وسمع منه. فإن هذا التعريف يوجب دخول الأطفال والملحدين والكفار الذين رأوا النبي (صلى الله عليه وآله) في إطار الصحابة. وهذا غير معقول وغير منطقي على اعتبار الرؤية وحدها تخرج بعض الصحابة عن هذا التعريف والمهم في تعريف الصحابة نصره النبي (صلى الله عليه وآله) في رسالته المباركة وليس الرؤية والسمع.
حكم الصحابة:

لصحابة النبي (صلى الله عليه وآله) منزلة رفيعة وكريمة عند الله عز وجل، ولكن الصحبة لا توجب العصمة عن الخطأ ولا توجب النجاة من النار إلا بالعمل الصالح الذي هو المقياس الصحيح عند الله. فمن آمن واهتدى وعمل صالحاً فإن الجنة هي المأوى، ومن انحرف عن الحق بعد ما تبين له الهدى فإن مصيره إلى النار. هذا هو حكم الإسلام في قرآنه الكريم. قال تعالى: (إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار إن الله يفعل ما يريد)(٦). وقال تعالى: (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم)(٧).

لقد أناط الله تعالى ثوابه بالعمل الصالح وأدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار، كما أناط عقابه بالعمل السيئ. فقال تعالى: (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره)(٨).

والصحابية كغيرهم من الناس وليس لأحد منزلة خاصة إلا بمقدار عمله الصالح، وجميع البشر سواء، وأقربهم إلى الله، المطيع له، والمناصر رسوله (صلى الله عليه وآله) والمجاهد في سبيله، والمطبق أحكام كتابه. وأبعدهم عنه العاصي له والذي وقف متفرجاً أثناء غزواته وحروبه مع الكفار. وهذه بعض آراء أعلام الشيعة الفقهاء في الصحابة. رأي الإمام شرف الدين:

قال الإمام شرف الدين: (إن من وقف على رأينا في الصحابة علم أنه أوسط الآراء إذا لم تفرط فيه تقريط الغلاة الذين كفروهم جميعاً ولا أفرطنا إفراط الجمهور الذين وثقوهم جميعاً. فإن الكاملة، ومن كان في الغلو على شاكلتهم، قالوا: بكفر الصحابة كافة. وقال أهل السنة: بعدالة كل فرد ممن سمع النبي أو رآه من المسلمين مطلقاً واحتجوا بحديث: (كل من دب أو درج منهم أجمعين أكتعين) أما نحن فإن الصحبة بمجرد ما وإن كانت عندنا فضيلة جليلة لكنها بما هي من حيث هي عاصمة، فالصحابية كغيرهم من الرجال فيهم العدول وهم عظاموهم، وعلماءوهم وفقهاؤهم، وفيهم البغاة وأهل الجرائم من المنافقين، كما فيهم مجهول الحال. فنحن نحتج بعدولهم، ونتولاهم في الدنيا والآخرة، أما البغاة على الوصي وأخ النبي (صلى الله عليه وآله) وسائر أهل الجرائم كابن هند، وابن النابغة، وابن الزرقاء، وابن عقبة، وابن أوطاة، وأمثالهم فلا كرامة لهم، ولا وزن لحديثهم، ومجهول الحال نتوقف فيه حتى نتبين أمره، هذا رأينا في جملة الحديث من الصحابة. والكتاب والسنة على هذا الرأي، كما هو مفصل في مظانه من أصول الفقه، لكن الجمهور بالغوا في تقديس كل من يسمونه صحابياً حتى خرجوا عن الاعتدال فاحتجوا بالغث منهم والسمين، واقتدوا بكل مسلم سمع من النبي (صلى الله عليه وآله) أو رآه اقتداءً أعمى، وأنكروا على من يخالفهم في هذا الغلو، وخرجوا من الإنكار على كل حد من الحدود، وما أشد إنكارهم علينا حين يروننا نرد حديث كثير من الصحابة مصرحين بجرهم أو بكونهم مجهولي الحال عملاً بالواجب الشرعي في تمحيص الحقائق الدينية والبحث عن الصحيح من الآثار النبوية، وبهذا ظنوا بنا الظنون، فاتهمونا بما اتهمونا رجماً بالغيب، وتهافتاً على الجهل، ولو ثابت إليهم أحلامهم ورجعوا إلى قواعد العلم، لعلموا أن أصالة العدالة في الصحابة مما لا دليل عليها، ولو تدبروا القرآن الحكيم لوجدوه مشحوناً بذكر المنافقين منهم وحسبك منهم سورة التوبة والأحزاب)(٩).

يمثل رأي الإمام شرف الدين أصالة الدليل وعمق التفكير، والشيعة لم تقف مع الصحابة موقفاً عاطفياً، وإنما نظرت بعمق إلى أعمالهم فأكبرت كل من ساهم في بناء الإسلام وناصر رسول الله في أهم غزواته وحروبه مع الكافرين وبقي صامداً أمام الأحداث التي امتحن بهم المسلمون كأشد ما يكون الامتحان. والشيعة لم تقم وزناً لمن كان متهماً في دينه كمروان بن الحكم وأبيه والوليد بن عقبة الذي سماه الله

فاسقاً، وثعلبة بن حاطب وأمثالهم من الذين عادوا الله وعادوا رسول الله وعادوا أبناء رسول الله (صلى الله عليهم أفضل الصلاة والسلام).

موقف الإمام الباقر (عليه السلام) من الصحابة:

تجلى موقف الإمام الباقر بحبه للصحابة وتقديره لخيارهم وصلحائهم وتوهينه لمن لا حريجة له في الدين منهم، وقد روى في تجريحهم عدة أحاديث عن النبي (صلى الله عليه وآله) كما أشار إلى بعض الأخبار الموضوععة في الثناء عليهم. وهذا بعض ما ورد عنه:

روى أحمد في مسنده عن عبد الله بن مسعود عن النبي (صلى الله عليه وآله) أنه قال لأصحابه: (أنا فرطكم على الحوض، ولأنازعن أقواماً ثم لأغلبن عليهم فأقول: يا رب أصحابي، فيقول: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك)(١٠) وروى الترمذي عن النبي (صلى الله عليه وآله) أنه قال: ويؤخذ من أصحابي برجال ذات اليمين، وذات الشمال فأقول: يا رب أصحابي فيقول: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك فإنهم لن يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم، فأقول: كما قال العبد الصالح: إن تعذبهم فإنهم عبادك)(١١) وروى عن عبد الله بن أبي رافع عن أبي هريرة، قال، قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (يرد علي يوم القيامة رهط من أصحابي فيحطون عن الحوض فأقول: يا رب أصحابي، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، إنهم ارتدوا على أعقابهم القهقري)(١٢).

إلى غير ذلك من الأخبار التي دلت على وجود منحرفين من أصحاب النبي (صلى الله عليه وآله)، والصحبة لا توجب العصمة من الخطأ ولا التخرج في الدين. لقد أشار الإمام الباقر (عليه السلام) في حديث له مع جماعة من أعلام أصحابه إلى أن أكثر الأحاديث التي وردت في فضل بعض الصحابة كانت من الموضوععات أيام حكم معاوية، فقد عهد إلى لجان خاصة به للوضع في الحديث الشريف. ويتناولون على ذلك رواتب مغرية والناس على دين ملوكهم، ودينهم دنانيرهم، فقد افتعلوا الأحاديث للحظ من شأن العلويين، وقد طلب أبان من الإمام أن يسمي له بعض تلك الأخبار الموضوععة، فقال (عليه السلام): رروا:

(إن سيدي كهول أهل الجنة أبو بكر وعمر)(١٣).

(وإن عمر تحدثه الملائكة) و(إن عمر يلقنه الملك).

(وإن السكينة تنطق على لسان عمر).

(وإن الملائكة لتستحي من عثمان)(١٤).

واسترسل الإمام الباقر (عليه السلام) في رواية الأحاديث الموضوععة في فضل الصحابة وذلك التقديس الأعمى الذي لا يتفق بأي حال مع روح الإسلام العادل وواقعه المنطقي.

(١) المراجعات ص ٤٠ . ٤١ .

(٢) المراجعات ص ٤٤ .

(٣) سورة المائدة، الآية ٥٥ .

(٤) نفسها الآية ٥٥ .

(٥) أصول الكافي ج ١ ص ٢٨٨ وقال الثعالبي في تفسير هذه الآية: (قال عتبة بن أبي الحكم وغالب بن عبد الله: إنما عني بها: علي بن أبي طالب (عليه السلام) لأنه مر به سائل وهو راكع في المسجد وأعطاه خاتمه ومثله قال الزمخشري في الكشاف.

(٦) سورة الحج، الآية ١٤ ،

(٧) سورة النور، الآية ٥٥ ،

(٨) سورة الزلزلة، الآية: ٧ و ٨،

(٩) المراجعات ص ١١ وما بعدها .

(١٠) مسند أحمد ج ٥ ص ٢٣١ ،

(١١) صحيح الترمذي ج ٢ ص ٦٨ ،

(١٢) صحيح البخاري ج ٨ ص ١٥٠ .

(١٣) وضع الحديث لمعارضة الخبر المتواتر عن النبي (صلى الله عليه وآله) في حق السبطين، الحسن والحسين إنهما سيذا شباب أهل الجنة، وقد سئل الإمام الجواد (عليه السلام) عنه فقال: والله ليس في الجنة كهول بل شباب مرد.

(١٤) لا نعلم لماذا تستحي الملائكة من عثمان بن عفان عميد الأسرة الأموية فهل أنها تعمل المنكر والقبیح حتى تستحي منه، إنا لا نتصور وجهاً لهذا الاستحياء المزعوم.

سياسة أهل البيت

سياسة العترة الطاهرة هي سياسة بناءة تعمل على إيجاد الوسائل السليمة لرفي المجتمع وبلوغ أهدافه في الحياة الحرة الكريمة سياسة تسعى لتحقيق المساواة في ربوعه، والفرص المتكافئة بين أبنائه لوقايتهم من الظلم والحرمان .

سياسة تبننت العدل الخالص، والحق المحض، ومثلت وجهة الإسلام الصحيحة وأهدافه الإنسانية في عالم السياسة والحكم والإدارة هي أرقى سياسة عرفها التاريخ وأجدرها بتحقيق العدل السياسي والعدل الاجتماعي بين الناس لأنها تنشئ الاطمئنان لا يشوبه قلق، والأمن لا يشوبه خوف، والعدل لا يشوبه ظلم. سياسة صريحة واضحة في جميع معالمها وجميع أهدافها. ولصلاية تنفيذها في الحق الصريح،

وصرامتها في العدل السليم ثار عليها النفعيون والمنحرفون وطالبوهم أن ينهجوا منهاجاً يلبي مصالحهم وأطماعهم، ولو أنهم استجابوا لهم لما آلت الخلافة إلى غيرهم ولكنهم سلام الله عليهم آثروا رضا الله عز وجل وسلكوا الطريق الواضح الذي يقره الدين الحنيف. وسوف نعرض لبعض مبادئهم العادلة ومثلهم العليا وأهدافهم الإنسانية السليمة.

١ . نظرتهم إلى الخلافة:

الخلافة في نظر أهل البيت تكليف لا تشريف، ظل الله في الأرض يتحقق في ظلها العدل الشامل ويعم في أرجاء البلاد الأمن بين جميع المواطنين على حد سواء. وإذا تجردت السلطة من هذه الأهداف العليا لا طمع لهم فيها ولا أرب. قال أمير المؤمنين (عليه السلام) لابن عباس: وكان يخصف نعله. يا ابن عباس ما قيمة هذا النعل؟ لا قيمة له يا أمير المؤمنين.

والله لهي أحب إليّ من إمرتك إلا أن أقيم حقاً وأدفع باطلاً. إن حذاه الذي كان من ليف أثنى عنده من الأمرة التي لا يقام فيها الحق ولا يدفع فيها الباطل. وقد كشف في بعض كلماته السر في إحجامه عن مبايعة أبي بكر في (السقيفة) فقال (عليه السلام): (اللهم إنك تعلم أنه لم يكن الذي كان منا منافسة في سلطان ولا التماس شيء من فضول الحطام، ولكن لنزد عن معالم دينك، ونظهر الإصلاح في بلادك فيأمن المظلومون من عبادك وتقام المعطلة من حدودك)(١).

ولهذه الأسباب امتنع عن مبايعته لأبي بكر وأقام عليه سيلاً من الأدلة التي تثبت أحقيته بالخلافة دونه. لكنه أغمد سيفه (ذو الفقار) ولم يناجزه الحرب حرصاً منه على مصلحة الأمة الإسلامية وهو يرى أن واجب الأمة تتفاد إليه كما أمره رسول الله (صلى الله عليه وآله) بذلك. فقد قال له: (يا علي أنت بمنزلة الكعبة توتى ولا تأتي فإن أتاك هؤلاء القوم فسلموها إليك . يعني الخلافة . فاقبل منهم، وإن لم يأتوك فلا تأتهم حتى يأتوك)(٢).

لقد كان من واجب المسلمين الانقياد لعنزة نبيهم، والرجوع إليهم ليحكموا فيهم بما أنزل الله، ويردهم إلى الحق الواضح، والطريق المستقيم. لكن القوم في الماضي والحاضر تغرهم الدنيا الفانية، وتخدعهم السلطة الفارغة، فينطلقوا وراء أطماعهم.

ولذلك وجدناهم قد صرفوا الأمر عن أهله، ووضعوه في غير محله مما أدى إلى الخطوب الفادحة والمحن الشاقة التي مني بها المسلمون في جميع الأقطار الإسلامية.

٢ . المثل العليا:

أما المثل العليا والأهداف الإنسانية النبيلة التي تبناها أهل البيت في جميع المجالات فهي: العدل والمساواة والحرية والصدق والولاية والعمال. السياسة الحربية والسياسة المالية.

أ . العدل:

السياسة الإسلامية بجميع مفاهيمها تبنت العدل وآمنت به إيماناً مطلقاً، فأهابت بالحكام والأمراء أن يطبقوه على مسرح الحياة تطبيقاً لقوله تعالى: (وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل)(٣).

وقال تعالى: (يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله)(٤).

أجمع المسلمون على أن الحاكم إذا انحرف في حكمه وجب عزله. وقد عزل أمير المؤمنين (عليه السلام) أحد ولاته عندما أخبروه بأنه قد جار في حكمه. فقال: (اللهم أنت الشاهد علي وعليهم إني لم أمرهم بظلم خلقك ولا بترك حقك) ثم عزله في الوقت (٥). ويقول الإمام الصادق، (اتقوا الله، واعدلوا فإنكم تعيرون على قوم لا يعدلون)(٦).

إن سعادة الأمة ورفقيها وحضارتها تقاس بعدل حكامها، فإذا تجاوز الحكام حدود الله وجاروا في الحكم تعرضت الأمة للأزمات وسادت فيها النزاعات وعمت في ديارها الفوضى. لذلك: حرص الإسلام أن يكون الحكم بيد الصالح الأتقياء من أمته. لأن الحكم سلطان وإغراء ولا يفلت من ريقته إلا ذوو النفوس الكريمة الأبية الطاهرة. وما أقل عددهم . في الماضي والحاضر.

وما يزيد قوله: إن سياسة أهل البيت قد تركزت على العدل الشامل والناس كلهم سواء أمام الشرع الإسلامي.

ب . المساواة:

أسبغ الإسلام نعمة المساواة على الإنسانية بصورة لم يسبق لها مثيل في تاريخ المجتمع الإنساني. فقد أعلن المساواة العادلة بين جميع الأفراد والجماعات، وبين جميع الأجناس من أي عرق ولون، فلا فضل لأبيض على أسود، ولا لعربي على أعجمي، والناس كلهم سواسية كأسنان المشط لا فضل لبعضهم على بعض إلا بالتقوى والعمل الصالح. وقد طبق الإمام علي (عليه السلام) المساواة العادلة تطبيقاً شاملاً في عهده، فأمر ولاته وعماله أن يساوا بين الناس جاء في بعض رسائله (٧) (واخفض للرعية جناحك وابسط لهم وجهك، وألن لهم جانبك، وآس بينهم في اللحظة والنظرة والإشارة والتحية، حتى لا يطمع العظماء في حيفك ولا ييأس الضعفاء من عدلك)(٨).

فما أحوجنا نحن اليوم إليك يا أبا الحسن في هذه الأيام الظالمة والمظلمة جميع الأحرار ينادونك بأعلى أصواتهم ويطلبون الفرج من حفيدك المهدي عجل الله فرجه الشريف. لكن السياسة العادلة لا تروق للطماعين والحاقدين والظالمين، فقد أثارت السياسة العلوية العادلة الأحقاد والضغائن ضده وأدت إلى تكتل القوى الباغية وتظافرها على منجزاته. قال في ذلك المدائني:

(إن من أهم الأسباب في تخاذل العرب عن علي بن أبي طالب (عليه السلام) كان اتباعه لمبدأ المساواة بين الناس حيث كان لا يفضل شريفاً على مشروف ولا عربياً على عجمي ولا يصانع الرؤساء والقبائل)(٩) والسبب في ذلك يعود إلى جهل جبابرة العرب وطغاة قريش ومن سار في ركابهم، الأهداف الأصلية التي جاء بها الإسلام وأهمها: تعميم المساواة وبسط العدل والقضاء على الظلم. لقد كانوا يريدون الامتيازات والاستثناء بأموال المسلمين، والاستعلاء على الفقراء والضعفاء. وكل ذلك يتنافى مع سيرة علي بن أبي طالب رائد العدالة الاجتماعية الكبرى في الأرض. وقد سار خلفاؤه (عليهم السلام) على نهجه وخطته وسيرته ولاقوا من المستكبرين الكثير من المعانات.

ج . الحرية:

تبنى الإسلام الحرية العامة لجميع المواطنين وألزم الدولة بحمايتها، وتطبيقها على مسرح الحياة. ونقصد حرية العقيدة (لا إكراه في الدين)(١٠) أو حرية التفكير والتعبير عن الرأي، أو الحرية السياسية... وكل هذه المناحي من الحرية قدرها الإسلام واعتبرها حقوقاً طبيعية للإنسان لا غنى له عنها بأي حال من الأحوال. وقد طبق الإمام أمير المؤمنين الحرية بأجلى معانيها وأرحب مفاهيمها في عهد خلافته. فإنه لم يكره العباد على مبايعته،

وإنما تركهم وشأنهم يتمتعون بحريتهم من دون أن يتعرض لهم بأي أذى أو مكروه. وكذلك عامل الخوارج فإنه لم يناجزهم الحرب حتى أُنذروهم وحاججهم وأبطل شبههم. ولكن لما عاثوا فساداً في الأرض، وأخلوا بالأمن العام ناجزهم عملاً بقوله تعالى: (فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله)(١١) وكذلك أعطى الحرية الكاملة للحزب الأموي فلم يتعرض لهم بأذى أو مكروه علماً أنهم كانوا من ألدّ خصومه وأعدائه. هذه الحرية التي أعطاها الإمام للأحزاب في سياسته البناءة كانت أوسع حرية عرفها التاريخ في العالم.

د . الصدق:

كان شعار أهل البيت في سياستهم الرشيدة الصدق في المعاملة والصراحة، فلا تتناقض ولا انحراف، ولا توارب ولا خداع، ولا إغراء بالوعد الكاذبة والأمانى المعسولة كما كانت الحال السائدة في العصور الأموية. لقد حفلت سياسة العترة الطاهرة بالصدق والصراحة في جميع الميادين. وهكذا فعل جد الإمام الباقر سيد الشهداء الإمام الحسين (عليه السلام) مع الجماهير التي صحبتته من مكة والتي التحقت به أثناء الطريق حينما بلغه مقتل سفيره الشهيد البطل العظيم مسلم بن عقيل. صارحهم سبط النبي (صلّى الله عليه وآله) بخيانة أهل الكوفة وهدرهم بعهودهم وموائيقهم، وأنه متوجه في سفره إلى ساحة الموت. كشف لهم في تلك الساعة الرهيبة الستار عن خطته ليكونوا على بصيرة من أمرهم عملاً بأوامر الإسلام

التي تلزم بالصدق والصرحة. قال تعالى: (وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق)(١٢). وقد وصف تعالى المتقين بالصدق: (والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون)(١٣).

ولو كانت المواردية سائغة في الإسلام بأي شكل من الأشكال لما تغلب معاوية بن أبي سفيان خصم الإسلام على أمير المؤمنين وإمام المتقين علي بن أبي طالب (عليه السلام)، فقد كان بإمكانه أن يساومه بعد مقتل عثمان وبيقيه على ولايته في دمشق، ثم يعزله بعد ذلك عن منصبه ويتخلص من شره وغدره. لكن رائد الإسلام الحق يأبى تلك المساومة الرخيصة فامتنع من بقاء معاوية في جهاز الحكم ولو زمنًا قصيرًا، لأنه يطبق الحكم الإسلامي الذي يأمر بالتمسك بالصدق ولا يسمح استعمال الطرق الملتوية والمواربة في الحكم.

يقول الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله): (عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة، وما زال الرجل يصدق، ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً، وإياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وما زال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً)(١٤).

لقد ركز أهل البيت سياستهم على الصدق والصرحة، وجنبوها من المكر والخداع، يقول أمير المؤمنين: (لولا أن المكر في النار لكنت أمكر الناس). وكما كان يتنفس الصعداء من الآلام المرهقة التي لاقاها من خصومه الماكرين الخادعين. ويقول:

(واويلاه، يمكرون بي ويعلمون أنني بمكرهم عالم، وأعرف منهم بوجوه المكر، ولكني أعلم أن المكر والخديعة في النار، فأصبر على مكرهم ولا أرتكب مثل ما ارتكبوهم)(١٥).

ويقول في الغدر (عليه السلام): (لكل غادر لواء يعرف به يوم القيامة)(١٦) ورد على عبيد الشهوات والمناصب في عهده فقالوا: بأنه لا دراية له في شؤون السياسة، وإن معاوية خبير بها وخلق بإدارة دفة الحكم. قال (عليه السلام):

(والله ما معاوية بأدهى مني ولكنه يغدر ويفجر ولولا كراهية الغدر لكنت من أدهى الناس)(١٧).

إن سياسة أمير المؤمنين وأئمة أهل البيت قد عبرت في جميع شؤونها عن القيم السياسية الخيرة التي أعلنها الإسلام، والتي بلا ريب لا تقر الغدر، ولا المكر، ولا الخداع، ولا تؤمن بأي وسيلة من وسائل النفاق الاجتماعي، وإن توقف عليها النجاح السياسي المؤقت. والخلافة في الإسلام، كما هو معروف، من أهم المراكز الحساسة، فلا بد لها من الاعتماد على الخلق الرصين والإيمان العميق بحق المجتمع والأمة. غايتها سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة وإرشاده إلى طريق الخير والصلاح عن طريق الأئمة المهديين.

وقد سار الأئمة المعصومون على مخططات الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله) وأمير المؤمنين (عليه السلام) في عالم السياسة وإدارة الحكم، وتجنبوا جميع الطرق الشاذة التي سلكها أعداؤهم. هـ . كفاءة الولاة والعمال:

وضع أهل البيت شروطاً أساسية للموظفين في جهاز الحكم والإدارة فعليهم أن يكونوا من خيرة الرجال في الكفاءة والنزاهة والقدرة على إدارة شؤون البلاد، وأن يضعوا المصلحة العامة فوق المصلحة الشخصية ويسيروا بين الناس سيرة قوامها العدل الخالص والحق المحض. وأن يكونوا أمناء فيما يجبونه وفيما ينفقونه، بعيدين عن الرشوة والهدايا، لأن الرشوة تؤدي حتماً إلى الانهيار الأخلاقي شيوع الباطل، والفساد في الأرض، وهي من أهم الأسباب في دمار الحكومات وزوالها، وحجب المواطن عن الحق يضره إلى إنقاذ نفسه بالرشوة. ومن الطبيعي أن يحدث اضطراب في المجتمع وانتشار الظلم والجور.. ولذلك وجدنا أمير المؤمنين (عليه السلام) لما بلغه أن عامله بالبصرة سهل بن حنيف قد دعي إلى مأدبة فأجاب إليها، كتب إليه يستنكر منه ذلك، ويوبخه على ما صدر منه. وهذا بعض ما كتبه: (أما بعد: يا ابن حنيف فقد بلغني أن رجلاً من فتية أهل البصرة دعاك

إلى مأدبة فأسرعت إليها تستطاب لك الألوان، وتنتقل إليك الجفان، وما ظننت أنك تجيب إلى طعام قوم عائلهم مجفو، وغنيهم مدعو فانظر إلى ما تقضمه من هذا المقضم فما اشتبه عليك علمه فألفظه، وما أيقنت بطيب وجوهه فنل منه (١٨).

بهذه السياسة البناءة تتحقق العدالة الاجتماعية، ويسود الأمن والرخاء ويقضي على جميع أنواع الظلم. وما أحوجنا نحن اليوم إلى مثل هؤلاء العمال والحكام والولاة في هذه الظروف المعيشية الصعبة. و . الخدمة العسكرية:

دعا أهل البيت إلى الجهاد كفرض من فروض الله ولم يكرهوا الناس على الخروج إلى الحرب. ومن شاء أن يخرج خرج مؤدياً لما فرض عليه ومن قعد وتقاوس فإنما يهمل ما أوجبه الله عليه من دون أن ينال عقوبة أو يتعرض للسخط والإرهاب. وهكذا فعل أمير المؤمنين في حرب الجمل وصفين، والنهروان. وقد أرادوا أن يندفع الناس إلى الجهاد بدافع الإيمان والعقيدة لما أوجبه الله عليهم من الفرض. وعلى عكس ذلك تماماً سار بنو أمية فإنهم كانوا يفرضون العقاب على كل من تخلف عن الحرب. يحدثنا التاريخ عن سيرة أحد ولاتهم المجرمين وهو عبيد الله بن زياد لما أمر بالخروج لحرب سيد الشهداء (عليه السلام) في كربلاء فقتل الشامي لأنه لم يكن ممن خرج إلى الحرب. والطاغية الحجاج قتل عمرو بن ضابي البرجمي لأنه لم يستجب للالتحاق بجيش المهلب بن أبي صفرة. هذه الخطة الإرهابية أدت إلى إرغام الناس على الاستجابة لهم بالكره والقهر. أما سياسة أهل البيت فكانت سياسة لين وحرية سياسة قرآنية إسلامية عادلة. فالإمام الحسن (عليه السلام) لو أنه أجبر جيشه

على الطاعة وأنزل العقاب

الصارم بالمتخاذلين، لما أصيب جيشه بتلك الزعازع والانتكاسات، لكنه سلام الله عليه قد سلك الطريق الإسلامي العادل والواضح الذي لا تعقيد فيه ولا التواء، وأثر رضا الله عنه على كل شيء. ز . السياسة المالية:

انتهج أهل البيت سياسة مالية عادلة فأنفقوا أموال الخزينة المركزية على المصالح العامة والمشاريع الخيرية التي تنتعش بها الحياة وتقضي على الفقر والحرمان. ولا يسوغ عندهم درهم واحد فيما لا تعود فيه منفعة أو فائدة للأمة. وقد احتاطوا في ذلك احتياطاً بالغاً. فأمر المؤمنين (عليه السلام) أثارت عليه هذه السياسة المالية أحقاد العرب وأضغان قريش، التجار الأثرياء، حتى أقبلوا عليه يطلبون منه أن يغير سياسته فقالوا له:

(يا أمير المؤمنين، أعط هذه الأموال، وفضل هؤلاء الأشراف من العرب وقريش على الموالي والعمم، واستمل من تخاف خلاقه من الناس) سقط هذا المنطق عليه كالصاعقة، وانبرى قائلاً لهم: (أتأمروني أن أطلب النصر بالجور..)(١٩).

فعليك ألف سلام يا أبا الحسن وعلى الأئمة الطاهرين من بعدك، أموال المسلمين يجب أن تنفق على مصالحهم وضمان عائلهم ومحرومهم، وليس لزعيم هذه الطائفة أو تلك. فإن ذلك خيانة لله والمسلمين. وتفصيل العرب على غيرهم من الشعوب الأخرى، ومنح الأموال للوجوه والزعماء جور واعتداء على حقوق المسلمين في نظر أهل البيت وعلى رأسهم ابن أبي طالب رائد العدالة والحرية والمساواة في الأرض. كان (عليه السلام) يعيش عيشة الفقراء في أكله ولباسه ومسكنه.

دخل عليه رجل والوقت كان شديد البرد فقال له: (يا أمير المؤمنين إن الله قد جعل لك ولأهلك في هذا المال نصيباً، وأنت تفعل هذا بنفسك؟) فانبرى (عليه السلام) وأجابه:

(والله ما أرزأكم شيئاً وما هي إلا قطيفتي التي أخرجتها من المدينة)(٢٠)

ليس عنده سوى قطيفة جاء بها من يثرب، وكان باستطاعته أن يلبس الحرير الموشى واللباس الأنيق الذي كان يلبسه غيره من الخلفاء لكنه، وبضميره الحي، أبى أن يصطفي من أموال المسلمين شيئاً، كما أنه لم يؤثر بها أحداً من أهل بيته وأبنائه. روى أبو رافع (٢١): وكان خازناً لبيت المال. قال:

دخل علي أمير المؤمنين وقد أعطيت ابنته لؤلؤة من بيت المال، فلما رآها عرفها، وقد تغير لونه ومشت الرعدة بأوصاله فقال: (من أين لها هذا؟ والله لأقطعن يدها).

فلما رأى أبو رافع جده في الأمر، وعزمه على ذلك قال له:

(أنا والله يا أمير المؤمنين أعطيتها وهي عارية مضمونة).

فهداً روعه وسكن غضبه، واندفع قائلاً: (لقد تزوجت بفاطمة وما لي فراش إلا جلد كيش ننام عليه بالليل ونعلف عليه ناضحنا بالنهار وما لي خادم غيرها)(٢٢).

إن مثله الرفيعة لم تسمح له أن يؤثر ابنته على بنات المسلمين، وهذا منتهى العدل الذي لم يحققه غيره من المسلمين. ومن شدة حرصه على أموال المسلمين ما رواه عاصم بن كليب عن أبيه قال: (قدم على علي مال من أصبهان فقسمه على سبعة أسهم، فوجد فيه رغيفاً فقسمه على سبعة أقسام، ودعا أمراء الأسباع، فأقرع بينهم لينظر أيهم يعطى أولاً)(٢٣).

هذا العدل الدقيق والمتناهي في الدقة هو العدل الذي نص عليه الله عز وجل في كتابه العزيز، والذي لم تحققه الإنسانية في جميع مراحل تاريخها مهما بلغت من رقي فكري وإبداع فني وتطور في الإدارة والحكم. ولا نجد حكماً عبر التاريخ استطاع بأي حال من الأحوال أن ينشئ نظاماً سياسياً تتحقق فيه العدالة الكبرى كهذا النظام الإسلامي الذي وضع أسسه الإمام علي بن أبي طالب وسار على مناهجه أبناؤه من بعده عليهم أفضل الصلاة والسلام.

هذه هي بعض المثل العليا التي نشدها أهل البيت في ظلال الحكم الإسلامي فقد طبقوا الإسلام بمناهجه العادلة وسلكوا مسلك من يبغي وجه الله ورضاه، فلم يراوغوا كغيرهم ولم يداهنوا ولم ينفقوا المال إلا في محله. ولما آل الأمر إلى ابن أبي سفيان وجدناه يسلك جميع الوسائل المخادعة للوصول إلى الحكم وليورثه إلى ابنه يزيد بالحيلة والدهاء لكن الإمام الباقر (عليه السلام) فقد أثر الحفاظ على مقدرات الإسلام ومعنوياته وسار بسيرة جده وأبيه وجاهد بكل ما لديه من طاقات في سبيل تثبيت الدين الحنيف وإرشاد الناس إلى ما فيه الخير والسلام.

(١) نهج البلاغة للشيخ محمد عبده ج ٢ ص ١٨.

(٢) أسد الغابة ج ٤ ص ٣١.

(٣) سورة النساء، الآية ٥٨.

(٤) سورة ص، الآية ٢٦.

(٥) العقد الفريد ج ١ ص ٢١١.

(٦) أسول الكافي ج ٢ ص ١٤٧.

(٧) راجع شرح النهج لمحمد عبده ج ٣ ص ٨٥، والنظام السياسي في الإسلام للأستاذ حبيب ص ٣١٩.

(٨) شرح النهج ج ٣ ص ٨٥.

(٩) شرح النهج ج ١ ص ١٨٠.

(١٠) سورة البقرة الآية ٢٥٦.

(١١) سورة الحجرات، الآية ٩.

- (١٢) سورة الإسراء، الآية ٨٠،
- (١٣) سورة الزمر، الآية ٣٢.
- (١٤) رواه مسلم.
- (١٥) جامع السعادات ج ١ ص ٢٠٢.
- (١٦) نهج البلاغة ج ٢ ص ٢٠٦.
- (١٧) نفسه ج ٢ ص ٢٠٦.
- (١٨) نهج البلاغة محمد عبده ج ٣ ص ٧٨ ومجفو: أي مطرود من البؤس والجفاء، بطيب وجوهه: أي بالحل في طرق كسبه. والمقضم: المأكل.
- (١٩) شرح النهج لابن أبي الحديد ج ١ ص ١٨٢.
- (٢٠) الكامل لابن الأثير ج ٨ ص ١٧٣ والقطفية: لباس.
- (٢١) كان قبلياً قيل كان ملكاً للعباس فوهبه إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) ولما أسلم العباس بشر أبو رافع بإسلامه لرسول الله فأعتقه. الاستيعاب ج ٤ ص ٧٠.
- (٢٢) الكامل ج ٨ ص ١٧٣.
- (٢٣) نفسه ص ١٧٣.
- اعتقال الإمام (عليه السلام)

لما ذاع فضل الإمام (عليه السلام) بين أهل الشام، أمر الطاغية باعتقاله في السجن، وفي السجن بدأ يلقي بمحاضراته وعلومه وآدابه أمام السجناء الذين احتقوا به وقدروه تقديراً عظيماً. ولما علم بذلك هشام أمر بإخراجه من السجن وإرجاعه إلى المدينة خوفاً من الفتنة. هذا ما ألمحنا إليه في الرواية الأولى. أما الرواية الثانية التي رويت عن عمارة بن زيد الواقدي فتقول: حج هشام سنة من السنين، وفي السنة نفسها حج الإمام محمد الباقر وابنه الإمام جعفر الصادق (عليهما السلام). فقال الإمام جعفر الصادق أمام حشد من الناس بينهم مسلمة بن عبد الملك أخو هشام:

(الحمد لله الذي بعث محمداً بالحق نبياً، وأكرمنا به، فنحن صفوة الله على خلقه، وخيرته من عباده، فالسعيد من تبعنا، والشقي من عادانا وخالفنا) ولما سمع مسلمة بادر إلى أخيه هشام وأخبره بمقالة الإمام الصادق. فأسرهما هشام في نفسه، ولم يتعرض للإمامين بسوء في الحجاز، إلا أنه لما قفل راجعاً إلى دمشق أمر عامله على يثرب (المدينة) بإحضارهما إليه. ولما انتهيا إلى دمشق حببهما ثلاثة أيام، ولم يسمح لهما بمقابلته استهانة بهما. وفي اليوم الرابع أذن لهما، وكان مجلسه مكتظاً بالأمويين وسائر حاشيته. وقد نصب ندماؤه برجاصاً (١) وأشياخ بني أمية يرمونه. يقول الإمام الصادق (عليه السلام)

فلما دخلنا، كان أبي أمامي وأنا خلفه فنأدى هشام: (يا محمد ارم مع أشياخ قومك).
فقال أبي: (قد كبرت عن الرمي، فإن رأيت أن تعفيني).

فصاح هشام: (وحق من أعزنا بدينه، وبنيه محمد (صلى الله عليه وآله) لا أعفئك) وظن الطاغية أن الإمام سوف يخفق في رمايته فيتخذ ذلك وسيلة للحط من شأنه أمام الغوغاء من أهل الشام، وأوماً إلى شيخ من بني أمية أن يناول الإمام (عليه السلام) قوسه، فناوله، وتناول معه سهماً فوضعه في كبد القوس، ورمى به الغرض فأصاب وسطه، ثم تناول سهماً فرمى به فشق السهم الأول إلى نصله، وتابع الإمام الرمي حتى شق تسعة أسهم بعضها في جوف بعض، ولم يحصل بعض ذلك إلى أعظم رام في العالم، وجعل هشام، يضطرب من الغيظ وورم أنفه، فلم يتمالك أن صاح:
(يا أبا جعفر أنت أرمى العرب والعجم!! وزعمت أنك قد كبرت!!) ثم أدركته الندامة على تقيظه للإمام، فأطرق برأسه إلى الأرض والإمام واقف، ولما طال وقوفه غضب (عليه السلام) وبان ذلك على سحنات وجهه الشريف وكان إذا غضب نظر إلى السماء، ولما بصر هشام غضب الإمام قام إليه واعتنقه، وأجلسه عن يمينه، وأقبل عليه بوجهه قائلاً:

(يا محمد لا تزال العرب والعجم تسودها قريش، مادام فيها مثال لك لله درك!! من علمك هذا الرمي؟
وفي كم تعلمته؟ أيرمي جعفر مثل رميك؟).

فقال أبو جعفر (عليه السلام): (إنا نحن نتوارث الكمال).

وثار الطاغية، واحمر وجهه، وهو يتمزق من الغيظ، وأطرق برأسه إلى الأرض، ثم رفع رأسه، وراح يقول:

(ألسنا بنو عبد مناف نسبنا ونسبكم واحد؟).

ورد عليه الإمام مزاعمه قائلاً:

(نحن كذلك ولكن الله اختصنا من مكنون سره وخالص علمه بما لم يخص به أحد غيرنا). وطفق هشام قائلاً:

أليس الله بعث محمداً (صلى الله عليه وآله) من شجرة عبد مناف إلى الناس كافة أبيضها وأسودها وأحمرها، فمن أين ورثتم ما ليس لغيركم؟ ورسول الله (صلى الله عليه وآله) مبعوث إلى الناس كافة، وذلك قوله عز وجل (ولله ميراث السماوات والأرض) (٢) فمن أين ورثتم هذا العلم؟ وليس بعد محمد نبي، ولا أنتم أنبياء).

ورد عليه الإمام ببالغ الحجة قائلاً:

(من قوله تعالى لنبيه: (لا تحرك به لسانك لتعجل به)(٣) فالذي لم يحرك به لسانه لغيرنا أمره الله تعالى أن يخصنا به من دون غيرنا. فلذلك كان يناجي أخاه علياً من دون أصحابه وأنزل الله به قرآناً في قوله: (وتعياها أذن واعية)(٤) فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله): سألت أن يجعلها أذنك يا علي، فلذلك قال علي: علمني رسول الله (صلى الله عليه وآله) ألف باب من العلم يفتح من كل باب ألف باب، خصه به النبي (صلى الله عليه وآله) من مكنون سره، كما خص الله نبيه، وعلمه ما لم يخص به أحداً من قومه، حتى سار إلينا فتوارثناه من دون أهلنا) التاع هشام، والتفتت إلى الإمام وهو غضبان قائلاً:

(إن علياً كان يدعي علم الغيب؟ والله لم يطلع على غيبه أحداً فمن أين ادعى ذلك؟).
وأجابه الإمام (عليه السلام) بالواقع المشرق من جوانب حياة الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) (إن الله أنزل على نبيه كتاباً بين دفته فيه ما كان، وما يكون إلى يوم القيامة في قوله تعالى: (ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء)(٥)).

وفي قوله تعالى: (وكل شيء أحصيناه في إمام مبين)(٦) وفي قوله تعالى: (ما فرطنا في الكتاب من شيء)(٧) وفي قوله تعالى: (وما من غائبة في السماء والأرض إلا في كتاب مبين)(٨) وأوحى الله إلى نبيه أن لا يبقى في غيبة سره، ومكنون علمه شيئاً إلا يناجي به علياً، فأمره أن يؤلف القرآن من بعده، ويتولى غسله وتحنيطه من دون قومه، وقال لأصحابه: حزم على أصحابي وقومي أن ينظروا إلى عورتني غير أخي علي، فإنه مني، وأنا منه، له ما لي وعليه ما علي، وهو قاضي ديني، ومنجز وعدي، ثم قال لأصحابه: علي بن أبي طالب يقاتل على تأويل القرآن كما قاتلت على تنزيله ولم يكن عند أحد تأويل القرآن بكماله وعامه إلا عند علي، ولذلك قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (أفضاكم علي) أي هو قاضيكم، وقال عمر بن الخطاب: لولا علي لهلك عمر، يشهد له عمر ويجده غيره) وأطرق هشام برأسه إلى الأرض، ولم يجد منفذاً يسلك فيه للرد على الإمام فقال له:

(سل حاجتك).

قال الإمام (عليه السلام): (خلفت أهلي وعيالي مستوحشين لخروجي) قال هشام: أنس الله وحشتهم برجوعك إليهم، فلا تقم وسر من يومك)(٩).

مكيدة الطاغية هشام مغادرة الإمام (عليه السلام) دمشق
أمر الطاغية هشام إغلاق جميع الحوانيت في دمشق بوجه الإمام خوفاً أن يفتتن الناس به، ويتبلور الرأي العام ضد بني أمية فأوعز إلى الأسواق في جميع المدن بإغلاق محلاتها التجارية الواقعة في طريق الإمام (عليه السلام). وقد أراد بذلك هلاك الإمام (عليه السلام) والقضاء عليه وعلى من معه.

سارت قافلة الإمام (عليه السلام) وقد أضناها الجوع والعطش فاجتازت على بعض المدن فبادر أهلها إلى إغلاق محلاتهم بوجه الإمام، ولما رأى (عليه السلام) ذلك صعد على جبل هناك ورفع صوته قائلاً:

(يا أهل المدينة الظالم أهلها، أنا بقية الله، يقول الله تعالى: (بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ)(١٠) وما أنهى الإمام هذه الكلمات حتى بادر شيخ من شيوخ المدينة فنادى أهل قريته قائلاً: (يا قوم هذه والله دعوة شعيب، والله لئن لم تخرجوا إلى هذا الرجل بالأسواق لتؤخذ من فوقكم، ومن تحت أرجلكم فصدقوني هذه المرة، وأطيعوني، وكذبوني فيما تستأنفون فإني ناصح لكم).
فزع أهل المدينة فاستجابوا لدعوة الشيخ الذي نصحهم، ففتحوا حوانيتهم واشتري الإمام (عليه السلام) وقافلته ما أرادوه من المتاع (١١) وفشلت بذلك مكيدة الطاغية، وقد انتهت إليه الأنباء، فلم يقف عند هذا الحد حتى دس إليه السم كما ذكرنا.

إلى الفردوس الأعلى

بعد أن أدى الإمام (عليه السلام) رسالته الخالدة من نشر العلم في مختلف الميادين وإذاعة القيم الإنسانية بين الناس، اختاره الله إلى جواره لينعم في ظلال رحمته إلى جوار آبائه وأجداده عليهم أفضل الصلاة والسلام.

اغتيال الإمام (عليه السلام)

قال معاوية بن أبي سفيان: إن لله جنوداً من عسل، وبعد أن استوضحنا عن هذا السلاح، العسل، عرفنا أنه (السم) كانوا يخلطون العسل بالسم ويقدمونه شرباً لمن أرادوا اغتياله.

لقد تفنن الحكام الأمويون في طرق الإجرام والاغتيال ومن بين الشهداء الذين اغتالهم بهذه الطريقة الإمام الباقر (عليه السلام).

اغتالته بالسم أيد أئمة لا عهد لها بالله ولا باليوم الآخر. جاء في بحار الأنوار:

إن هشام بن الحكم هو الذي قام باغتيال الإمام فندس إليه السم. وهذا القول هو المرجح لأن هشاماً كان حقوداً على آل النبي (صلى الله عليه وآله) ونفسه مترعة بالبغض والكراهية لهم. فكلف إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك ودس له السم وقد أهملت بعض المصادر اسم الشخص الذي اغتال الإمام واكتفت بالقول إنه مات مسموماً (١٢).

الإمام ينعي نفسه

شعر الإمام المعصوم بدنو أجله المحتوم وأخذت تراوده هواجس مريرة بمفارقة الحياة الدنيا، فخف مسرعاً نحو عمته السيدة فاطمة بنت الإمام الحسين (عليه السلام) وهو ينعي إليها نفسه قائلاً:
(لقد أتت علي ثمان وخمسون سنة...)(١٣).

ولما علمت السيدة ما قاله ابن أخيها ذاب قلبها حسرة وأسى عليه وهو بقية أهلها الذين استشهدوا في سبيل الله بسيف البغي والضلال.

دوافع الاغتيال

كان للإمام الباقر، كأبيه وجده، شخصية فريدة مميزة في العالم الإسلامي أجمع المسلمون على تعظيمه والاعتراف بفضله، فقصده العلماء من شتى البلاد الإسلامية للانتهال من ندير علومه ومعارفه التي هي امتداد ذاتي لعلوم جده الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله). وبذلك ملك الإمام قلوب الناس وإكبارهم له، وتقديرهم لمواهبه وهو العلم البارز في الأسرة النبوية. وقد أثارت منزلته الاجتماعية غيظ الأمويين وحقدهم فأجمعوا على اغتياله للتخلص منه.

ومن هذا القبيل، مناظرته مع هشام في شؤون الإمامة، وتفوق الإمام عليه حتى بان عجزه أمام النور الساطع والفكر المتألق. مما زاد في حقه عليه.

مناظرته مع العالم النصراني وتغلبه عليه أمام الجماهير، حتى اعترف عالم النصارى عن مجاراته، وأصبحت هذه المناظرة الشغل الشاغل لجماهير أهل الشام. هذه هي أهم الأسباب التي دفعت الأمويين إلى اغتيال حفيد رسول الله صلى الله عليهم جميعاً أفضل الصلاة وأزكى السلام. وصايا

عهد الإمام محمد الباقر (عليه السلام) إلى ولده الإمام جعفر الصادق (عليه السلام) بعدة وصايا كان من بينها: قال أبو عبد الله (عليه السلام):

(إن أبي قال لي ذات يوم في مرضه: يا بني أدخل أناساً من قريش من أهل المدينة حتى أشهدهم، قال: فأدخلت عليه أناساً منهم فقال: يا جعفر إذا أنا مت فغسلني وكفني وارفع أربع قبوري أصابع ورش الماء، فلما خرجوا، قلت: يا أبت لو أمرتني بهذا صنعته ولم ترد أن أدخل عليك يوماً تشهدهم، فقال: يا بني أردت أن لا تتانع) (١٤).

وقال ابن الصباغ:

(أوصى أن يكفن في قميصه الذي كان يصلي فيه وعن ابنه جعفر الصادق قال: كنت عند أبي في اليوم الذي قبض فيه، فأوصاني بأشياء في غسله وتكفينه في دخوله قبره، قال: فقلت له يا أبت والله ما رأيتك منذ اشتكيت أحسن منك اليوم ولا أرى عليك أثر الموت فقال: يا بني، ما سمعت علي بن الحسين يناديني من وراء الجدار: يا محمد عجل؟ ويقال: إنه مات بالسم في زمن إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك) (١٥).

وقال (عليه السلام): (يا جعفر أوصيك بأصحابي خيراً، فقال له الإمام الصادق (عليه السلام): جعلت فداك والله لأدعنهم، والرجل منهم يكون في المصر فلا يسأل أحداً) (١٦) لقد أوصى ولده بأصحابه ليقوم

بالإنفاق عليهم ليتفرغوا للعلم ويدونوا حديثه ويذيعوا معارفه بين الناس.

كما أوصى بوقف بعض أمواله على نوادب تتدبه عشر سنين في منى (١٧)، أعتقد أن السبب في ذلك يعود إلى أن منى هي أعظم مركز للتجمع الإسلامي أثناء الحج، ووجود النوادب فيه مما يبعث المسلمين إلى السؤال عن سببه، فيخبرون بما جرى على الإمام الباقر (عليه السلام) من صنوف التنكيل من قبل الأمويين واغتياله له ظلماً وعدواناً.
إلى جنة المأوى

أثر السم في بدن الإمام الطاهر (عليه السلام) وأخذ يذنو من الموت وهو متوجه إلى الله تعالى يتلو القرآن الكريم، وبينما لسانه مشغول بذكر الله إذ وافاه الأجل المحتوم، ففاضت نفسه المطمئنة إلى رها راضية مرضية وقام وصيه وخليفته الإمام أبو عبد الله، جعفر الصادق بتجهيز الجثمان فغسله وكفنه بما أوصى به وصلى عليه، ونقل الجثمان العظيم بالتهليل والتكبير وقد حفت به الجماهير، والسعيد من الناس من لمس نعش الإمام... وسارت مواكب التشييع وهي تعدد مناقب الإمام وفضائله. وانتهى بالجثمان المقدس إلى بقيع الغرقد (١٨)، فحفر له بجوار أبيه الإمام السجاد (عليه السلام) وبجوار عم أبيه الإمام الحسن سيد شباب أهل الجنة (عليه السلام) وأنزل الإمام الصادق أباه في مقره الأخير فواراه فيه ووارى معه العلم والحلم والفضل والأخلاق والفقهاء والمعروف والكرم والبر بالناس.
قال أبو عبد الله (عليه السلام): (إن رجلاً كان أميالاً من المدينة فرأى في منامه فقيل له: انطلق فصل على أبي جعفر فإن الملائكة تغسله في البقيع فجاء الرجل فوجد أبا جعفر قد توفي) (١٩).
كان فقد الإمام الباقر من أفجع النكبات التي مني بها المسلمون في ذلك العصر، فقد خسروا بفقده القائد الفالح والرائد الصالح والموجه العظيم الذي جهد على نشر العلم لمقاومة الجهل والانحراف والظلم، وبوجوده تم الوعي الفكري والثقافي والديني بين المسلمين.
لقد انطوى كوكب من كواكب الإسلام الذي ما أظلت مثله سماء الدنيا في عصره علماً وفضلاً وحريجة في الدين.
فصلوات الله عليه وعلى أبيه وأجداده عدد ما في علم الله.
تعزية المسلمين للإمام الصادق (عليه السلام)

عندما عم الخبر هرع المسلمون من كل حذب وصوب إلى الإمام الصادق والحزن يدمي قلوبهم ليعزوه بمصابه ومصابهم الأليم، وليشاركوه اللوعة والأسى بفقد أبيه. وممن وفد عليه يعزیه سالم بن أبي حفصة. قال: لما توفي أبو جعفر محمد بن علي الباقر (عليه السلام)، قلت لأصحابي انتظروني حتى أدخل على أبي عبد الله جعفر بن محمد فأعزیه به، فدخلت عليه فعزيتته. وقلت له: (إنا لله، وإنا إليه

راجعون) ذهب والله من كان يقول: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): فلا يسأل عن بينه وبين رسول الله والله لا يرى مثله أبداً. قال: وسكت الإمام أبو عبد الله (عليه السلام) ساعة ثم التفت إلى أصحابه فقال لهم: قال الله تبارك وتعالى:

إن من عبادي من يتصدق بشق من ثمرة فأربيها له، كما يربي أحدكم فلوه (٢٠).
وخرج سالم بعد أن أخذ العجب منه مأخذه والتفت إلى أصحابه قائلاً: ما رأيت أعجب من هذا كنا نستعظم قول أبي جعفر (عليه السلام) قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) بلا واسطة، فقال لي أبو عبد الله (عليه السلام): قال الله بلا واسطة (٢١).
ولا عجب ولا غرابة فالإمام الصادق (عليه السلام) ابن أبيه وحديثه مستمد من أحاديث آبائه الذين زقوا العلم زقاً وأخذوا علومهم من جدهم رسول الله (صلى الله عليه وآله).

- (١) هدف يرمونه بالسهام.
- (٢) سورة آل عمران، الآية ١٨٠.
- (٣) سورة القيامة، الآية ١٦.
- (٤) سورة الحاقة، الآية ١٢.
- (٥) سورة النحل، الآية ٨٩.
- (٦) سورة يس، الآية ١٢.
- (٧) سورة الأنعام، الآية ٣٨.
- (٨) سورة النمل، الآية ٧٥.
- (٩) حياة الإمام محمد الباقر ج ٢ ص ٦٤ عن ضياء العالمين ج ٢ ودلائل الإمامة ص ١٠٤ . ١٠٦.
- (١٠) سورة هود، الآية ٨٦.
- (١١) المناقب ج ٤ ص ٦٩٠ والبحار ج ١١ ص ٧٥.
- (١٢) الأئمة الاثنى عشر لابن طولون ص ٢٨١.

(١٣) تذكرة الخواص ٣٥٠ وجاء في كشف الغمة عن الإمام جعفر الصادق (عليه السلام) أن أباه قتل وهو ابن ثمان وخمسين سنة ومات علي بن الحسين وهو ابن ثمان وخمسين سنة وأنا اليوم ابن ثمان وخمسين سنة.

(١٤) بحار الأنوار ج ٤٦ ص ٢١٦.

(١٥) الفصول المهمة ص ٢٢٠.

(١٦) أصول الكافي ج ١ ص ٣٠٦.

- (١٧) بحار الأنوار ج ١١ ص ٦٢ .
(١٨) قال ابن منظور الغرقد: كبار العوسج وبه سمي بقيق الغرقد لأنه كان فيه غرقد، ومنه قيل لمقبرة أهل المدينة، بقيق الغرقد لسان العرب ج ٣ ص ٣٢٥ .
(١٩) بحار الأنوار ج ٤٦ ص ٢١٩ .
(٢٠) الفلو: المهر الصغير والأنثى فلوة والجمع أفلاء .
(٢١) أمالي الشيخ الطوسي ص ١٢٥ .

فهرس المصادر والمراجع

اسم الكتاب اسم المؤلف

. الالف .

أئمتنا علي

الأئمة الاثني عشر

أحكام القرآن

الأحكام في أصول الأحكام

الإرشاد

الاستبصار

أسد الغابة

الأصول

أعيان الشيعة

أعلام الورى

الأغاني

الأمالي

الأمالي

الأمالي

الإمام الصادق

الإمام محمد الباقر

أنساب الأشراف ... محمد علي دخيل

ابن طولون

الرازي

ابن حزم

الشيخ المفيد

الشيخ الطوسي

ابن الأثير

الكليني

السيد محمد العاملي

الفضل الطبرسي

أبو الفرج الأصفهاني

أبو علي القالي

الشيخ الطوسي

الصدوق

الشيخ أبو زهرة

القرشي

البلاذري

. ب .

البيان والتبيين ... الجاحظ

. ت .

تأسيس الشيعة

تاريخ ابن الأثير

تاريخ دمشق

تاريخ الطبري

تاريخ يعقوبي

التبيان في تفسير القرآن

تذكرة الحفاظ

تذكرة الخواص

تحف العقول

تفسير القرآن
تفسير القرآن
تفسير البرهان
التطور والتجديد في الشعر الأموي
تهذيب الأحكام
تهذيب التهذيب
تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية ... السيد حسن الصدر
ابن الأثير
ابن عساكر
الطبري
اليعقوبي
الشيخ الطوسي
الذهبي
ابن الجوزي
حسن بن شعبة الحراني
الآلوسي
الشوكاني
السيد هاشم بحراني
شوقي ضيف
الشيخ الطوسي
ابن حجر العسقلاني
مصطفى عبد الرزاق
. ث .
ثواب الأعمال ... الشيخ الصدوق محمد القمي
. ج .
جامع بيان العلم وفضله
جامع السعادات ... يوسف عبد البر الأندلسي
النراقي

. ح .

حقائق الأصول

حياة الحيوان

حياة الإمام الحسين

حلية الأولياء ... الدميري

القرشي

أبو نعيم الأصفهاني

. خ .

الخصال ... القمي

. د .

دائرة المعارف

ديوان

ديوان

الدمعة الساكبة ... فريد وجدي

ابن قيس الرقيات

الطرماح

الشيخ محمد الباقر

. ر .

الرجال

روضة الواعظين

الروض النضير ... الكشي

أبو علي النيسابوري

. س .

سبائك الذهب

سفينة البحار

السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي ... البغدادي

الشيخ عباس القمي

مصطفى السباعي

. ش .

شرح النهج

شذرات الذهب ... ابن أبي الحديد

ابن عماد الحنبلي

. ص .

الصراط المستقيم

صحيح

صحيح

صحيح

صفة الصفوة

الصواعق المحرقة ... علي العاملي البياضي

البخاري

الترمذي

مسلم

ابن الجوزي

القزويني

. ض .

ضحى الإسلام ... أحمد أمين

. ط .

الطبقات ... ابن سعد

. ع .

العقد الفريد

علل الشرائع

علم الرواية

علم الاجتماع الأدبي

عيون الأخبار ... ابن عبد ربه

محمد بن بابويه

الشهيد الثاني

للمؤلف

ابن قتيبة

. غ .

الغدير ... الشيخ الأميني

. ف .

فرائد الأصول

الفصول المهمة

الفهرس ... الأنصاري

ابن الصباغ

الشيخ الطوسي

. ق .

قادتنا كيف نعرفهم

القاموس المحيط ... السيد محمد الميلاني

الفيروزآبادي

. ك .

الكامل

كفاية الأثر

كشف الغمة

كفاية الفصول ... ابن الأثير

الخرزاز

علي الأربيلي

. ل .

لسان العرب

لسان الميزان ... ابن منظور

ابن حجر العسقلاني

. م .

مجمع البحرين
مجمع البيان
المجازات النبوية
المحاسن والأضداد
مروج الذهب
مستمسك العروة الوثقى
مقاتل الطالبين
المناقب
المفيد
مطالب السؤل
المقدمة
مسند ... الطريحي
الطبرسي
الشريف الرضي
البيهقي
المسعودي

أبو الفرج الأصفهاني
ابن شهر آشوب
العلموي
كمال الدين الشافعي
ابن خلدون
الإمام أحمد
ن .

ناسخ التواريخ
نقد الحديث في علم الرواية وعلم الدراية
نهج البلاغة
النظام السياسي في الإسلام

نور الأبصار ... محمد تقي
المؤلف

الشيخ محمد عبده
(جيب)
الشبلنجي

. و .

وفيات الأعيان
الوحدة الإسلامية
الوافي ... ابن خلكان
رشيد رضا

محمد شاه مرتضى
. ي .

يوم الإسلام ... أحمد أمين